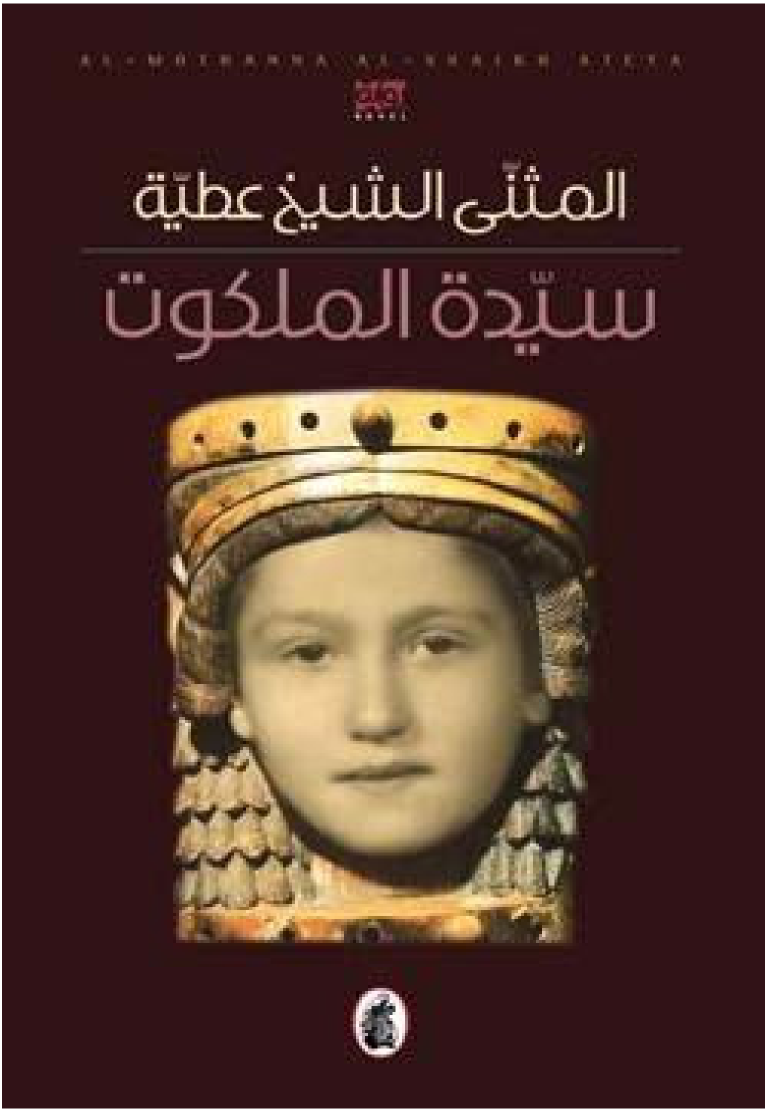
AL-MOTHANNA AL-SHAIKH ATEYA
المثنّى الشيخ عطيّة
سيّدة الملكوت

الكتاب: سيدة الملكوت / رواية باللغة العربية

المؤلف: المثنى الشيخ عطية / سورية

الطبعة: الثانية

تصميم الغلاف: مي الشيخ عطية

الطبعة الأولى عام 2006

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ناشر الطبعة الأولى:

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

....

....

....

....

....

الصف الضوئي:

التنفيذ الطباعي:

جميع الحقوق محفوظة

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

رواية

المثنى الشيخ عطية

سيـدة المـلـكـوت

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

إلى زوجتي.. سمر موسى باشا،
أمي، أخواتي، بناتي، النساء..
اللواتي يعرفن أنهن روح العالم...

وإلى أبي،
هيثم الخوجة / هيثم الشيخ عطية،
رياض الترك، صبحي حديدي،
وجميع رفاقي

لا مكان

ها أنا مرة أخرى بين السماء والأرض، مرة أخرى أحلّق وحيداً في هاوية أفق مفتوح على عذاب تساؤلاتي.. الشمس بدأت تميل للغروب/ هكذا أراها من نافذة الطائرة. غروب ساحر لكنه مخيف يا إلهي. لقد أصبح الأمر حقيقة. لم يعد لعبة وقوف أمام نهر السين وظنّ أنه الفرات لمعاناة تجربة غياب العالم وتجلّي الداخل عارياً مثل وحش لاتخاذ قرار أمام لا خيار منفلت عن أي عقل. لقد أصبح الأمر حقيقة، وها أنا مرة أخرى بين السماء والأرض أمام أفق مفتوح على هاوية اللامكان.

الطائرة تخرج بي من حدود باريس لتدخل آفاق عالم مجهول، يا إلهي، كم هذا مخيف، من منفى إلى منفى!.

أنظر إلى الأسفل لأرى الأرض في ظلال هذا الغروب ولكن لا مكان. هاوية فقط. فم مفتوح فقط لابتلاعي. أحاول التراجع. أحاول إزاحة عيني عن فم الهاوية ولكن لا مفر، الهاوية فم جميل هائل الاتساع ويدعوني، الهاوية فم جذاب ولا مهرب من السقوط فيه.

أتخلى عن المقاومة، أسلم قياد نفسي لهذا اللاشيء الساحر والجذاب المفتوح.

يصمت هدير الطائرة. تتحرك الغيمات البرتقالية أمامي ببطء. أفقد وزن جسدي وأنسلخ شيئاً فشيئاً عنه عبر النافذة. أحلّق في المدى البرتقالي الطليق، وحيداً أحلق في هاوية ارتحالي.

أعتدل مرة أخرى في مقعدي. أنظر إلى السائحة الفنلندية في الصف القريب على يساري. أحس دون ريبة أنها تنظر إلي. أبتسم لها مطمئناً.. "كل شيء سيكون على ما يرام مثلما قلت لكِ في المطار، لن تسقط طائرة أنا فيها، وستهبطين في لارنكا بين أحضان صديقك بالضبط". تبتسم لي.

تضحك وهي تستعيد جنوني في المطار عندما أخبرتها ذلك. لقد كانت خائفة واعتبرت أن تأخير الطائرة فأل سيء، وفكرتْ بإلغاء رحلتها.

ــ ربما كنت تخافين ركوب الطائرات فقط.

ــ نعم، لقد هبطت بي طائرة منذ سنتين هبوطاً اضطرارياً وكانت تجربة موت لا تنسى.

ــ هل سمعت بعائلة "العابد"؟

ــ لا، وما ذلك؟

ــ أنا أحد أفراد هذه العائلة، واسمي هانيبال العابد.

ــ أنا كارين، ولكن ما شأن عائلتك والطائرات؟

ــ إن لعائلتي مزايا لدى الإله نسميها في بلادنا كرامات، وأحد هذه الكرامات هي أننا نعرف بإشارات معينة موعد حلول منيتنا، وأنا أعرف أنني لن أموت بهذه الطائرة. هل أنت متأكدة أنك ستكونين على نفس الرحلة؟

ــ ها ها ها.. نعم.. إن هذا جنون، لكنني سأصدقك.

ألصق ظهري بالمقعد وأضغط زر التراجع. هذا أفضل. أشعر بالاسترخاء. أغمض عيني بهدوء، ويغيب صوت هدير الطائرة. أغرق في الأسود. شيئاً فشيئاً ينقلب الأسود إلى أسود، أسود حتى الغياب، وأرى نورا. يغيب كل شيء ويبقى وجه نورا الذي يقول لي: إنه قرارك هاني. نورا التي وضعتني مرة أخرى على الصراط عندما جئت إليها لأعرض لها المأزق الذي وصل إليه وجودي في باريس. قلت لها: هذا أنا نورا، ممزق بين خيارين.. من جهة أنا محبط وعاطل عن العمل في مدينة طاحنة مثل باريس ولكن الفرنسيين على وشك منحي اللجوء السياسي. لدي حق العمل ولكن لا عمل في باريس. علي أن أصبر لكنني غير متعود على استدانة النقود.. ومن جهة أخرى أنا أملك عقد عمل كمدير تحرير لمجلة نسائية محترمة في قبرص. هناك عمل لكن المستقبل مخيف، وقد أفقد فرصتي لدى الفرنسيين فلا أعود. هذا أنا، ممزق بين خيارين وعلي اتخاذ قرار بقائي أو مغادرتي دون تأجيل لأن فرصة العمل لن تنتظر.

أرى وجه نورا وهي تسألني إن كنت درست خياراتي جيداً، وأقول لها إنني أفضل البقاء ولكني أحس أنني أصبحت عبئاً على الجميع في باريس. لم أعد أستطيع الكتابة. لقد حجّرتني هذه المدينة. أرى وجه نورا الصامت، وأضيف: إنني لم أوضع في حياتي بمثل مطحنة هذا الخيار، أحس أنني ضائع وأريد ذريعة واحدة للبقاء. أقول لها أريد ذريعة واحدة للبقاء وأنا أريدها أن تطلب مني البقاء. أرى وجه نورا المحرج الموزع بين نارين وهي تقول لي: إنه قرارك هاني.

أرى وجه نورا وتدمع عيناي. نعم إنه قراري لكنني أردتك أن تطلبي مني البقاء نورا، ليتك طلبت مني البقاء وجنبتني رياح هذا الشقاء، ولكن هل كنت سأبقى لو طلبتِ ذلك!؟.. ألم يعنِ لي كلامك أنك تطلبين مني

الرحيل، أم أنني فسّرته هكذا لأنني أريد الرحيل.. يا لشقائي فيك أيها الحب الذي لا يبدأ إلا لينتهي ولا ينتهي إلا ليبدأ.. يا لشقائي وأنا أحس أنني مثل جدي آدم على صراط تفاحته: "أنا أفهمك يا جدّ". أقول لجدي آدم مواسياً إياه وأنا عارٍ في أول خطوة لتعاسته على الأرض، يقول لي وهو يواسيني عارياً لكن بربطة عنق أنيقة في أول طيران لي في السماء:
"إنني أفهمك يا صغيري"، ونضحك. يا لشقاء الرجال، لقد مهرنا أنفسنا بلعنة اختيار العذاب المعذبة التي لا تزول.. وأنا غادرت جنتي.

أسمع هدير محركات الطائرة وأنا أفتح عيني. أعود لتلاشي روحي. أغمض عيني وأغرق شيئاً فشيئاً في سحابات السواد.. أتساءل معذباً هل كان قراري صائباً، ولماذا اتخذت مثل هذا القرار!؟ أي شيطان صوّر لي أن هذا هو باب الخلاص!؟ لماذا لم أترك نفسي تعارك وجه باريس الذي كان يحجّرني حتى النهاية!؟ لماذا نسيت استخدام أسلحتي ودروعي أمام جمالها الذي كان يحجّرني، ولماذا انسحبت هكذا ببساطة ولم أترك نفسي تنساح، تلتحم ولو بالموت في جسد هذه الميدوزا الخالصة الجمال حتى النهاية!؟ ما الذي جعلني هكذا، قصير النفس وأنهي نهاياتي على صورة هذه النهاية!؟... لقد سمعت صوتاً يقول لي أن أرحل، نعم أستطيع القول إنني سمعت صوت فطرتي يقول لي أن أرحل وانصعت له كما أفعل عادة حين أجد نفسي في مطحنة التناقضات، ولكن ما الذي يدريني أن هذا الصوت هو صوت فطرتي، وأن هذه التافهة باريس لم تستخدم صوتاً مخادعاً لهزيمتي.. "أيتها التافهة باريس". أقول ضاحكاً وأنا أتذكر هذا اللقب الذي يناديها به صديقي محمود تحبباً ولكي يحيّيها بترداده كلما صنعتْ باريس ما يعبّر عن عظمتها. لقد ارتكبتِ إثم هزيمتي حين لعبتِ أيتها التافهة لعبتي في أسطرة حياتي...

قلت لرفيقي محمود الذي استضافني للسكن معه وأنا أنظر اللون الأخضر في كأس الويسكي بالنعناع الذي يعده جيداً حين سألني لماذا أمارس حياة الصياد بدلاً من إيجاد فتاة أرتبط بها إنني أنتظر معجزة أن تكون نورا في باريس. وقبل أن يستنكر محمود الذي لا يرحم بأخلاقياته هذا التصرف مني، قلت له إنني أعلم أنها متزوجة الآن لكنني أوقفت حياتي على انتظار هذه المرأة منذ أن انتشر نبأ جنوني بحبها في حلب دون أن أعرفها لمجرد أني رأيت غلاف مجلة من تصميمها، وأني أعيش هذا الحب كوهم لامرأة أختزل بها جميع النساء. أنا أعلم أنها تعيش حياتها مع زوجها وابنها في الكويت، لكن هواجسي تبقيها حية في داخلي وتقول لي أن أنتظر، وضحك محمود من شطحاتي، لكنه توجس شراً فذكاؤه ودراساته عن شتراوس لم تسمح له إلا أن يقول لي: للأساطير أساس واقعي فاحذر من نفسك. أنت تعيش الحياة مثل فيلم سينمائي، ولا تفرّق بين حياتك وكتاباتك. قال لي محمود وهو يشرح لي خوفه من شطح أسلوبي الشعري بعيداً عن حقيقة الحياة إن استمريت باستخدام الأسطورة في حياتي على هذه الصورة، قال لي ذلك وأضاف أنه يخاف علي من لوثة ضياع في طيراني تدخلني في ثقب أسود لا أعرف له مخرج، ويبدو أنني دخلت هذا الثقب دون أن أدري في لوثة ضياعي بأحلامي في أحضان هذه التافهة باريس، ولم أعد أستطيع الكتابة.

سألني محمود أن أحدد له أو لنفسي ماذا سأفعل بحياتي في باريس، وقلت له دون أن أفكر وكأنني أهذي: سوف أقتفي أثرها، أبحث عنها، هنا في داخلي، وفي تفاصيل جسد باريس، وهناك في الوطن، في ذاكرتي، وسوف أتم روايتي عنها. نعم، سأكتب روايتي عنها. وضحك محمود: من أين ستبدأ، سألني ساخراً وقاصداً، من اللوفر أم من بيغال!؟.. وقلت له

ضاحكاً: لا فرق لكنني قد أبدأ بما هو حيّ أي من اللوفر.. نعم سأزور الموناليزا التي يطيب لك أن تشبهها بوحدة الكون. لكن لماذا لا أبدأ من السان دوني أو من بيغال، أو ربما من دوفين حيث يتحد حابل النساء بنابل الرجال. أو ربما من الوطن. من تلك النقطة البعيدة الحية عندما قابلتها. هناك في متحف حلب حيث نزلت من دمشق لزيارة معرض كمال في صالة المتحف. هناك في حجرة الملكة في متحف حلب حيث دخلت بالقوة نفسها التي سلبت إرادتي لدرجة أنني لم أفكر بالمقاومة ولا بموعد افتتاح المعرض في الصالة المجاورة ولا بأصدقائي المنتظرين. هناك حيث انحرفت يساراً في الرواق المعاكس لاتجاهي إلى الصالة، ودخلت الرواق المؤدي إلى حجرة الملكة دون أن أقرأ حتى لوحة النحاس المكتوب عليها "مملكة ماري" فوق الحائط. الرواق الخالي إلا من صوت خطواتي المتردد على الرخام. الرواق المفضي إلى باب الحجرة أمامي. باب حجرة الملكة المفتوح أمامي تحت شلال ضوء ينصب عليه بغزارة من نافذة خلفية، ويلقي بمحتويات الحجرة في قدر النور والظلال... هناك حيث وقفتُ في بقعة النور أمام الباب ووقف ظلي المنسفح خلفي في الرواق مرتبكاً أن يلحق بي، مرتبكاً ويمد يديه متشبثاً لمنعي من المضي باتجاه الجسد الذي تجلّى أمامي وشدتني إليه قوة نبضه الحية، شدتني إليه دون أن أستطيع المقاومة.. هناك حيث تجلّت أمامي. الربة أمامي. حيّة هكذا أمامي، وتدعوني...

انفصلتُ عن ظلي ودخلت. خطوة خطوتان ووقفت. وقفت وكأن يداً تقول لي أن أقف. وقفت وانحنيت دون أن أزيح نظراتي عنها. وقفت لأخلع نعلي الأيمن بهدوء ثم نعلي الأيسر بهدوء، ولأضعهما دونما صوت على العتبة، وأخطو حافياً. وقفت أمام الجسد الأسود الثابت أمامي. جسد الربة الحي. الربة التي أحسها هكذا بانتظاري، حية منذ ثلاثة آلاف سنة

بانتظاري. الربة التي بانتظاري وتبتسم. الربة التي تبتسم لي بحنان مخيف..

نظرتُ وجه الربة. نظرت وجهها المتكشف كما مرآة لهوّة داخلي. نظرت وجهها القاسي الصلب الذي يمنحه لونه البازلتي الأسود الرقة والجلال. نظرت وجه الربة الذي هو وجه أمي عندما كانت صبية وحنون..

الجرة التي تمسك بها كفاها دعتني لأشرب ودفعتني إلى الدوران.. بطيئاً حولها. بطيئاً دون أن أزيح نظراتي عن عينيها اللتين تلاحقاني وترياني حتى عندما أصير خلفها..

نظرت وجه الربة. وجهها الذي بدأ بالتغير والتشكل وجوه نساء ميزت منهن وجه أمي ووجه جميلة ووجه امرأة أحسست أني أعرفها دون أن أستطيع تحديد ذلك. امرأة لها وجه شجرة مشمش مزهرة بتويجات الربيع.

اقتربت من الجرة. اقتربت من فم الجرة الذي ينصب منه الماء بعذوبة وهدوء. وضعت شفتي على فم الجرة دون أن أستطيع إزاحة عيني عن عيني حاملتها التي تعرف ذلك وتبتسم..

تذوقت لون الماء الذي أراه في عينيها. تذوقت لون الزمرّد، لون العذوبة التي من نار وألم على شفتيّ، وأحسست مع دفق الملامسة بالرمح الذي يأخذ مكانه بهدوء في قلبي.

جلست لاهثاً، مسنداً رأسي على ركبتها ومحاطاً بالسكينة والشقاء، وأحسست بيدها تمر على شعري بحنان وتبعث فيّ الأمان.

نظرت فوقي. نظرت جديلة شعرها المضفور على شكل "حية" وأصبت بالذهول."الحيّة" بدت أمامي حية للحظة. حية بعثت فيّ الرعب غير أن ابتسامة ربتي أعادت إلي السلام. ابتسامة أمي وابتسامة وجه شجرة المشمش إياها التي غيبتني عن إدراك ما يحدث...

نعم. لماذا لا أبدأ من صالة المعارض في متحف حلب، التي لم تكن باردة مساء ذلك اليوم من نيسان حيث دخلت قادماً من حجرة الملكة، بخطوات شاردة وقميص مطرّز بقبة من الدانتيل أوحت للجميع بأنني قادم من زمن آخر، ودفعتهم للاندهاش.

كانت الصالة كما أحسست بها بعد أن استيقظت من شرودي تشكل مؤتمراً بهيجاً غير مخطط له من قبل شباب اليسار الذين أتوا من مختلف المدن لتأكيد روح التضامن والمساندة، ولعقد لقاءات العمل السياسي أو الجماهيري المغلف بشرعية العمل الثقافي العادي تحت أعين سلطة تجسسية ترصد حتى حركة النمل.

القبلات والمصافحات المنداة بشوق الضائعين الذين حولوا ماء سرابهم إلى ماء أيقظت في روحي أجنحة طائر كنت قد كبلته بقسوة إلى أن أستبين خيطي في كبكوبة التساؤلات.

رأيت وأنا أدخل فراشة كبيرة لم أعرف كيف انبثقت متجاوزة إياي وطائرة باتجاه الفتاة المأخوذة أمام لوحة عازف الناي بمزماره الذي يرفع الموجودات حوله من أرض وأزهار ونباتات غريبة إلى مجاهل السماء.

غاب عني الحشد الكبير الموزع في الصالة حول كمال ولوحاته، وتجلّت أمامي الفراشة واضحة وهي تبتعد قليلاً عن الفتاة ثم ما تلبث أن تدور حولها فتجعل عينيها وهما تتابعانها تومضان قبل أن تستقران عليها وهي تأخذ مكانها فوق زهرة برية في اللوحة.

رأيت عيني سلام تتملصان من استلاب الفراشة الغريبة لهما، وتلتقيان بعيني كمال، تردّان على تحيته بابتسامة عريضة منداة جعلته يحمرّ خجلاً من انكشاف لعبته، ثم يرتد للحديث مع المعجبين حوله، وسمعت بوضوح

غريب صوت كمال الذي لم يحرّك شفتيه بحرف يقول: "لقد وصلتها رسالتي" قبل أن ينتشلني معاذ من بقايا سرابات جنوني.

ــ لقد اشتقنا إليك يا رجل. كيف هي دمشقك؟.. قال لي وهو يسحبني في اتجاه لوحة قرويات يحصدن القمح تحت سياط أفق مشتعل بالنار، وأضاف..

ــ عندي لك مفاجأة ستذهلك، ولكن قبل ذلك قل لي، ما أخبار سيدة غلافك!؟

أصبت بالدهشة، وأحسست أن ثمة عاصفة تقترب لتهز حياتي. حاولت تمالك نفسي..

ــ أية سيدة وأي غلاف؟!.. قلت.

ــ غلاف مجلة "الآداب الأجنبية". قلت لي أنك مرتحل من حلب إلى دمشق لتتزوج مصممة لا تعرفها.. قال معاذ ذلك ببراءة وتخابث الطفل الذي يحمله في بريق عينيه وأسنانه الأمامية الجميلة المتباعدة، وومض في مخيلتي غلاف المجلة مثل برق لمع فجأة ليصيبني بالدوران.. انفتح الغلاف كاملاً أمامي وكأنما يفتح كوة على هوة مصيري. هاهي ذي مرة أخرى طفولة العالم بين يدي، شريط من الأخضر والأزرق والبني تتنافر ألوانه وتتآلف ببساطة انسياب ماء جدول. أخذني الماء وانساب بي بين جوانح غابات صنوبر تخفق واستطعت أن أشم رائحة الصنوبر وأن أصل إلى نقطة الهذيان/ يا أمي خذيني الآن. ردّد الصوت داخلي وانفتح وجه الأفق أزرق مثل بحر أزرق يتموج بهدوء ويدعوني.

ــ ماذا جرى لك!؟.. ألمح في وجهك حالة الانجذاب نفسها التي رأيتها فيك عندما شاهدتَ الغلاف لأول مرة. قال معاذ ضاحكاً ومحاولاً انتشالي من غرقي، وحاولت بدوري التماسك. ضحكت.

ــ هل قلتُ لك، أنا، إنني ذاهب إلى دمشق لأتزوج امرأة لا أعرف منها سوى لوحة غلاف صممته!؟

ــ نعم، أنت قلت ذلك.

ــ وأنت صدقتني؟!.. قلت ساخراً.

ــ رغم ثقتي بمعجزاتك، لكن هذه المرة لن أصدقك.

ــ لقد ريحتني، ولماذا هذه المرة؟!.. قلت محاولاً اكتشاف ما يقلقني في تصرفه.

نظر معاذ حوله، وأشار لي بعينيه إلى الفتاة الواقفة بعيداً، والمتأملة بانجذابٍ لوحةً ضخمة أمامها.

ــ جميلة.. قلت هامساً بابتسامة أسى.

ــ ألا تريد رؤيتها؟.. قال معاذ، وأحسست أن طائراً يموت في داخلي ويزم صدري حتى الاختناق.

ــ ما رأيك أنت!؟.. قلت ضاحكاً وأنا أختنق بعبرة داخلي.

نظر معاذ باتجاه المجموعة التي تراقبني، ونظرت إليهم بدوري، وتسمرت عيناي.. التقت عينيّ بعيني محسن وهزّ رأسه مسلّماً وهززت رأسي. قالت عيناه بتشف: "اذهب إلى رؤيتها إن كنت تجرؤ على تجاوز خجلك". وردّت عيناي بسخرية على تحية عينيه: "بإرادتي كان ذلك، وبإرادتي سيكون ذلك".

لاحظ معاذ التصميم الذي ومض في عيني بعد تحية عيني محسن.

ــ اذهب إليها، وسأذهب لأعد مفاجأتي لك، لكن كن حذراً. مازال رفاقك هنا مغتاظين من رحيلك ويشعرون أنك خدعتهم بهذا. قال معاذ بسعادة وهززت رأسي ضاحكاً بأسى:

ــ وماذا يريدون أكثر!؟.. لقد تركت جميلة كما أرادوا.

ـ وحوّلتَ تنازلك السهل إلى ذنب في أعناقهم. هل تعرف معنى أن يقف شيوعي تحت ضغط العادات مع التخلف الديني وضد مبادئه. أنت جعلتهم يحسون بالخزي. وكانوا يريدونك أن تصارع وأن تخطئ كي يمتنوا بناء منظمة حلب وفقاً لتصوراتهم أو لعقدهم إذا أردت. لكن انظر هاني. أنا أيضاً مغتاظ من موقفك وجميلة وجميع من معك ومن ضدك، لكن ليس هذا هو وقت الحساب. اذهب لرؤيتها طالما أنت مصمم. قال معاذ ذلك تاركاً إياي في صراعي مع نفسي.

تأملت الفتاة الغارقة في لوحة "رودو وروزي"، أسطورة بابلو نيرودا التي قرأناها سوية. جميلة الفتاة التي أعطت ظهرها لي. "**روزي. الفلاحة. ابنة القياصرة. النهدان الوزونان. روزي الليلية الشعر، الزاهرة الفخذين. قرينة بريق قمر ينام. الصمت الملتف بعريه بين الأوراق**". تقدمت باتجاه الفتاة الغارقة في تأملاتها وتذكرت مقابلة أخيها الخاصة لي: "لقد أردت مقابلتك دون أن يعلم أحد بهذا، وخاصة جميلة. لا أريد إحباطها. أنت تعلم هاني أنني عضو قيادي في حزب يؤمن بالتحام شعبنا دون أي تمييز أو اعتبار للدين أو الطائفة، كما تعلم أنك تستطيع تمزيق قرار فرعية الجامعة بانفصالك عن جميلة، ورميه بكامل الشرعية في وجوههم، إضافة إلى أنني لن أسمح لنفسي بالطلب منك أن تنصاع لهذا القرار. لقد أردت فقط أن أضعك في صورة وضع عائلتنا المحرجة أمام أولاد عمومتنا من السماح بخطف بناتها من مسلمين. إن بعض مسيحيي الجزيرة يقتلون أخواتهم أو بنات أعمامهم على هذه الفعلة. الأمر كما ترى معقد، ووالدنا تعرض إلى هذا من قبل وأجهد. سوف أؤكد لك هاني إنني أفضلك على جميع الرفاق، وأن القرار عائد إليك وإلى جميلة التي أرجو منك أن لا تعلمها بحديثنا".

تقدمت باتجاه جميلة. مررت بكمال الذي يتحدث مع مجموعة من الحشد. صافحته وهنأته على معرضه. قلت له غامزاً: أحسدك على فراشاتك، وفهمني. ردّ ضاحكاً وغامزاً إياي: ستجد منها الكثير في لوحة "رودو وروزي".

اقتربت من جميلة بهدوء دون أن تحس بي. حاذيتها وأحسّتْ هي أن أحداً بجانبها دون أن تلتفت. قرأتُ البطاقة الصغيرة التي وضعها كمال بجانب لوحته:

ــ " **قالت إني خائفة** ".. قلت ذلك وتسمرت جميلة في مكانها. مال وجهها الأبيض المستدير إلى الشحوب. نظرتْ إليّ مواربة، وأكملتُ قراءة البطاقة:

ــ " **أحبك بكل هذا الخوف الجوفي**

بكل أذى العقاب.

إني أخاف شقائق النعمان الساعية إلى النهش

والصاعقة التي تحضّر أفعالها في شجرة البركان السرية

إني أخاف ضوءها الرهيب،

أخاف نهارها الصافي المستحيل رماداً "...

نظرتْ جميلة بعينيها الصغيرتين البراقتين في عيني دون أن تتكلم، ونظرتُ في عينيها بعيني الحزينتين وأكملت:

ــ "**فإلى أين نتجه ؟ ولماذا جئنا !؟**".

ــ أنت تحفظ نيرودا عن ظهر قلب!.. قالت وهي تبتسم لي. نعم لماذا جئت!؟.

مددت يدي مصافحاً فمدّت يدها بتردد، واحتضنتُ يدها.

ــ أظننا اتفقنا أن نكون صديقين.

ــ نعم.. قالت وسحبتْ يدها محذرة إياي، صديقين مراقبين. وضحكت.

ـــ دعيهم يغتاظون، قلت وبان عليها الانزعاج.

ـــ كالعادة، لا يهمك إلا أمر نفسك. هل فكرت بي!؟.. قالت ونظرتُ إليها حزيناً.

ـــ أنا آسف، سمعت أنك خطبت. كيف هو خطيبك؟.. قلت وردّت علي بحزن وعتب.

ـــ جيد. إنه من ديني.

شعرت بالحزن والأسى والضياع وأنا أتذكر آخر لقاء لنا عندما أخبرتها أن المنظمة قررت انفصالنا لأن أهلها يرفضون زواج مسيحية من مسلم، ولأن حبنا سوف يشرخ المنظمة باعتبار أن أهلها الشيوعيين لا يستطيعون مجابهة مجتمعهم المسيحي إذا تم خطفها من قبلي.

شعرت بالحزن وأنا أتذكر سؤالها المفجع لي: "وأنت ماذا قررت" !؟ وبالأسى وأنا أغرق في خزيي، وبالضياع وأنا أجيبها: لقد قررت الرحيل عن حلب.

نظرتُ في عينيها بحزن فلانت مشفقة علي.

ـــ كيف هو حالك، كيف هي دمشق، هل وجدت فتاتك؟ قالت بابتسامة، وأصبت بالدهشة.. "يبدو أن معاذ نشر خبري على الملأ".

ـــ فتاتي؟!.. قلت متصنعاً الدهشة.

ـــ نعم، معاذ قال لي إنك ذاهب لتتزوج فتاة أعجبك غلافها.

ـــ وصدّقتيه؟!

ـــ ألا تفعلها؟!.. لقد قالوا لي إنك تراهن على فتيات وتربح الرهان.. قالت وهبط جليد العالم على نفسي. لمعتْ في ذاكرتي صورة عبد الواحد وهو يدفع ثمن العشاء بعد خسارته الرهان معي من أنني أستطيع إغواء الفتاة التي يلاحقها بثلاثة أيام فقط، واختلطت صورته بصورة ندى وأنا

أودّعها قائلاً إنني لا أستطيع وعدها بأي ارتباط للزواج. نظرتُ إلى جميلة بعتاب بارد:

ـ لم يخبروك أنني أردت كسر دونجوانية عبد الواحد فقط.

ـ بإيذاء الفتاة! هل فكرت بالفتاة!؟.. قالت وكأنها تعني نفسها وخيم عليّ صمت كسير.

"هل هذا ما تفكرينه بي"!؟.. قالت لها عيناي، وأحسستُ بإحراجها من انكشاف عواطفها أمامي فأمسكتْ بيدي معتذرة.

ـ لا عليك هاني. أعرف أنك لست بهذا السوء. نحن أصدقاء. هل رأيت لوحة رودو وروزي. تأملها معي.. قالت وأحسست بالتوتر يزول. نظرتُ متأملاً اللوحة، متأملاً الكائنين المتحدين غير الملفوفين سوى بقوة عريهما الساطع في صدر اللوحة أمام قوة ظلام عمياء يصعب استدراك مصدرها تنبثق من الخلف والجوانب محاولة قذفهما خارج حركة موجودات الغابة الحانية. أحسست أن قوة العماء في انفلاتها الوحشي لا تفعل سوى شدهما بقوة أكبر إلى بعضهما في حالة اعتصار لكن مكابَرة وألم. لمع في ذاكرتي السيف الذي يحمله حارس بوابة النعيم خلف الكائنين الأبديين الفانيين/ الرجل والمرأة، آدم وحواء مايكل أنجلو، لكنني لم أر أي أثر في وجهيهما للندم. كان ألم المعاناة الذي يحاول قصم ظهريهما يستحيل إلى عناد، وإلى حنو، وإلى التفاف أكثر لهما ببعضهما في حركة حماية أمام انفلات الهول.

تأملت وجه الرجل.. إنه يشبه كمال، كما أنه يشبه معاذ، وأيضاً يشبهني.

شعرت بخلل حواسي، وأجبرني الخلل أن أنظر وجه المرأة في اللوحة.. بمواربة في البداية، ثم بخشية ما لبثت أن استحالت خوفاً ثم إلى تحدٍّ دفعني إلى التحديق، لقد كانتْ هناك.. الربة بابتسامة عينيها الساخرتين القاسيتين والحانيتين بآن.

أصبت بالدوران، وكان على أحد ما أن ينتشلني من سرابات عذابي.

جاءني صوت معاذ مسّلماً على جميلة، محتضناً بيديه يـــدها وضـــاحكاً لإغاظتي..

ــ "حمامة بيضاء تهدل".. قال ضاحكاً وناظراً إلي بشقاوة الطفل الـــذي سرق تعبيري في وصف جميلة. ضحكتْ جميلة وضحكت أنا علـــى أيـــام هناءتنا الماضية.

ــ سأقدم لك مفاجأتي مادمت عدت إلى صفاء روحك.. ســـوف تـــأتي الآن.

نظرت بالاتجاه الذي أرادني أن أنظر إليه. نظرت إلى المـــرأة القادمـــة بخطوات رشيقة، المرأة الضاحكة بصفاء ماء جدول يجري، المرأة التـــي أسرتني تسريحة شعرها التي على شكل قوس من الحرير يحتضن وجهها، المرأة التي تملّيت مع اقترابها وجهها وأصبت بالذهول.. كان وجه شجرة المشمش إياه المزهر بتويجات الربيع، وجه الربـــة الـــذي ومـــض فجـــأة واختفى ليفتح أمامي كوة على هوة مصيري.. هاهي ذي طفولة العالم مرة أخرى بين يدي.. شريط من الأخضر والأزرق والبنـــي تتنـــافر ألوانـــه وتتآلف ببساطة انسياب ماء جدول..

أخذني الماء وانساب بي بين جوانح غابات صنوبر تخفق واستطعت أن أشم رائحة الصنوبر، أن أصل إلى نقطة الهذيان/ يا أمـــي خـــذيني الآن.. ردّد الصوت داخلي وانفتح وجه الأفق.. أزرق مثل بحـــر أزرق يتمـــوج بهدوء ويدعوني..

ــ نورا محمد علي، سيدة غلافك.. قال معاذ معرفاً إياها ومددت يـــدي لمصافحتها.

ـ هانيبال العابد.. قال معاذ معرفاً بي، وأحسست بيدها تختلج في يدي مثل حمامة عصف بأجنحتها وميض البرق.. اتسعت عيناها من الدهشة واغرورقتا بالدمع.

ـ هاني!؟.. قالت نورا وهبط عالم طفولتي أمامي.. تلك هما عيناها، غابتا طفولتي، البحيرتان اللتان اختطفتا قلبي الطفل منذ ثلاثة آلاف سنة وغابتا.

ـ نورا، أنت نورا، لصة المجلات.. قلت دامع العينين محاولاً انتشال نفسي من هول المفاجأة.

ـ وأنت هاني، الأناني.. قالت ضاحكة وشدت على يدي بكفها التي لم أعد أستطيع إفلاتها من يدي.

فوجئ معاذ الذي كان يهيئ نفسه لمفاجأتي.

ـ أنتما تعرفان بعضكما!!.. قال وردّت نورا معاتبة إياه.

ـ هل هذا هو الشاعر الذي هاجر إلى دمشق لكي يتزوجني من غلافي!؟.. لماذا لم تقل لي إنه هاني. ياه.. منذ كم سنة لم أرك. عشرون، قالت متملية إياي، لم تزل كما أنت النحيف المعصعص.

ـ وأنت نورا محمد علي التي كانت تسرق مجلاتي. لماذا عبد الله. لم أعرف أنك الرسامة.. قلت وضحكت نورا ملتفتة إلى الرجل الواقف المستغرب ما يدور بجانبها..

ـ إنه يوسف عبد الله. زوجي الذي أخذت اسمه للتوقيع على أعمالي، وليتني لم أفعل. قالت نورا ضاحكة ومقدمة إيانا لبعض.. هاني ابن خالتي نوّارة، صديقة أمي التي سميت باسمها. لقد حدثتك عنها.

شدّ يوسف على يدي.

ـ الحق على معاذ. يعرفك ولم يعرّفنا بك.. قال وحاولت مقاومة غصتي من الرجل الجميل الأسمر ذي الجسد الرياضي.

ـ وما أدراني بهذا!؟.. قال معاذ.

ـ إنها مفاجأة فعلاً.. قلت ساخراً منه وعيناي لا تفارقان عيني نورا.

ـ لم تزل مفاجأة. أردت أن أكذّب معجزة من معجزات تخاطرك ونجحت. هاهي ذي سيدة غلافك، لكنها متزوجة.. قال معاذ.

ـ لكني لم أقل إنني سأتزوج من عذراء!؟.. قلت مازحاً وناظراً إلى يوسف الذي ضحك قائلاً:

ـ أخشى أن أحداً ما سيشعر بالإحباط.

قدّمتُ جميلة إلى نورا، فقبّلتها وكأنها وصية علي، ولم تتوقف عن اختلاس النظر إليها.

ـ أنت لا تعرف ماذا خسرت هاني. أخبرني معاذ بالقصة. لو كنت أعرف أنك البطل لذهبت معك إلى أهلها للمبادلة بيوسف.. فها هو مسيحي منهم أخذ مسلمة.. قالت نورا ونظرت إلي بأسف استحال إلى بحيرة حنان أغرقت قلبي مرة أخرى وغابت...

بدأت بحثي بإخبار محمود أنني سأقوم بتحقيق صحفي حول مهنة الدعارة في باريس لصالح مجلة نسائية يعمل بها سامح، وسخر مني محمود قائلاً: إن معظم الصحفيين الذين يأتون إلى باريس مثلك ومثل صديقك سامح يحاولون إجراء هذا التحقيق، ومن أجل أن يكون التحقيق أكثر واقعية يتحولون إلى أبطال فيه. لكني تجاوزت سخريته وبدأت بحثي عما يؤرق نفسي بالتنقل بين اللوفر وكنيسة نوتردام والسان دوني، موقناً بشطحٍ لا أعرف مصدره بأن السرّ يكمن في البرزخ الفاصل مابين المتناقضين، وفي وحدتهما الغامضة المتجسدة في ما لم أستطع إدراكه مما قرأت عن عمل كاهنات المعابد.

أخذتني عيون الموناليزا التي استخلصتها حية خالصة بنظرة خاطفة وأنا أسير مع حجاجها إلى عيون الفرنسيات الودودات في الطريق وفي السوبر ماركت وفي الباصات وفي ممرات المترو المزدحمة وأكثر من ذلك في عيون فتاة غجرية كانت تحج إلى كنيسة نوتردام.

تتبعت خطى غجريتي أزميرالدا وهي تسير مع عنزتها في أروقة نوتردام، وبحثت عن سر عدم قدرتي على تخيّلها دون عنزتها، وحلّلت منطق فيكتور هيجو بخلق هذا النموذج وشطحت بمخيلتي إلى آلهتي عشتار/ سيدة الحيوانات، وتساءلت هل كان هيجو يدرك مايعمل عندما كوّن ازميرالدا على هذه الصورة!

جلت وصلت في السان دوني. سحرتني نظرات نساء السان دوني الخالية والمفعمة بالمعنى في ذات الوقت. سحرني المعرض الحي المقام أمام الملأ في الشارع للحم النساء الحي.. شقراوات فرنسيات، بيضاوات أوروبيات، أميريكانلاتينيات، عربيات وحتى هنديات وسوداوات أفريقيات ينظرن نظرة مواربة غير مهتمة في الظاهر، ويتخايلن بما يكشف عن

مفاتن تدفع أشد الرهبان عصبية إلى اعتبار الخطيئة محواً للخطيئة. سحرتني عيون نساء السان دوني وسحرتني أجساد النساء الجلادات، نساء فالكيري، حاملات سوط السيطرة، حضن الرجال الذين تعبوا من حمل مسؤوليات الشرف وقدموا ليبكوا في الحضن الذي حمّلوه دون أن يدركوا تبعة ذلك صليب الآلام.

تفحصت حضن ميشيل الأشقر الحنون بعد أن خلعتْ عنها سوط ومشابك الجلد لتتجلّى أمامي آلهة للرقة والحنان، وتفحصتْ هي ترددي عن التفاعل بتفهم يليق بالملكات. سألتني عن سبب اختياري لها، وسألتني إن كنت أعاني فعلاً من مشكلة شعور بالذنب، ولم أستطع سوى أن أبتسم . قلت لها ضاحكاً إنني ملاحق بذنب إنزال البشرية إلى الأرض، ونظرت في عيني بجدية، قالت لي بحنان إنه ليس عليّ أن أشعر بذنب لم أرتكبه، وقبّلتني على خدي. قالت لي إن لدي فقط مشكلةً في تأقلمي مع واقعي، وإنني لن أستطيع حلّ مشكلة تأقلمي في هذا المكان.

توغلت أكثر في بحث مشكلة عدم تأقلمي إلى محاولة إقامة علاقات أعمق، وساعدني على تلمس طريقي صديق قديم طريف كنت قد أمضيت معه أياماً مليئة بالضحك والمراهنات ولا تنسى في دمشق.. التقيت بألدار في بيت سامح وضحكنا من تذكر أيامنا الماضية حيث كان يسلبني بعض النقود بالمراهنة وكسب الرهان على محادثة أي فتاة أشير له أن يكلمها، وعلى مدّ الرهان إلى إقامة علاقة معها. تفهمت وأنا أناقشه في مواد المجلة النسائية التي يعمل سامح مراسلاً لها في باريس أكثر وأكثر فلسفته البريئة في أنه نذر نفسه لخدمة الملكات دون تحديد أو تمييز ودون غش كذلك، وأبديت استغرابي من قدرته على أن يظل نبيلاً مع المرأة في هذه الفلسفة التي تمحو حدود التملك في زمن يدفع التملك أهله إلى حد القتل.. التقيت بألدار، وسرّني أن وضعه كان جيداً بالعمل في مطبعة عربية في

باريس. أخبرني أنه ترك عمله في بيروت بعد الاجتياح الإسرائيلي وخرج تقريباً مع المقاومين الفلسطينيين، حيث لم يأمن العودة إلى دمشق بسبب عمله مع المقاومة...

جرّنا الحديث ونحن نناقش موضوع آلية دفاع المضطهَد عن مضطهِده في المجتمع العربي إلى صعوبة تنفيذ مشاريع تحرر المرأة بسبب ما يشدّها من حبال غلّظها تاريخ متواصل من السيطرة والخديعة إلى الدرجة التي أصبحت فيها المضطهَدات جزءاً من آلية الاستعباد، وتذكرت اكتشاف ألدار الساخر لخيط الثقافة الذكورية المتسرب إلى قصائدي، وقوله الصريح لي ببساطة إنني أستعمل مفردات ومفاهيم تجعل مني دون أن أدري أحد الداعمين للثقافة التي أحاربها مثل مفردة الشمس التي أستخدمها كسلاح في يدي دون أن أدري أن الشمس تشكل محور الثقافة الذكورية باعتبار أن الآلهة الأولى للثقافة الذكورية كانت الآلهة الشمسية.

أردت أن أبين لألدار بصورة لا مباشرة مدى تغيّري واهتمامي بجلاء الغموض عن مفاهيمنا وعدم الانخداع بما تقدمه الثقافة. وأشرت إلى اهتمامي في البحث عن رموز الديانات الأمومية داخل حيوات الناس وأساطيرهم اليومية، ووجد ألدار فرصة لإعادة التوهج إلى صداقتنا وإثبات مفاهيمه الغريبة التي تصرّ على دمج الوجودية بالماركسية فقام بدعوتي إلى معرض فريد لفنانة فرنسية صديقة له قال إنني سوف لن أنسى تجربة عرضها.

استقبلتنا ماريان بحرارة آسرة للروح. عانقتْ ألدار الذي ضم خصرها بنعومة مع تقبيله لخدها، وأعطتني خدها الأبيض الذي مس شفتيّ بفيض من الحرير الدافئ لم أستطع معه ترك يدها فأسلمتْها ليدي ضاحكة ومرحبة وضامة إياها بيدها الأخرى بأدب وهي تجرني لتأمل لوحاتها.

أذهلني ما أراه أمامي: امرأة وحيدة تتكرر في لوحات المعرض بآفاق ووضعيات مختلفة لكن بهيئة واحدة هي هيئة المرأة الحامل، وبتعبير من النشوة والرضا ينير وجهها ويشع في ابتسامتها ويوحي بأنها تعيش الكمال، وأكثر من ذلك.. إنها تشبه صانعتها.

_ الأم والطفل، سحر الألوهية الذي لا يزول في الديانة المسيحية حيث يشكل الكمال، لكنْ بخصوصية ماريان ورموزها المجهولة التي تفصح عن نفسها بالزخارف والأزهار التي توشّي ثياب المرأة، لابد أنك وضعت قصة في كل رمز وفي كل زهرة، ويالها من قصة أخاذة تدفع للدراسة.. قلت لماريان التي لم تخف سعادتها بتحليلي.

ـ لم يفتك جوهر العمل. أنا سعيدة لأن أحداً أحس بي على هذه الصورة. هل ستكتب ذلك؟.. قال لي ألدار أنك صحفي.

ـ نعم أنا صحفي لكني لا أعرف إن كنت أجرؤ على الكتابة في الموضوع الذي يشغل حياتي.. المرأة، الألوهة، الكمال، والحب. أرى الكثير من الحب، لكني أرى النبذ والتوحد أيضاً. ليس هناك من أثر لرجل واحد رغم حضور روح الإخصاب في اللوحة. قلت وضحكت ماريان مفسحة المجال بمفاجأتها بالسؤال الذي فاجأني أنا نفسي وكأنه لا يصدر عني..

ـ هل عشت تجربة الحمل؟!.. قلت وتوهج وجه ماريان.

ـ لا، ولست حاملاً كذلك.. قالت وهي تضفي على اللعبة نوعاً من الألق منتظرة ردّي.

ـ هل أستطيع أن أرى بطنك؟.. قلت مقتحماً أسوارها وأنا أنظر بتأكيد في عينيها اللتين اشتعل فيهما بريق اللوز. فوقفت أمامي فاتحة ساقيها قليلاً وسحبت كنزتها الصوفية قليلاً إلى الأعلى كاشفة عن بطنٍ حليبي ضامرٍ أخاذ كما صفحة كونٍ شاسعٍ تتوسطه سرّة تلمع كما نجمٍ وتجذبني مغيّباً

لأنحني على ركبتي وأضع شفتي عليها، أقبلها بإجلال وأنا أسبح في فضاءات كوني. انفجرت الصالة بتصفيق وضحكاتٍ أيقظتني كصفعة ماء بارد على وجهي، ووقفت محرجاً وضاحكاً بينما سارعت صديقة ماريان إليها. ضمتها ضاحكة، ومنتشلة إياها من فيض الإعجاب.

أخبرني ألدار أن ماريان تدعونا على العشاء غداً في بيتها، حيث سيأتي ناقد فرنسي مميز مع صديقته لنقاش أعمالها، وقد أحبت أن أكون حاضراً لأن النقاش سوف يتناول الرموز، ودعت صديقتها أيضاً من أجل التوازن.

لم أصدق أن ماريان ستستجيب لنداء الغموض بهذه السرعة، غير أن ألدار الخبير بطبع النساء قال لي ضاحكاً أنني تفوقت عليه نفسه في هذه الحركة التي لم تخطر على البال..

ــ إن عفويتك ساحرة لكني أحس أنها مدمرة كذلك.. قال لي وهو يضحك، وانشغلنا لساعات في ما يجب أن نأخذ هدية لماريان.. النبيذ أم الأزهار، واهتدينا إلى أن يأخذ كل منا نوعاً وكان نصيبي أن أقدم الأزهار، لكن بقيت مشكلة أي نوع أقدم لفتاة مثل ماريان.

تناولت ماريان أزهار الأوركيديا البنفسجية المرقطة بلون الزهر من يدي ضاحكة وتأملتها.

ــ بماذا تريد أن توحي لي!؟

ــ حاولت فقط أن أقدم ما يشبهك.

ــ فقط!؟ سوف أسأل ناقدي.. قالت ضاحكة وهي تعرفنا بجاك وصديقته الجميلة بالإنكليزية مشيرة إلى أنني لا أجيد الفرنسية، ولم يكذّب جاك حدس صديقته المذهلة حتى التناقض حول أزهاري. قال بعد أن جلسنا وقدمت لنا ماريان كؤوس النبيذ وبعد أن شربنا النخب الأول الذي

اقترحتُ أن يكون نخب البطن الذي يشكل حضن الكون: نعم، إن أزهار الأوركيديا تشبه زهرة الأنثى في تفتحها، وأن تقديمها ربما يكون إشارة ولا شرط أن تكون مقصودة إلى رغبة ممارسة الحب مع من تقدم له. قال جاك وتوردت خدود ماريان من هذا الإحراج الذي أحرجني وخلّصني منه ألدار بالسخرية من تحليلات جاك الذي "يعيد بقسرية مرضيّة كل شكل في الكون إلى تعبير جنسي". وأكد جاك رأيه ببساطة قائلاً: نعم، إن الكون مشكّل من وحدة، وكل ما في الحياة يعود بالأصل إلى خلية واحدة وسواء كان ذلك مخلوقاً من قبل إله أو لا إله فإن هناك شيفرة تعيد تشكيل الأشياء وفق رمز، والموسيقى والرياضيات والفلسفة وإيقاعات الشعر تثبت هذا الرأي.. قال جاك وانتقل إلى نقاش لوحات ماريان، المعبرة كما قال عن وحدة الكون بأبلغ تعبير هو بطن الحامل، كمال الكون وجنتنا المفقودة عندما نطرد من هذا الكمال.. قال جاك مستفيضاً في شرح وحدة الكون في البيولوجيا، ومنتقلاً من ذلك إلى تعبير الإنسان عن هذه الوحدة بالرموز التي اكتشفها، ومستمراً في شرح دلالات الرموز بتحليل متألق أثار إعجاب ماريان مثلما أثارها خلافنا الحساس الذي لا أعرف إن كنت أشكره عليه أو ألعنه حول أصل نجمة داوود حيث قلتُ مستفزاً من انحيازه للثقافة الإسرائيلية إنها تعود إلى الديانة الفرعونية وإنها النجمة التي تشكل اتحاد الإلهة إيزيس بالإله آمون، والتي زدت رأيي حولها بسرقة اليهود لأسفار التوراة من الديانة السومرية والبابلية، وسرقة حتى أسطورة آدم ونوح منهما.. فقد انطبعت آثار هذا الخلاف في دمي على صورة ذكرى مدمرة لا تزول.

غادر جاك وصديقته واعتذر ألدار للمغادرة من أجل إيصال صديقة ماريان التي انسجم معها دون أن نلحظ ذلك إلى بيتها بتواطؤ لم يشأ أي

منا تفسيره أو تبريره، وقمت للمغادرة، فطلبت مني ماريان البقاء لمشاركتها فنجاناً من القهوة.

رقصنا على موسيقى فرنسية هادئة احتضنتُ معها جسد ماريان بنعومة أثارتها لتبدأ بلمس خدي ولتنزل إلى عنقي، وإلى فك أزرار قميصي مع استجابتي بضمها وخطف قبلات ناعمة على عنقها. عرّينا أجساد بعضنا بأسلوب حاولت ماريان أن يكون هادئاً. أمسكتْ بزهرتي ضاحكة: هذا هو مثلث آمون المتجه برأسه إلى أعلى كما قلت.. وقربتْ مثلث زهرتي من مثلث زهرتها وأطبقته عليه: وهذا هو مثلث إيزيس المتجه برأسه إلى أسفل كما قلتَ.. وضغطتْ قليلاً: ما الذي تثيره هذه النجمة التي شكلت خلافاً قاتلاً بينك وبين جاك!؟.. قالت ماريان مقربة شفتيها من عنقي، فأمسكتُ بيديها فاتحاً إياهما لإطلاق زهرتي. إن هذا مربك وحساس كما تعلمين. قلت وجلستُ على الأريكة مبتعداً عنها، وجلستْ هي إلى جانبي.. أردتُ أن أرى تأثير الرموز بتحولاتها. قالت وقمت محاولاً ارتداء ثيابي فوقفت معانقة إياي: لا تكن غبياً هانيبال، أنا أريدك من دون رموز، وتعانقنا. قلت لها وأنا أمص بشفتي عنقها ما رأيك أن نعيش الغابة، واستجابت بضغط جسدها أكثر على جسدي، وبدأنا بشمشمة بعضنا. بدأنا بعضعضة بعضنا. بدأنا الصهيل والزمجرة والصراخ، وعوى أريج الغابة طويلاً طويلاً في دمائنا.

تلك لعنة. لعنة صافية نجلاء. لقد ارتكبت خطيئة تفاحة ماريان. أيقظتني بقبلتها الحريرية في الصباح واستغربتُ منها أن تكون مرتدية ثيابها. قالت لي إنها تودّعني. وحملتْ حقيبة ملابسها. قالت إنها مسافرة إلى كندا للعمل، وأن علي فقط إغلاق الباب عندما أخرج. سألتها إن كنت سأراها

لاحقاً وقالت أنها لن تعود. قلت لها إنني لم أصدّق أنني وجدتها. وقالت لي إن عدم لقائنا خير لنا. أريد أن لا أنساك هانيبال. قالت وقبلتني ورحلت. رحلت ماريان لكي لا تنساني يا أيها الحبّ. أخذها مدى شاسع من رمل وضاقت عليّ باريس. ضاقت باريس على تشنجات روحي.

أسمع صوت هدير محركات الطائرة، وتدمع عيناي. أعود لتلاشي روحي. أغمض عيني وأغرق شيئاً فشيئاً في سحابات السواد...

أصبت بكآبة الفقد التي شلّتني عن التفكير والكتابة. حاول ألدار بكل ما يقدر عليه صديق نبيل مساعدتي. أراد تغيير أجواء غرقي إلى أجواء فانتازية لها علاقة بما أبحث عنه وتعيد لي شغفي.

أخذني إلى كازينو يلتقي فيه الأزواج الذين ملّوا من بعضهم أو الذين يريدون إسعاد بعضهم ويلتقطون شباباً يشاركونهم لعبة ليلة من المتعة. أشار إلى زوجين جميلين تبدو عليهما علامات الاهتمام بي، وودّعني هامساً وأنا أحتسي كأسي على البار قائلاً أنه سيراني في الصباح. خرج ألدار برفقة زوجين فرنسيين أربعينيين تبدو عليهما علامات الثراء أعجبا بوحشية عينيه وشعره الطويل فاختاراه ودعياه إلى كأس، وبقيت أنا على البار متردداً وغير قادر عل القيام بخطوته. فكرت محتاراً في سلوك ومسالك الحب في مجتمع يعيش برأسماليته نعم الديمقراطية. فكرت أن المجتمع الديمقراطي وفي مدينة مفتوحة لجميع أشكال الحب مثل باريس يتيح سلوكاً بشرياً أقرب إلى السلوك الخالي من الأنانية، وتخيلت أن هذا الرجل يحبّ زوجته إلى درجة التفكير بإسعادها بين أحضان آخرَ شابٍّ وقوي. لكنني تخيلته وهو يمارس أرقى أمراض الأنانية في لعبة تلصص يراقب فيها زوجته وهي تتأوه بين فخذي ذكر آخر، ولكن لم لا يكون هذا

شكلاً آخر لإسعاد الشريكين بعضهما فيما تتيحه لهما علاقات مجتمعهما.. أين وصلتَ بأشكالك يا أيها الحب الجميل الذي يعذبني التفكير في مسالكه على هذه الصورة... فكرت بماريان. أين تكون الآن وفي أي حضن دافئ تمارس غرابات أمومتها الكونية. فكرت بنورا.. المرأة التي أحب بين ذراعي رجل آخر، اختارته بملء إرادتها من غير دينها وعاشت معه حباً قاتلتْ من أجله كل أعراف وتقاليد مجتمع يضعها لهذا تحت حدّ السكين... فكرتُ هل عليّ أن أسعد لسعادتها!!.. يا أيها الحب.

عاد ألدار مشرقاً إلى بيتي ليراني في الصباح. سألني إن كنت خضت التجربة وأخبرته بفشلي. قال إن مغامرته كانت مذهلة وتليق بعجائب ألف ليلة وليلة، فقد أخذه الزوجان إلى قصر في ضواحي باريس وقدّما له ما طاب من مآكل وشراب، وما لبث الزوج أن تركه مع زوجته التي نهشته مضاجعة لأكثر من ثلاث ساعات وتركته لينام حتى الصباح، وأيقظه خادم طلب منه شاكراً أن يغادر مع منحه مائتي فرنك للمواصلات. قال ألدار ذلك وصدمني بنهاية روايته المشوقة. سألته إن كان أحس بمراقبة الرجل له أو أحس بأنه صوّره، وضحك ألدار. قال لي: أنت تشتري الشقاء بيدك.. فرغم أنك تتمتع بروح المغامرة التي تذهل أهل المغامرة مثلي فإنك تقيّد نفسك بأخلاق تم رسمها لقتل أرواحنا الطليقة. قال لي ألدار ذلك مضيفاً كآبة على كآبة تساؤلاتي حول الحب. وأين وصلت بأشكالك يا أيها الحب.. "**يا من يسمونه الحب**".. تذكرت قصيدة "محمود درويش" وبدأت بإنشادها..

أحسّ ألدار من طريقة إنشادي للقصيدة أنني متضايق من نفسي فطرح علي حلوله البسيطة في أن يعرّفني على فتاة صديقة من أصل مغربي كانت زميلته في معهد اللغة، وتقبّلت هذا شاكراً حيث يمكنني التفاهم معها على الأقل بلغتي.

دعتنا الفتاة باستغراب مني إلى العشاء في مطعم هندي أنيق، واكتشفت لسوء حظي من لقاء لطيفة بألدار وكرمها بدفع الفاتورة أولاً أنها تحبه أي أنني سأعيش مأساوية هذا الحب على حسابي، وثانياً أن لطيفة اللطيفة لا تعرف حرفاً من العربية أو من الإنكليزية.

تركني ألدار في آخر الليل في الشارع القريب من بيتي مع الفتاة التي صدمتْ حين ودّعها، وحين فهمتْ أنه يريدها أن تكون معي.

كان الموقف محبطاً لكلينا وساعد عدم تواصلنا اللغوي في زيادة هذا الإحباط.. قلت لها إنني آسف. وشرحت لها بالإشارة أنني لست طرفاً ولن أكون في تعاستها. اتفقنا من خلال سير كلامنا أن أتكلم بالعربية أو الإنكليزية وأن تتكلم بالفرنسية على حريتنا وأن نحاول فهم بعضنا بالإحساس، وجاء الإحساس سريعاً هذه المرة.. أخرجت الفتاة من حقيبتها سيجارة اكتشفت فوراً أنها سيجارة حشيش، سحبتْ منها نفساً طويلاً ونفثته في سحابة كبيرة أودعتها مرارتها وضحكتْ على حال الدنيا. ضحكتُ بدوري على هذا الموقف. قدمتْ لي السيجارة واعتذرتُ بلطف. أحسست من سحبها للسيجارة مدى ثقل ما تعانيه، وفهمتُ منها أن بيتها بعيد وأنها ستنتظر موعد انطلاق المترو حتى الصباح. أحسست أنني ملزم بإزالة غمّها فقد ساهمتُ دون أدري في تعاستها. اعتذرت منها مرة أخرى وعرضت عليها الصعود إلى بيتي للانتظار، وصعدتْ. قدمتُ لها البيرة. أفهمتها أنني سأستلقي في الممر، وعرضت عليها الاستلقاء إذا أحبت على السرير في الغرفة لتمضية الساعة الباقية على موعد المترو. شكرتني بلطف قائلة أنها تخشى أن تنام فيفوتها المترو، وفضلتْ البقاء على الكرسي. اعتذرت منها بلطف في أنني سأنام، ويمكنها أن تغلق الباب فقط وهي تغادر، وشكرتني. كنت بحاجة إلى النوم هرباً من هذا الموقف الذي وضعني فيه صديقي، ونمت.. فيا لتعاستك أيها الحب. لقد أتعسني ألدار

بلامبالاته البريئة.. التقيته في مساء اليوم التالي وكنت لا أزال متأثراً من تعاسة الفتاة، قلت له أن فلسفة نذر ذاته للملكات تفتح أبواب التعاسة للملكات، وقال لي أنه لم يغش لطيفة، أنه لم يعدها بشيء، وقلت له إنني أعرف صدقه مع المرأة، لكن هذا يعتبر غشاً في ظل علاقات تملّكية أوهم الرجال بها النساء أنهم يريدون تملكهن لذواتهن، وأنهم بهذا ملك لهن. قلت له إن هذا مؤلم في ظل علاقات لم تتطور بعد إلى درجة انتهاء التملك.. أوجعني أن أرى المرارة في عيني لطيفة وهي ترى من تحب يسلّمها لآخر، يا أيها الحب، يا من يسمونه الحب.. لقد قررتُ التوقف عن خوض تعاساتك فلست قادراً على احتمال جروحاتك...

زاد عجزي عن مواجهة عقدة تأقلمي، أحسست أنني آدم بمشاعر أول خطوة له على الأرض، وهاأنذا في باريس.. بشري آخر من بين آلاف الذين حملوا أحلامهم الخاصة في وعاء الحظ ووقفوا ليلقوا به في حضنها المجهول الهائل الاتساع، الجذاب كما زهرة أوركيديا نشرت تويجاتها حتى الغياب. هذا هو أنا. آدم الضياع وهذا هو حضن باريس. هاوية ابتلاع الأحلام. أتون انصهاراتها، تكسراتها، والتئاماتها. حضن باريس الذي ألقى عليّ بأحجية أوديب الخاصة بي على بابه، وأدخلني في حرير فولاذ تعرجاته لأحلّها فيه. حضن باريس الذي لا أستطيع أن أفكر إلا بأنه الجنة التي دخلت كي أختبر آدميتي تحت ظل سيف الطرد بيد الملاك.

أحتسي جرعة مرة من كأسي، ويصمت هدير الطائرة...

تحت ظلال قدر لا أعرف كيف يكامل صدفه ليصل إلى نقطة تحول يمد لك فيها لسانه، بلغت خطاي مشارف هاويتي. لم يكن ينقصني سوى دخول صدام حسين إلى الكويت لكي أزيد مرارة عدم تأقلمي بمرارة فقد مورد

رزقي. لقد تسارعت دول الخليج لشراء أجهزة الإعلام ورفضت بعناد مشاركة هذه الأجهزة حربها الأمريكية على العراق، ولم يكن هذا كافياً أيضاً.. لقد تعقدت أكثر علاقتي السياسية برفاقي مع غموض وتنوع المواقف السياسية في الخارج. شكوت حالي لمحمود الذي سارع إلى نجدتي. قال لي: "نعم، لقد خلق الكون وترتبت علاقات البشر قبل أن نوجد ودون أن يكون لنا يد في هذا الترتيب، ولكن هل كنا لنرتب ذلك بالشكل الذي نريد، أم أن الأمر سيجري كما جرى. إن البشر يا صديقي يعيشون في صراع، ولن يرتب أحد أمر الكون وفقاً لرغباته إلا في الأحلام، وعلينا أن نقبل ذلك، أن نتفاعل معه، وأن نحاول تحقيق مخططنا لهذا الترتيب، وأن لا نيأس إن لم يتحقق. سوف يكفينا شرف المحاولة الذي هو بحد ذاته ممتع، وعليك أن تتصور أن "سيزيف" كان سعيداً بمصيره، وأن تسعد بصراع صديقك كمال مع عمر وقيادة الداخل التي هربت منها".. قال لي محمود وهو يختم رأيه برأي "كامو" ضاحكاً وخالطاً الجد بالهزل كعادته هذا الكلام عندما اصطدمتُ محبطاً بواقع منظمة الخارج، حيث أحسست أن كل رفيق رتب واقعه وفقاً لما اصطدم به من واقع، ولم يعد ممكناً إعادة تشكيل المنظمة وفقاً لأية رغبات.

ـ لقد تمترس كل رفيق هنا بدرع أصبح من الصعب اختراقه، وأصبح واقع عيشي في باريس يخيفني إذ يفرض علي التمترس بشكل لا يلبي رغبات ما نعمل لأجله.

ـ تلك حقيقة لكنها ليست كاملة.. قال لي محمود رداً على خوفي من هذا الواقع.. فرفاقنا مثلك ومثلي يحملون بداخلهم ذكرياتٍ عن رفاقهم، ومازالوا يريدون الأفضل لبلادهم، ويمكنك اعتبار الأمر وجهات نظر مختلفة علينا محاولة تقريبها لإعادة قوة المنظمة. امرح، سوف تستمتع بما تسمع من واقع الفضائح، لكن عليك أن لا تصاب بالإحباط.. قال لي

محمود ذلك ونحن نمشي كعادتنا في الطريق الترابي الضيق الجميل المؤدي إلى تمثال الحرية على نهر السين، وما لبث أن انكشف أمامي عالم فضائح المعارضة السورية المحبط.. أموال يقبضها معظم ممثلي المعارضة من النظام العراقي ومن يقبض يتهم الآخرين بالعمالة للنظام العراقي. شريط سجله أحد رفاقنا لأحد حلفائنا من الاشتراكيين العرب في التجمع الوطني الديمقراطي بعد أن جعله يسكر، يتهم فيه رئيس منظمته بالعمالة للمخابرات السورية. تورط أحد رفاقنا بعلاقة مع امرأة أخرى تعرضه للطرد خارج البيت من قبل زوجته. ضياع غريب من أيدي أحد رفاقنا لمائة ألف فرنك مرسلة معه لأسر رفاقنا المعتقلين في مطار دمشق. اختلاسات أموال على جميع أصعدة المعارضة، واتهامات لأحد رفاقنا بالبورجوازية لأنه يلبس جوارب بيير كاردان.

نظرت إلى كنزة لاكوست الفخمة التي أرتديها ضاحكاً ومحبطاً عندما روى لي محمود اتهام أحد حلفائنا في التجمع لرفيقنا أبو أحمد بعدم تخليه عن أصوله البورجوازية، وفكر محمود بما أعاني.

ـ هل تريد جرعة إنعاش للروح. هيا بنا نجول في جسد هذه التافهة باريس.

أخذني محمود خلال أيام لا تحصى ولا تنتهي بجولات في أرجاء باريس: "هنا في هذا المقهى يمكنك أن تسلّم حقيقة على صموئيل بيكيت حيث يجلس على الطاولة المخصصة له، ويمكننا أن نجلس لننتظر غودو معه إلى ما شاء الله ولكني لا أنصحك بذلك الآن فوراءنا مشوار طويل. هنا في هذا المقهى كان يجلس ابن عمنا لينين ليكتب ما يحلو لك أن تستشهد به دائماً، ولا أعرف إن كان قال ذلك أم اخترعته أنت من أن الديمقراطية هي أوسع بوابة نحو الاشتراكية. وهناك في ذلك الفندق، دعنا نقترب منه أكثر. هنا كتب معشوقك غابرييل غارسيا ماركيز روايته

الحائزة على جائزة نوبل في خمس سنين من العزلة والفقر وتهديد زوجته مرسيدس بتركه إن لم ينجزها في المدة المقررة. وهنا في عراء باريس يقف ابن عمنا الآخر دانتون وحاله حالنا في ضرورة استمرار الثورة واستمرار جريدتنا "الطريق" مهما أرعدت قيادة الداخل وأزبدت من خرق منظمة الخارج للنظام الداخلي. وهناك في المقابل في ذلك المقهى كان يجلس جان بول سارتر، ولست أظنه كان ينتقل كما سنفعل إلى ذلك البار بجانبه لحضور موسيقى أبناء عمنا من الأميريكان لاتين على كأس نبيذ يشعل الروح. هل زرت هذه الكنيسة. إنها نوتردام حيث تتنقل غجريتك ازمرالدا راقصة بأقدام عارية لتصنع أسطورة فيكتور هيجو، وهنا دعنا نجلس لنحتسي فنجاناً من القهوة "...

أخذني محمود بجولات لا تحصى في "التافهة باريس" وكان لسان حاله يقول لي دون أن ينبس بكلمة.. "قلت لي أنك التقيت بعضو لجنتنا المركزية الرفيق مالك!. نعم. ولم تلحظ عليه أي جنون كما أخبرك كمال. فقط مسحة الحزن التي تخمن أنها تأتي من طرد زوجته له لا من مغادرة عشيقته لباريس. وأنك التقيت بزوجته وبناتها، وحزنت لمعاناة أسرة كانت قدوة في الحب للرفاق. واكتشفت أن زوجته امرأة عظيمة مكافحة، وأنه رجل أتعس نفسه بيده كما يفعل أبطال التراجيديات، وأنه مشوش التفكير حول الموقف من دخول العراق إلى الكويت والحرب على العراق، إذ يغشه موقف رابطة العمل بالوقوف ضد صدّام وأميركا معاً. وأنه يحمل مرارة من قطع رفيقنا أبو أحمد، عضو اللجنة المركزية المسؤول عن الأموال لراتب المساعدة الذي يتقاضاه من الحزب طالباً منه ممارسة عمله، وأنه يعاني نفسياً من عدم القدرة على العمل ويغرق نفسه بلعب الشطرنج، ويتوافق مع قيادة الداخل التي قررت الوقوف معه ضد رفيقنا كمال مسؤول منظمة الخارج... قلت لي أنك أحبطت من رؤيته على هذه

الصورة. قلت لي أنك رأيت الرفيق باسم الذي ساعدك حتى النهاية في الذهاب معك إلى الجامعة لتدبير استمرار دراستك لعلم الاجتماع، وأن باسم ينسق مع قيادة الداخل ضد منظمة الخارج أو ضد رئاسة كمال لمنظمة الخارج لأن كمال خذله بعدم مساعدته، ولضغطه عليه في أن يدفع اشتراكاته المالية الحزبية عندما كان عاطلاً عن العمل بدلاً من مساعدته كما أخبرك في إيجاد عمل. قلت لي أنك التقيت برفيقنا رضوان الذي بدأ يكتّل الرفاق بالتنسيق مع قيادة الداخل، لإزاحة كمال عن منظمة الخارج، والدعوة لمؤتمر دون العودة إلى منظمة الخارج وإلى كمال بالذات الذي يحمل شرعية هذه الدعوة، وأنك أحبطت وكأن أيام تكتل "البكداشيين" تعود إلى الحزب. قلت لي أنك مستاء من اتهامات حلفائنا في التجمع الوطني الديمقراطي لكمال أنه يأخذ اتجاه النظام العراقي، واتهام كمال لأكثرية هؤلاء بأنهم مخابرات للنظام السوري. قلت لي أنك محبط من مهاترات قوى المعارضة السورية التي يبدو وكأن النظام فتتها إلى قطع شطرنج يلعب بها. قلت لي أنك محبط.. ها "؟!.. كان لسان حال محمود يقول لي بصمت ويتابع.. "ماذا تقول عن مساعدة رفيقنا مالك لك على تدبير أمورك رغم أزمته، ماذا تقول عن مساعدة كمال لك بطرد أقربائه من البيت لإسكانك فيه. ماذا تقول عن المجازفة الكبيرة في قراري أنا وكمال بضرورة استمرار "جريدة الطريق" رغم قرار قيادة الداخل بإغلاقها تحت ذريعة أنها تشوش موقف الحزب، وأنت تعلم جيداً أننا نخاطر بالطرد من الحزب من خلال جعلنا "الطريق" صوت شرعية قرارات مؤتمرنا لكي لا يلعب أحد على هذه القرارات في ظل غياب قيادة الحزب بالسجن، وماذا تقول عن رفيقك رشيد الذي فرّغ نفسه تقريباً لمساعدتك في متابعة أمر لجوئك السياسي تاركاً عمله وعائلته لأنك احتجت إلى هذه المساعدة. ماذا تقول عن جميع هؤلاء الرفاق الذين يساعدونك رغم خلافك معهم بالرأي

حول الانتخابات في البلد أو الموقف القومي من العراق. قلت لي أنك محبط، ها.. وكأنك لم تمرّ بعشرات المعارك المشابهة في البلد، وكأنك لا تعرف أننا بشر نخطئ ونختلف بوجهات نظرنا ونضحك ونبكي ونعشق ونجن ونموت. قلت لي أنك محبط وكأنما لم يمر عليك اعتقال رفاقنا وتعذيبهم وسفك دمائهم في أبشع ما لا يمكن تصوره من عمليات التعذيب داخل أقبية التحقيق والسجون".. كان لسان حال محمود الصامت يقول لي حين طلب مني سؤال الشرطي عن موقع شارع جان ميرموز، وتقدمت من الشرطي الذي فاجأني بتحية عسكرية لي مشيراً أنه في خدمتي قبل أن يجيبني عن سؤالي.. وضحك محمود قائلاً: "أنت في باريس التافهة يا عزيزي".. كان حال محمود يقول لي هذا لأعرف أنني لا أملك حق الإحباط طالما كنت قد قررت السير بهذا الطريق، ولأعرف أنني في الجنة التي لا تشبه الوطن الذي حوّلوه إلى سجن أو مطهر أو جحيم أو إلى ما لا يشبه سجون المخابرات السورية بحال، كي أكفّ عن الدلال، ولكن كيف تسرب كل هذا الإحباط إلى صفحة قلبي.

أخذني محمود للخروج بمظاهرة تضامن مع الفلسطينيين احتجاجاً على مجزرة الأقصى وسألني أن أختار الجهة التي أسير معها، واحترت بين أن أختار حماس التي كانت تلهب المظاهرة بحماس مثير للإعجاب، وبين الشيوعيين الذين يسيرون بهدوء يشبه تحركهم البطيء، وبين التروتسكيين الذين أعجبني هتافهم الواضح باعتبار رابين وميتران جزاران وشريكان في المجزرة، واخترت السير وراء أعلامهم الحمراء التي أعادتني إلى تظاهرات بدايات القرن، وجعلتني أعيش الحدث كما لو كان فيلماً سينمائياً لإيزنشتاين أو رواية لجون ريد، ودفعتني للتساؤل إن لم أكن تروتسكياً

بالفطرة، وهل كنت سأكون لو أنني ولدت وترعرعت في هذا البلد.. فهؤلاء رفاق يوقظون شرارة الروح.

جرني محمود من يدي ونحن نغادر مكتبه في المجلة بشارع جان ميرموز بعد أن أحبطني كمال برفضه التعامل مع جميع الرفاق الذين قرر أنهم مخالفون للنظام الداخلي إلى وسط مظاهرات الطلاب في باريس لنعلق وسط معركة حامية قرب ساحة الكونكورد تتطاير فيها الحجارة من أيدي الطلاب، والقنابل المسيلة للدموع من أيدي الشرطة كي تدفعنا للجوء إلى حماية الشرطة التي عرضت مساعدتنا على الخروج من هذا الفخ. وضحكنا كيف يساعدنا من نقف ضدهم بالسليقة على تجاوز المأزق.

سلّمني محمود لهباً كي أقود روحي على هدي ناره، وتركني لتحمّل مسؤوليات قراراتي: "هذه هي التافهة باريس". قال لي.. "ولديك إذا أردت شحن جسدك السان دوني، بيغال، بولونيا وسينمات الجنس وما شئت من سائحات السان ميشيل، أنت أعزب في النهاية رغم علاقات أوهامك وليس لدي اعتراض على حياتك لكن هنا اسمح لي أن لا أشاركك في هذا العالم، فلدي ما يشغلني فعلاً هاني"... قال لي محمود دون أن يفصح لي عن همومه الثقيلة بانتظار عائلته، وقلقه الكبير من محاولات تهريبها من عيون مخابرات النظام في البلد إلى شمس باريس بعد أن حولوا زوجته وأطفاله إلى رهائن لعذاب المضايقة اليومية.

تفهمت صديقي محمود، واعتبرت إشارته مفتاحاً لقيدي الذي سرعان ما فككته لأشرد منه باحثاً عن نفسي في ممارسة ضياعي.

أسمع صوت هدير محركات الطائرة وأنا أفتح عيني. أطلب من المضيفة كأس ويسكي آخر. أرتشف كأس مرارتي بهدوء، وأعود إلى تلاشي روحي. أغمض عيني وأغرق شيئاً فشيئاً في سحابات السواد...

في جنتها التافهة باريس أراد قدري بقوة بصيرته العمياء، أن يكمل اختباراته على انقسام الإنسان فجعلني أحلم بسكين أبيض يشق صدري، ويدٍ رقيقة تنزع ضلعاً منه ليستقيم امرأة أذهلني أن تكون حلمي مجسداً أمامي، ويا أيها البشري تفضل، أرنا ماذا تفعل!؟. تلك هي من طلبتَ في شتاءات عزلتك الطويلة وأنت تراها مع انسياب ماء المطر على كل نافذة تراها. وتلك هي من تمنيت أن تشاركك قهوتك ما نزلت قهوة على طاولة. تلك هي من تجلّت لك ضاحكة في كل جرس يشكّله المطر على الأرصفة النظيفة وتدعو أن يستمر كاملاً وأنت تتابعه، وتحتار أي جرس تتابع عندما تكثر الأجراس التي تحمل صورتها وهي تضحك. تلك هي صور الفراشات التي اخترعتَ لتوزعها على أزهار حديقة الورد زهرة زهرة فراشة فراشة ثم أسراباً من الفراش تتراقص لترسم صورتها وهي تضحك. تلك هي بجانبك على البار تسامرك وتغيب لتظهر في الزجاجات المرصوفة أمامك صورتها وهي تضحك. تلك هي من تخيلتها وهي تنطوي في تموج كل جسد طواه ذراعك، وتشهق في كل نفس سمعته يشهق في جنون اندفاعاتك داخل النساء الغريبات. تلك هي حوّاء سكونك فتفضل، أرنا ماذا تفعل!؟.

كانت مفاجأة حياتي وخوفي من أمنياتي التي تتحقق بأشكالها الأكثر جنوناً حين رأيت نورا لدى أختها في باريس وعرفت أنها جاءت لتطيل الإقامة وربما لتعمل وتستقر. بدت سعادتي صارخة لكنها كانت مشوبة بالخوف، ولاحظتْ نورا ارتباكي.

ـ هل تجده وضعاً طبيعياً أن تأتي نورا مع ابنها لتعمل تاركة زوجها في الكويت!؟ سألني محمود مستفسراً ونحن نخرج من زيارتها في بيت أختها، وأجبته ضاحكاً..

ـ أنا لم أستخدم قوة دماغي في التخاطر. لكن من يعرف نورا يعلم أن هذا هو الوضع الطبيعي مع نورا. لست أعرف إن كانت قد ملّت الكويت أو أن أمراً ما قد حدث لكنني أعرف أن يوسف لن يستطيع رد رغبتها إذا أرادت.

ـ ماذا ستفعل الآن!؟ هاهي ذي المرأة التي قلت لي أنك أحببتها من غلافها لتكتشف أنها فردوسك المفقود. أعرف أنك متهور، لكنك تعلم طبعاً أنها متزوجة وأن لديها ولد. قال لي محمود محذراً إياي بتهذيبه الذكي، وضحكتُ مطمئناً إياه في أنني لن أجرؤ حتى على التفكير بما يمكن أن يؤذيها، ثم إن زوجها يوسف رجل تصعب إزاحته.

ـ هل يعني هذا أنك لن تخوض التحدي!؟. قال محمود متسائلاً بسخرية ومحاولاً قطع الطريق على أي منفذ يتسرب من كلامي.

حاولت أن أرى نورا، ورأيتها مراراً وتكراراً إلى درجة ضيق وخشية أختها من ذلك. أردت رؤيتها على انفراد واعتذرت مبررة ذلك بضيق وقتها وبابنها طارق. لقد كانت تهرب مني. حيرني تهربها، تساءلت أين أيام تقاربنا الطبيعية في دمشق، أين اهتمامها العلني الصارخ بي، ولكن.. لم لا يكون هذا الهرب هو خشية من نفسها ومقاومة لحبها لي، "يا أيها الحب، يا من يسمونه الحب"!؟.

حاولت أن أدمجها بأجواء عملنا السياسي، وجرّها إلى موقفنا الذي تتماشى معه بعيداً عن موقف زوج أختها التي استضافتها لديها.. وساءها أن يلجأ كمال إلى اتهام زوج أختها بعلاقة مشكوك فيها مع رجل مخابرات

في السفارة السورية رغم ضحكها من لجوء كمال إلى أسلوب تسجيل اعترافات أحد رفاق خالد دون أن يدري للحصول على هذه المعلومات.

لم أستطع منع نفسي من التلميح لها بأنني سعيد بوجودها دون أن أشعرها أنني كنت بحاجة لهذا الوجود. حاولت التقدم خطوة بسؤالها حين أحسست أنها لا تتحدث عن زوجها إطلاقاً إن كانت الأمور تجري بخير مع يوسف. وأجابتني قاطعة علي التساؤل أنها على أحسن ما يرام، ولم أعد أجرؤ على سؤالها مرة أخرى بانتظار مناسبة أعرف منها أكثر ما يحدث.

قطعني حلمي بنورا عن زيارات السان دوني ووجدت طريقة للجم تمرّدات جسدي في تصعيد ما تحس به الروح، لكن جسدي ظلّ متوثباً مثل حصان ملجم أسلم قياده لفارسه بقهر منتظراً فرصة أن يكف الفارس عن سطوة فروسيته لكي يجمح.

شدتني رغبة عارمة للانفراد بنورا وخالط رغبتي الخوف من هذا الانفراد. خفت من الانفراد بنورا، وأحسستُ بخوفها من ذلك. شعرت وربما شعرت نورا كذلك أننا نعيد أسطورة "سيف لهب نيرودا" لكن بصياغة جديدة تناسب ما بعد الجنة.. فها نحن ذا الكائنان الوحيدان المرميان على الأرض في غابة باريس، يشدّنا شوق ممضّ إلى اللقاء لكننا نخشى من ضراوة هذا اللقاء، نخشى أن يحرق الغابة بأجمعها هذا اللقاء. بقينا نراقب أنفسنا من بعيد ومن قريب. نسأل عن بعضنا إذا طال الغياب، ونطرد بعضنا إن أحسسنا بحميمية الحضور. كان هذا مدعاة لسعادتي ومدعاة كذلك لشقائي.

لم تضمّني أو تقبلني نورا ولو كأخ أو كرفيق عندما التقيتها أول مرة. أحسست بفرحها الكبير من لقائي، ولاحظتُ الدمعة التي ترقرقت وأخفتها

بإدارة وجهها عندما أحستْ باستغراب عيني من لقائها لي على هذه الصورة. كان هناك جدارٌ يتشكل بيننا ولم أعرف هل هو جدار الخوف من الحرية، أم هو جدار الخوف من الحب، أم جدار خشية إيذاء الآخرين أم أي جدار!؟.

عشت لعبة التخمينات والتبريرات كعاشق مراهق يعرف المرأة لأول مرة. انشغلت برصد انفعالاتها، ردودها، إشاراتها، حركة يديها، ابتسامات عينيها.. انشغلت بها إلى درجة الهوس ومنعني من الاقتراب خوفي عليها.. يا لتعاستك أيها الحب. "يا من يسمونه الحب".. ما الذي يدفعني إلى سلوك هذا الطريق الغريب عن طبعي، ولماذا لا أعود إلى قوسي ورمحي في غابة باريس المكشوفة لآثامي!؟.

أتعبتني نورا. قلت لها مستغلاً انشغال أختها بالشراء لطارق إنني كنت أريد رؤيتها لوحدها ولو لمرة كي أفهم منها ما يطمئنني عليها، واعتذرتْ محدقة بحنان في عيني اللتين تقاومان دمعي. أحستْ نورا بتعاستي، ولم أشأ أن أكشف لها أكثر عما بي.. يا أيها الحب.. اعتذرتُ لها في أنني سأغادر، وتركتها. مضيت لأطفئ مرارة حياتي. فكرت بأن علي أن أكف عن محاولتي لاستمالة نورا، وشعرت أنني بحاجة إلى العون، بحاجة إلى أن أرى محمود، اتصلت به. عرفت أنه مشغول بفرش بيت العائلة بعد أن قدمت هاربة إلى باريس، ولم أشأ أن أزيدها عليه. قال لي إنه سيمر علي في المساء. شعرت بنهش الوحدة لروحي. أخذتني همومي كعادتها إلى إسلام روحي للتدمير. قادتني قدماي دون أفكر إلى بيغال. دخلت أحد أندية التعري. كانت الساعة تقارب الخامسة. الوقت مبكر، لكن لا بأس بكأس، ولا بأس بهذا الهدوء حيث لا أجد غيري في الصالة. طلبت كأس ويسكي. وبدأ المسرح يتحرك على إيقاع جسد نحيل ممشوق يتعرى بهدوء في البداية ثم يشتد توتره وينتهي بكشف الفتاة عن الزهرة التي تطيح دائماً

بروحي... شربت كأسي بسرعة مقرراً أن أغادر، ولكن لا مفر، لقد استقرت الفتاة على طاولتي. حيتني بأدب. أجبتها بالإنكليزية وتمنيت أن ينقطع الحديث بيننا حيث لا تواصل لكنها كلمتني بالإنكليزية سائلة إن كنت سائحاً في باريس. أجبتها بأنني طالب. وحاولت الاعتذار متحركاً للمغادرة، ولكن لا مفر. دعتني الفتاة إلى كأس على حسابها.

"على حسابك!؟".. قلت ضاحكاً وحضر الكأس قبل أن أتمم جملتي. ياللهول، لقد وقعت في أيديهم. "حسناً لكنني لا أحمل نقوداً للاستمرار".

"ومن سألك عن النقود. هل ترغب برؤيتي أتعرى عن قرب"؟.. قالت وأخرسني التردد. قادتني من يدي ملتصقة بي إلى حجرة التلصص. طلبتْ مني أن أضع نقوداً في الشق لكي ينفتح الجدار، وقلت لها إنني آسف ليس لدي أية نقود. وتمادت هي بالالتصاق بي ولمسي. شعرت بانتهاك صارخ لإرادتي فصرخت بها أن تكف، وفوجئتْ بعنفي. توقفتْ واجمة أمامي وحضر حارسها الذي كان يراقب دون أن يراه أحد بسرعة. أحسست أنني علقت وعليّ التصرف. قلت لها بلطف وتركيز وحزم في عينيها دون أن أنظر إلى حارسها إنني آسف في عدم انسياقي، وأن عليها أن تتركني. ابتسمت الفتاة بهدوء وقالت للحارس أن يمضي. قالت لا بأس عليك، وقبلتني قبلة صغيرة على خدي وهي تبتسم بلطف. يمكنك أن تذهب. وخرجت.. يا إلهي ما الذي أحضرني إلى هذا المكان، ولماذا أمارس على نفسي هذا التدمير، كم أكره أن أكون مقسماً وضعيفاً على هذه الصورة.

تمشيت دون أن أحدد جهة في أرجاء بيغال ومن ثم قررت العودة إلى البيت، ورأيتها..

كان المترو مزدحماً بعودة الموظفين ورأيت كارول، قطعة جنة محشورة في الزحام.. رأيت وجه البراءة بصورته الفرنسية الأكثر نعومة. أعجبني شعرها الأصهب المثير بلطف، وأثارني قوامها النحيف الممشوق

الملتف بتايور رمادي مزخرف بأناقة ورفعة.. جذبتني الفتاة، وأحسست بحاجة غريبة للحديث معها. أزحت لها مكاناً بجانبي لتجلس. قلت لها بالإنكليزية أن جاكيتها بالغ الأناقة وفرحتْ. ردّت علي بالإنكليزية أنها تدرس تصميم الأزياء في باريس.

ــ هل أنت غريبة؟

ــ لا. أنا فرنسية من تولوز.

ــ سمعت كثيراً عن جمال تولوز، ولكنني للأسف لم أزرها.

ــ هل أنت سائح؟

ــ لا. أنا طالب وأسكن على بعد محطتين من هنا في شارع أميل زولا.

ــ واو. أنا متجهة إلى هناك لرؤية أبي وأمي.

ــ هل يسكنان هناك؟

ــ لا. سوف أراهما في التاسعة بالمسرح لتوديعهما قبل أن يغادرا إلى تولوز.

ــ لديك ساعتين. ماذا ستفعلين خلال ذلك؟

ــ لا أعرف. ربما سآخذ فنجاناً من القهوة في مقهى قريب.

ــ لست أريد التطفل على حياتك، لكن بيتي هنا في هذا البناء. دعيني أدعوك للقهوة عندي. قلت وبان عليها التردد. نظرت في عينيها بألفة وإلحاح.

ــ انظري. أنا صحفي إضافة لكوني طالباً وأهتم بالأزياء. سوف نتحدث فقط، ولن أؤخرك.

ــ حسناً.. قالت كارول موافقة وشعرت بالسعادة والتردد في الوقت نفسه، ماذا أفعل. لقد دعوت الفتاة ولم أعد أستطيع التراجع. لكن ألا أريد ذلك !؟ ماذا أريد أكثر من ذلك!؟ ها هي ذي قطعة جنة أليفة تشع بالحنان بين يدي. هاهو ذا عالم أحلام مختلط أحتاج إلى أن أسند رأسي عليه.

قدت كارول إلى عش النسر كما أسمي الستوديو الذي أسكنه في الطابق السادس، وأنا أشعر بالارتباك.

ــ عطرك ناعم وجميل.. قلت وأنا أفتح ساعدي لأدخلها في الممر الضيق، وبان عليها الارتياح. هذا هو منزلي، إنه صغير، لكن لدي نافذة جميلة تطل على برج إيفل.

ــ إنه جميل.. قالت وهي تجلس على الأريكة الوحيدة التي أحولها إلى سرير عندما أنام.

ــ شكراً. ماذا تفضلين، لدي بيرة، ويسكي، نبيذ، إضافة إلى القهوة.

ــ سأشرب البيرة.. قالت بارتياح، وتحركت إلى الثلاجة القريبة. وضعت كأس البيرة أمامها على الطاولة وجلست قريباً منها على الكرسي.

ــ نخب كل ما هو جميل ومزخرف مثل جاكيتك.. قلت وأنا أرفع كأسي، وضحكت بسعادة.

ــ أنت!؟.. سألتني كارول، وفهمت أنها تسأل عن جنسيتي.

ــ نعم. أنا سوري. هل التقيت بسوريين من قبل!؟.

ــ لا. لكن أختي متزوجة من مغربي، وأنا أحب العرب. عالمكم مثير.

"مثير"!.. نعم. رنت الكلمة في أذني، وشعرت بقليل من الإثارة. أخذتني الكلمة بعيداً إلى انجذاب الأوروبيات بعالم الشرق. ودرت بعيني في أرجاء الغرفة الصغيرة الخالية من إيحاءات الشرق.. ليتني هيأت غرفتي بالزخارف الشرقية والشموع والبخور لبعث جو من السحر في هذا اللقاء. لعنت ضيق ذات يدي، لكن لا بأس.

ــ لدي مجلة، تضم تحقيقاً جميلاً عن استخدام تصميمات الأزياء الحديثة لتصميمات وزخارف ألوان الشرق، هل تودين رؤية ذلك، قلت وأنا أفتح حديثاً عن عالم الشرق.

ــ نعم، لكن اسمح لي أولاً أن أذهب إلى التواليت. أين هو؟. قالت ووقفت لأقودها وأنا ألامس كتفها بحنان إلى الحمام.

ــ هذا هو الحمام. إنه ضيق لكنه المتوفر لدي.. قلت وتركتها لتدخل. بحثتُ عن المجلة في المكتبة القريبة من باب الحمام في الممر. هاهي المجلة. نظرت إلى باب الحمام، شعرت بالإثارة. ماذا تفعل كارول. حاولت أن أطرد شطحات خيالي. قلت لا يمكن للفتيات أن يتخلّين عن ماكياجهن في أية لحظة.. لكن خيالي عاد إلى الحركة بصورة مواربة.. إن كارول لم تقفل باب الحمام. هل فعلتْ ذلك لتحريضي على فتحه لعيش طقس فرنسي غريب!؟ أم أن المرض بدأ بالسريان إلى عقلي.. إن الفتاة تعاملني بتهذيب وثقة، وستكون قلة أدب مريعة مني لو فكرت بفتح الباب.

أحضرت زجاجتين أخريين من البيرة. ووضعتهما على الطاولة. أخرجت شرائح الجبنة، وبعضاً من الجزر، والبزورات كي أشغل نفسي أكثر.

جلست كارول على الأريكة. وأبدت شكرها على اهتمامي. فتحت المجلة وأنا أريها تحقيق الأزياء، وفكرت أن علي أن أقترب أكثر.

ــ هل تسمحين؟.. قمت وجلست قربها، مستعرضاً الصور وشارحاً لها استخدامات الأزياء.. تلك الأزياء من الريف السوري. إنها تشبه أزياء الريف في بلدي. انظري إلى الألوان الحديثة. إلى التصميم.. استفضت بالشرح لها. أحسست بثقتها وإعجابها، شعرت بالحاجة للقيام بخطوة متقدمة، لكنني استفضت بالشرح أكثر.

ــ هل ترغبين بكأس أيضاً؟.. قمت إلى الثلاجة وأحضرت البيرة. جلست على الكرسي مقابلها. فتحت حديثاً عن نجاح المصممين المميزين في استلهام روح الحضارات القديمة، الأفريقية، الهندية.. أحضرت كتاباً مصوراً عن الفن الفرعوني. بدأت الحديث عن الرموز. أريتها حمامة

تشبه حمامة بيكاسو. أريتها الرموز الفرعونية، وكيف أنها تشكل نوعاً من لغة يمكن استخدامها بنجاح في الأزياء لأنها تمس روح الإنسان.. استفضت بالشرح وأحستْ كارول أنني أهرب من المبادرة.. اعتذرتْ بأدب قائلة أن موعدها قد حان، ونهضتُ لأودعها محرجاً.

ــ ألا تريدين البقاء أيضاً؟.. قلت. ونظرتْ كارول إليّ بابتسامة أشعرتني بأنها تدرك ترددي.

ــ أشكرك. دعني أذهب الآن. لا أريد أن أتأخر عن والديّ. قالت وشعرتُ بالإحراج.

ماذا جرى لي، كيف أعتذر لها عن بلاهتي "يا أيها الحب. يا من يسمونه الحب".

تناولتُ من الخزانة كوفية فلسطينية مزخرفة الأطراف كنت قد اشتريتها من "مهرجان الهيوماناتيه"، ولففتها حول عنقها.

ــ إنها جميلة عليك، أرجو أن تتقبليها مني.. قلت وغمرتها السعادة.

نزلت معها مودعاً إلى الطابق السفلي، ووقفتْ أمامي كي أودعها قبل أن أفتح الباب. سألتني وهي محرجة لماذا لم أقبّلها، لماذا لم أقم بمبادرة لمغازلتها.. شعرت بالخجل. نظرت في عينيها اللذيذتين الوديعتين. قلت لها أنني خشيت من جمالها. واحتضن كفي خدها بحنان.

ــ أرجو أن تسامحيني. أنا نفسي لا أعرف لماذا!؟ لكنني أكثر من معجب بجمالك. هل تعدينني بالزيارة. ربما نعمق صداقتنا.

ــ نعم. أعدك.. قالت وأمسكتُ بكتفيها مودعاً ليفتح الباب فجأة وتظهر نورا...

أسمع صوت هدير محركات الطائرة وأنا أفتح عيني. أعود لتلاشي روحي. أغمض عيني وأغرق شيئاً فشيئاً في سحابات السواد.. "يا أيها الحب. يا من يسمونه الحب"...

جمدتُ مذهولاً من الصدمة، ووقفت نورا مذهولة، وأحست كارول ببرق المفاجأة الذي أوقف العالم للحظة طويلة.

تراجعت نورا معتذرة بإحراج يعتصر روحها.

ــ أنا آسفة. مررت كي أسألك فقط. إنهم بانتظاري.

ــ انتظري نورا. أعرّفك على كارول. إنها صديقة.. و.. بادرتْ كارول بإنقاذ الموقف. مدّت يدها لنورا بسرعة وهي تغادر.

ــ سعيدة بمعرفتك. أرجو أن تعذريني. علي أن أقابل والديّ.. قالت وخرجت بسرعة.

دعوت نورا للصعود لكنها أصرت على المغادرة.

ــ إنهم بانتظاري. مررت لأطمئن عليك فقط. لقد غادرتَ بحالة لم تعجبني و.. قالت وهي تفتح الباب وتخرج. أوقفتها راجياً.

ــ نورا. أرجوك. اسمعيني. أنا الآن هو الرجل الأكثر تعاسة على الأرض. لقد انتظرت هذه اللحظة. صلّيت لإله لا أعرف إن كنت أؤمن به من أجل هذه اللحظة. أوقفت زمني على ساعة هذه اللحظة. وماذا حدث!؟. أرجوك لا تقتليني. اسمعيني فقط. لا تصعدي. دعيني أشرح لك حالي في ذاك المقهى. إنها خطوتان فقط، ولن أؤخرك. دعيني أدعوك إلى فنجان قهوة في ذلك المقهى.. قلت لنورا وأنا احتجزها بكل ما لدي من طاقة. قلت لها وأنا أنظر في عينيها. وضحكتْ متمالكة نفسها.

ــ ماذا جرى لك !؟

ــ سوف أقول لك ماذا جرى لي. فقط رافقيني إلى ذاك المقهى.

ـ حسناً. لكنني لن أتأخر.

دخلنا المقهى. جلسنا صامتين. كسرتْ نورا جليد الصمت.

ـ أنا سعيدة لأجلك. إنها جميلة ولطيفة، وخالتي نوّارة لن تعترض على زواجك منها. سوف أزكيها لك، وأنت تعرف مكانتي لديها.

نظرت بعيني نورا اللتين تطلبان مني أن أتكلم. أحضر الساقي القهوة. فتحت يدي متحدثاً..

ـ نورا. لقد عرفت الفتاة منذ ساعة فقط. كنت أحس أنني مدمّر ودعوتها للحديث على فنجان قهوة.. قلت وقاطعتني.

ـ إنها خطوة جيدة. الحياة تمنحنا السعادة هكذا وربما كانت الصدف هي أجمل ما تمنحنا الحياة، آن لك أن تسعد خالتي بإيقاف ضياعك هاني.. قالت نورا محاولة أن تريني أنها سعيدة لأجلي.

ـ نورا. دعينا من أمي الآن.. أنت تعرفين ما يسعدها فعلاً.. الحياة لم تمنحني الصدفة التي تتحدثين عنها.

ـ أنت تهرب فقط مما تمنحه لك الحياة. آن لك أن تتخلص من خوفك هاني وتقْدِم، إنها فتاة لا تجد مثلها كل يوم. قالت نورا مصرة على ربطي بالفتاة.

ـ اسمعيني نورا.. للحظة كما كنت تسمعينني في دمشق.. اسمعيني كصديقتي التي تعودتُ على رعايتها لي، أنت تهربين من سماعي.. قلت كي أهيئها للإصغاء إلي.

ـ أنا آسفة هاني لإحساسك أنني لا أسمع لك. لم أعد أستطيع الإصغاء منذ أن منعت نفسي من سماع تبرير يوسف. قالت نورا دون أن تدري بأنها تكشف لي ما بها لأول مرة، ونظرتُ مواسياً في عينيها اللتين بدأتا تتلألآن بفيض الدمع. وضعت يدي على يدها معتذراً منها.

ـــ أنا الذي علي أن أعتذر نورا. لقد شغلني الاهتمام بنفسي عن إجبارك على الحديث، لكن أنت تعرفين عناد رأسك، لا يمكن لأحد إجبارك على ما لا تريدين. قلت مواسياً ومداعباً كي أخفف عنها، وأكملت. أنا أريد أن أسمعك نورا. أنا أتعذب لرؤيتي إياك تتعذبين. قلت وسحبتْ نورا يدها من يدي لتضغط بكفيها على وجهها وعينيها حابسة دمعها.

ـــ لقد خانني يوسف هاني. لقد خانني يوسف. قالت نورا بهدوء مرّ، مزيحة صخرة الهم الثقيل التي تحبس روحها. وأمسكتُ بيدها ضاغطاً بمودة تشعرها أنني معها. واستمرت..

ـــ رأيته في مقهى مع امرأة كويتية. لم يرني، وحين عاد إلى البيت سألته أين كان فقال لي أنه كان في المكتب. وتوقفت عن الإصغاء إليه. قلت له فقط أنني سأنفصل عنه. وغادرت دون أن أترك له مجالاً للشرح أو للتبرير. توقفتُ عن الإصغاء، واحترم هو هذا، لكنه لا يكف عن محاولة الحديث إلي من خلال ابننا طارق. أنا لا أتحدث معه الآن.. قالت نورا وأحسست بجبل المرارة الذي يجثم على روحها، ضغطت على يدها برفق مشجعاً.

ـــ نورا. لا أريد مواساتك بمجاملات أعرف أنك لا تطيقينها، لكنني سوف أروي لك نكتة عن نجار دعته سيدة إلى بيتها المقابل لموقف باص باب توما، كي يرى ظاهرة غريبة حيث ينفتح باب خزانتها كلما مرّ الباص أمام البيت. واستغرب الرجل ذلك... لكي يحل المشكلة كان عليه أن ينتظر مرور الباص أمام الخزانة. وهكذا انتظر... خلال انتظاره قرع الباب، فخافت المرأة قائلة إنه زوجي، وطلبت من النجار أن يختبئ في الخزانة. اختبأ الرجل خائفاً ومراعياً عدم إحراجها، وأغلقت عليه باب الخزانة، ودخل الزوج إلى الغرفة... لسخرية القدر مرّ الباص أمام البيت فانفتح باب الخزانة أمام الزوج الذي دهش من وجود النجار فيها. فتح

النجار يديه مستسلماً وقائلاً للرجل: يمكنك أن تفعل بي ما تشاء فمن سيصدق أنني واقف هنا أنتظر باص باب توما... قلت ذلك وضحكتْ نورا من قلبها. أرادت أن تكذّب نفسها كي ترتاح، أرادت أن ترتاح حتى لو كان ذلك وهماً. وقلت مشاركاً إياها ضحكها.

ـ لا أريد أن أجد مبررات ليوسف، ولو كان أمامي هنا الآن لضربته على إيذائك. لكن الحقيقة التي نعتقد أنها الحقيقة تغش أحياناً، وقد يكون ليوسف مبررات فعلته. أنا أعرف أن يوسف يحبك، وأنه سيموت إذا تخلّيت عنه. وأعرف دون أن يشرح لي أحد أنك تقتلينه بعقوبة عدم سماعك إليه.. ليني قليلاً نورا، من أجلك ومن أجل طارق.. قلت غير مصدق نفسي، لكن كان علي أن أحمي نورا من حزنها، أن أمسح عنها جرحها حتى لو كان هذا يجرحني.. قلت ذلك بحب أحسّت به نورا، وضغطت هي بكفّها على يدي مواسيةً إياي.

ـ أشكرك هاني. أعرف أنك تهتم بي مثلما أهتم بك. ربما يجب علي أن ألين قليلاً لأفهم رجلي أكثر.. لا تخف عليّ. مازلت الفتاة التي تستطيع أن تردّ وأن ترعى نفسها.. قالت نورا ونظرتُ في عينيها محباً دون أن أفكر بحبي.. فيا لتعاستك أيها الحب، يا من يسمونه الحب...

أحتسي رشفة قوية من كأسي، ويصمت هدير الطائرة. أرجع برأسي إلى الخلف. أزفر نفساً قوياً كي أريح وجع قلبي...

سرنا معاً، أنا ونورا، وحيدين معاً، في شوارع باريس الهادئة في المساء كما حلمت وتمنيت وسعيت إلى أن يكون في شتاءاتي الطويلة، غير أن ساعدي لم يكن يطوق كتفيها. يدي لم تكن تحتضن يدها.. يا أيها الحب، يا من يسمونه الحب.

سألتني نورا عن أحوالي مع الرفاق. قالت إنها سمعت من زوج أختها خالد بأننا مقبلون على انقسام، وإنني انضممت إلى كمال ومحمود ضد قيادة الداخل لنشكل عصبة الطريق. ضحكت من التسمية. قلت لها إنني لم أنضم إلى أحد.

ــ لا تنس أنني كنت رفيقة. فلا تخف عني شيئاً.

ــ أنت أكثر من رفيقة. لن أنسى إنقاذك لحياتي بمجازفتك في تهريبي من دمشق، وصدقيني نورا، أنا أحاول مع محمود ورشيد عقد مؤتمر منظمة الخارج لحل خلافاتنا، لكننا نعاني من صعوبة ذلك.

ــ كمال!؟ قالت نورا.

ــ كمال وقيادة الداخل. كلاهما يضعان شروطاً معجّزة للقاء.

ــ لكن خالد يقول أنك مع كمال.

ــ أنا مع كمال ضد الاتجاه الذي يمثله خالد ويحاول جر المعارضة إليه ولست ضد قيادة الداخل.

ــ قل لي هاني، بصدق، ألا يشوه كمال مواقف خالد. إنه يتهمه بالعمالة للمخابرات السورية، لقد زرع كمال قنبلة في بيت أختي. إنه يشككها بزوجها رغم ما يبدو من دعمها له. قالت نورا، وأصبح لزاماً عليّ أن أدخل أكثر في موضوع خالد الذي حاولت أن لا أخوض فيه معها. استجمعت أنفاس هدوئي.

ــ أنت تعلمين أنني أحترم خالد، وأفهم أن المرحلة حساسة إلى درجة التباس موقف الواحد منا مع نفسه. الاتحاد السوفييتي يتفكك، والإمبريالية الأمريكية التي ترعى الأنظمة الفاشية تعد الهجوم على نظام فاشي هو النظام العراقي، لكنه عربي ويملك القوة العربية الوحيدة التي تخيف إسرائيل. سماسرة السياسة والإعلام فتحوا المزاد لشراء ضمائر البشر من سياسيين وإعلاميين. هناك معركة حامية تجري، والجميع يشهر ما

يستطيع من أسلحة. خالد يهاجم كمال على أنه متطرف بموقفه الذي حسم الأمر بالوقوف مع العراق لأن كمال يرأس منظمة فيها بشر وفيها مواقف، ويتهم كمال بأنه يقبض مساعدات من النظام العراقي، لأن المعركة جردت أوسخ ما فيها من أسلحة. وكمال يهاجم خالد على أنه مخابرات للنظام السوري لأن خالد يقف عملياً مع النظام السوري في موقف هذا النظام الداعم لأمريكا حين يقف ضد النظام العراقي، ويتشبث بهذا الاتهام لأن موقف خالد يجر المعارضة السورية إلى موقفين.. الأول خارجي يدعم حرب أمريكا على العراق بوقوفها ضد النظام العراقي رغم وقوف خالد ضد أمريكا أيضاً، والثاني داخلي خطير يعارض قرارات مؤتمرنا الخامس، وهو التفكير بالمصالحة مع النظام السوري وخوض انتخابات مجلس الشعب السوري، تحت الشروط نفسها التي تلغي الديمقراطية وتسجن وتقتل رفاقنا في سجون النظام. وهو الفخ الذي يحاول النظام جر المعارضة السورية إليه بعد أن جربنا مستنقع لعبته وخلصنا إلى عدم التعاون معه مالم يجرِ ردّ المظالم، وما لم تلغَ قوانين الطوارئ وبنود الحزب القائد الواحد في الدستور، ومالم تكن الانتخابات حرة ونزيهة تسمح بتداول السلطات.

ــ لكنك تعلم هاني أن خالد هو أكبر من تأذى من نظام المخابرات. لقد قتلت الوحدات الخاصة للنظام اثنين من إخوته أمامه على باب المنزل في أحداث حماة رغم عدم انتمائهما إلى أية جهة، وواحد منهما كان ملازماً مجنداً في الجيش أخذ إجازة من قطعته ليرى خالد عند نزوله من فرنسا. لقد رأى أخوه يقتل أمامه دون أي ذنب سوى أنه جاء ليرى أخاه.

ــ وهذا ما يحيّرني في خالد نورا. إنه يلقي باللوم على الإخوان المسلمين وحملهم للسلاح رغم يقينه الكامل بأن من رشّ أخويه هو النظام. ربما كان خالد على حق في موقفه من الإخوان المسلمين الذين تورطوا

بحكم تركيبتهم الديكتاتورية التي تشبه تركيبة النظام بلعبة السلاح، لكننا نعتقد أن النظام جرّ الإخوان المسلمين إلى القتال بالسلاح لكي يضرب الحركة الوطنية الديمقراطية، وأنه أجهز على أي نفس معارض بعد مجزرة حماة. أنا أفهم أن يذهل المواطن السوري حتى الرعب مما حدث، وأن يضع عقله الباطن درعاً أمام رؤيته يجعله لا يصدق ما حدث كي يحمي نفسه من التأثير النفسي لما حدث، أن يكذب عينيه كي لا تقتله صدمة ما حدث من جزر لرقاب الناس أمام عينيه.. لكن خالد سياسي، وسياسي محنك لا تفوته معاني ما حدث.

ــ أنت تشكك بخالد أيضاً!.

ــ لا أشكك به نورا، ولست مع مغالاة كمال في حربه عليه، رغم ثقتي بأن كمال صادق في عواطفه وأنه صديقي الذي أثق به. لكن الأمر محير فعلاً.. إن رفاق خالد أنفسهم يتهمونه بأن موقفه في مقابلة رجل مخابرات سوري هو موقف يصب في مصلحة المخابرات السورية. وكمال لم يفعل شيئاً سوى نشر هذا الكلام.

ــ خالد يقول أنه قابل رجل المخابرات بمعرفتهم مسبقاً وبوجود بعضهم. كما يقول أن قيادته وقفت ضده لأنه وقف ضد سلبها لأموال الحزب.

ــ الصورة غائمة نورا ولا أحد يعرف.

ــ لكن أنت هاني...

ــ صدقيني نورا، أنا مثلك أحترم خالد، أثق أنه نظيف، ولا أصدق أن تاريخه يسمح له بذلك، لكنني خارج أي تأثير على ذلك لأن مواقفي تلتقي مع مواقف كمال.. قلت، وصمتت نورا. وصلنا إلى بيت أختها. أمسكت بيديها مودعاً.

ــ لقد هيأت نفسي لغير هذا الحديث.. قلت.

ــ أعرف ذلك هاني. قالت نورا ونظرت في عينيها المعشبتين اللتين تحتضنان عيني بدفء لمع فيه دفء عيني أمي، شبيهتها المفضلة لديها.
ــ قلتِ لي أن خالتك نوارة لن تمانع زواجي من فرنسية!.. قلتُ وهي تستدير للدخول إلى البيت، وضحكتْ. لقد كانت تعلم مثلي أنها الوحيدة المفضلة لدى خالتها لي.

لم تهدأ روحي، أحرقني فضول أن أعرف ما حدث بين نورا ويوسف لا من جهة الحدث ولكن من جهة داخل ما حدث. لم أحدد لماذا أريد أن أعرف، ولم أشغل نفسي بذلك كي لا أتراجع. كانت رغبتي أقوى من العناصر التي إن ناقشتها بيني وبين نفسي وضعتُ نفسي في رياح التردد، ولذا أقصيت السؤال هل أفعل ذلك لأجمع أوراقي أو أسلحتي لهزيمة يوسف في قلب نورا !؟.
سألت نورا ونحن نجلس لشرب القهوة في مقهى هادئ على الرصيف بعد جولة في مونمارتر عما حدث. قلت لها إنني أستغرب ذلك، فالجميع يعلم أنكما عشتما قصة حب أسطورية، وأنك حاربتِ المجتمع والعائلة التي وقفتْ ضد أن تتزوج ابنتهم المسلمة من مسيحي. وأكثر من ذلك أصرّيت أن لا يجبر على تغيير دينه.
ــ كان هذا في الظاهر، لكن بيني وبين نفسي كنت أريد أن يغير دينه من أجلي، بعيداً عن آراء وخوف أهلي. ليس من أجل الدين ولكن من أجلي، في الوقت الذي لم أكن أريده أن يرضخ لآرائهم.. قالت منساقة لذكريات حبها وهي تجرني بعيداً عن سؤالي.
ــ وهل كنت ستتزوجينه لو لعب اللعبة وأطاعك بعدم تغيير دينه؟!.
ــ لا أعرف فقد كانت تتناهبني مشاعر متناقضة. كنت أريده أن يطيعني وأن لا يطيعني في الوقت نفسه. وكنت محتارة أي رجل أحبه فيه، الذي

سيطيعني أم الذي لن يطيعني.. لكنه حسم الموضوع برجولة حقيقية أعجبتني، أقنعني بعد جهد تظاهرت فيه بالرفض أن الغاية هي الزواج دون خلق مشاكل لأهلي، وأن الأمر أسهل من الذهاب إلى بيروت أو قبرص لذلك. وأنه سيتحمّل عبء لوم أهله له، فهو في النهاية علماني.. قالت نورا وجعلتني أفكر في مآزق الحب مع امرأة مثل نورا، لكن الرغبة في معرفة ما حدث أعادتني إلى ما أريد الوصول إليه من معرفة.

ــ أعتقد أن هذه تضحية تعبّر عن حب كبير ومعزة لك. فكيف حدث ما حدث، أعتقد أن الأمر أكثر قليلاً من رؤيتك له يجالس فتاة في مقهى. هل أزعجك إذا فكّرت معي بأنه لا بد أن تكون هناك خلفيات لما حدث. قلت محاولاً جرّها للحديث.

ــ لا أعرف هاني. وقد بقيت طويلاً أهرب من تحليل أن تكون هناك خلفيات، أو أن تبرر أية خلفيات له هذه الفعلة. لكنني أعرف أننا بدأنا نعاني من مشاكل عدم التفاهم بعد ولادتي لطارق بسنوات قليلة. وتحول حبنا الذي جابهنا به العالم إلى مجابهات مع بعضنا. عملي في التدريس من جهة، واهتمامي الشديد بطارق أبعداني عن الرسم وأصبحت أحس بالعجز والاكتئاب من عجزي. وضخم الأمور عندي أن يوسف بدأ عكسي بالازدهار، وأضاف إلى كونه طبيباً ناجحاً، مهنة كاتب ناجح، وبدأت علاقاته بالوسط الأدبي تزدهر، في الوقت الذي بدأت فيه بالانحسار. ولم يتفهم وضعي. أصبح يصرّ على آرائه، وبدأنا نختلف حول تفاصيل حياتنا. أين نبني البيت.. في بلدي أو بلده أو دمشق. وتفاصيل تافهة حول الذوق، وأحسست أنه بدأ يهرب من إصراري على آرائي التي لم يفهم أنها إصرار على مكانتي لديه، إلى أن اكتشفت أنه كذب علي. قالت وصمتت بحزن دلّني إلى أنها لا تريد التفكير في ما حدث بعد الآن. وأحسست من عدم رغبتها أنها لا تريدني أن أدخل أكثر في تفاصيل قصتها مع من

أحبت، لكنني عرفت أيضاً أنها تركت لي منافذ للدخول في القصة على طريقتها في تعليقي، ويا أيها الحب.. يا من يسمونه الحب، ويا من أسميك شقائي.

أدير رأسي نحو الجهة المعتمة. أفتح عيني ويعود صوت هدير الطائرة، يعود وأسكن لحظة دون تفكير. أعود إلى إغماض عيني. يغرق رأسي في سحابات السواد. سواد سواد، ولا مخرج من حصارات السواد. سواد سواد وينبض في رأسي. يتفجر في رأسي لون البرتقال...

اكتملت جنتي. طرح قدري الذي يرتدي ثياب باريس علي سؤاله البسيط والمعقّد بآن، طلب مني أن أعطيه تعريفاً واحداً للإنسان!! ولأنه يعلم أنني لن أستطيع ذلك، أوقعني كي أعرف إجابة ذلك في حصارات الخيار...

هاهو ذا أنا محاصر بضرورة العمل، في مدينة متخمة بالعطالة بعد أن شارف رصيدي على النفاد، وأصبحت أخجل أن أطلب من والدي الذي ستقتله الديون من أجلي دون أن يشعرني بثقل ما يعانيه.. ساعدني سامح بنشر موضوع لي في مجلته، وبقصيدة في الجريدة الوحيدة التي لم تستطع شراءها أموال الخليج، ووافق كمال على نشر دراسة لي كل عدد في المجلة التي كما يبدو أصبح شريكاً فيها ورئيساً للتحرير.. لكنني لم أقبض أي ثمن من هذا النشر بسبب بيروقراطية الاستكتاب.. وهاهو ذا أنا محاصر بعدم استجابة الرفاق لدعوتي إلى مؤتمر منظمة الخارج لحل الخلافات، محاصر بحبي المستحيل المعلّق، محاصر بعجزي عن كتابة روايتي التي أردت فيها أن أبلور حبي وعجزي وأن أحرر داخلي من جثة صديقي معاذ الذي قتلوه، وأن أسيل الحجر الذي استقر في عيني منذ سمعت بخبر استشهاده إلى دموع...

هاهو ذا أنا الرجل الملعون المحاصر الذي فقد نعمة البكاء...

جلست مع محمود في مكتبه بمجلة "الصوت" ننتظر كمال الذي ذهب إلى موعد مع رسول قيادة الداخل إلينا من البلد.

ـ حسناً. لقد وافق كمال على حضور مؤتمر لمنظمة الخارج تتم دعوته كما اقترحت أنت على قيادة الداخل من قبل الرفيقين القياديين في الحزب وأنت، لكنه اشترط عدم حضور الرفاق المخالفين برأيه والذين يتصلون بقيادة الداخل خارج إطار منظمتهم. قال محمود وأخرج قائمة بالرفاق الذين يعترض كمال على حضورهم، والأسباب التي تدعوه لذلك...

قرأت القائمة والأسباب التي تناولت: باسم لأنه يدين للمنظمة بمبالغ يمتنع عن إيفائها. رجب لأنه متهم بالتحرش بزوجة رفيق معتقل. صفوان لأنه لم يتصل بمنظمة الخارج عند قدومه إلى باريس، ولأنه يكتل الرفاق بالتنسيق مع قيادة الداخل خارج الإطار الشرعي للمنظمة. وهاشم لأن عضويته لم يبت فيها بعد من منظمة الخارج وفقاً للنظام الداخلي، ولأنه محط شك بأن انضمامه للحزب ليس أكثر من بحث عن زعامة.. قرأت ملاحظات محمود، ورددت القائمة إليه.

ـ سوف أوافق على عدم حضور هاشم، لأني أعرف أنه كتب رسالة نقد وجهها إلينا بحق حزبه القديم ولام رفاقه مرتفعاً فوق الجميع، وهو سلوك فوقي مريض لا يعجبني شخصياً بصرف النظر إن كان محقاً أم لا، وأعرف أنه يريد أن يكون قيادياً لدينا لأنه كان قيادياً لديهم.. لكن رفاقنا الآخرين هم عماد قيادة الداخل، ولن تتخلى هذه القيادة عن حضورهم، كما أن أحداً لا يستطيع منعهم من الحضور. إن شرط كمال باستبعادهم يعني عملياً رفضه لحضور المؤتمر. هل هذا ما يريده كمال!؟. قلت مستنتجاً المأزق الذي يضعنا فيه كمال.

ــ لا أعتقد! لكن أنت تعرف تزمته. قال محمود مؤكداً على المأزق.

ــ ومن جهة أخرى هم أيضاً لهم شروطهم لحضور المؤتمر. إغلاق جريدة الطريق ومحاسبة كل من شارك باستمرارها أي محاسبتنا نحن الثلاثة أنا وأنت وكمال.

ــ لا يشكل هذا معضلة بالنسبة لي أو لك وإن كان يدفع كمال إلى المقاطعة، لقد أردنا باستمرارها منع أي انحراف عن خط الحزب، وهذا يوفره لنا النظام الداخلي. سوف نعرض أسبابنا، وجميع الرفاق في أوروبا مع استمرار إصدار الطريق.

ــ ما رأيك إذن بإقناع كمال بقبول المساومة. كل طرف يتخلّى عن شروطه، وليقرر المؤتمر خط وتوجهات وقيادة منظمة الخارج.. أقول ويضحك محمود بمرارة.

ــ أنا معجب بتفاؤلك. لم لا تطرح هذا بنفسك على كمال !؟.. يقول محمود ساخراً، ونصمت. يدخل كمال ضاحكاً.

ــ لقد وصل رد قيادة الداخل على اقتراحك بدعوة الرفاق لعقد مؤتمر منظمة الخارج من قبل الرفيقين القياديين وأنت.. يقول كمال موجهاً كلامه لي، ويسلمني نسخة من رسالة الرد. أقرأ الرسالة. إنها موجهة للعضوين القياديين في باريس، وتتضمن اجتماع اللجنة المركزية وقرارها بفصلي من اللجنة المركزية لأنني غادرت البلد إلى الخارج دون صدور قرار منها بذلك. قرأت الرسالة، وابيض لون دمي. تلك هي الطعنة التي لا أستطيع ردّها. تلك هي الطعنة التي تقتلني. تلك هي طعنة رفاقي لي.

داريت صدمتي أمام كمال كي لا يتشفى بي، ومع ذلك لم أسلم من سخريته.

ــ تريد توحيد المنظمة. تفضل. لقد جردوك من أي فعل، لكنهم وأشهد بالله على هذا كانوا كرماء إذ أبقوا على عضويتك. تستطيع حضور

المؤتمر كعضو عادي. قال كمال ساخراً، وهبطتْ على نفسي سكينة المقاتل الذي بداخلي، ضحكت.

ــ وماذا في ذلك. دعنا نعقد المؤتمر وسنفوز. مازلنا الأكثرية.. قلت واثقاً من ذلك.

ــ بالشروط التي حددتها.

ــ دعنا نعقد تسوية عادلة معهم. كل طرف يتخلى عن شروطه وتناقش كل القضايا والخلافات في المؤتمر.

ــ لست مستعداً للتخلي عن أي شرط. وسأستمر بإصدار الطريق. قال كمال بلهجة تحدّ موجهة لي.

ــ كأنك أنت أيضاً لا تريد عقد المؤتمر.

ــ احسبها كما تشاء. وسأصر أيضاً على حضورك كعضو قيادي. قال هذا ساخراً بطريقة ينهي بها النقاش.. وصمتنا.

دخل موظف الكمبيوتر. سلمني السلخة المطبوعة من مادتي التي اتفقت على نشرها مع كمال لمراجعتها. نظرت إلى مقالي وغامت الدنيا في عيني. مادت الأرض من تحتي مرة أخرى، واستنجدت بروح المقاتل فيّ. نظرت إلى كمال، إلى ابتسامة السخرية التي طالما أحببتها فيه وعلي مواجهتها الآن. لكم أكره هذه المواجهة مع صديقي.

ــ هل أعجبك المقال!؟.. قال كمال محاولاً أن يثير أعصابي، وهبط سكون العالم مرة أخرى على نفسي.

ــ من حذف المقدمة!؟.. قلت.

ــ أنا.. قال كمال غير آبه.

ــ وبدّلتَ صياغة جملة بأسلوبك! وحذفت معالجة شخصية أم الخوش.

ــ نعم. هكذا أفضل. ألم تكن تفعل هذا مع المقالات التي تنشرها عندما كنت محرراً.

ــ لا. كنت أحترم نفسي قليلاً فأستشير الكاتب إذا فكرت بتعديل. ولم أكن أعطيها لمخرج المجلة الفني يلعب بها كي يحل عقدته في أن يكون محرراً. قلت مهاجماً إياه بشكل مباشر، وحافظ على هدوئه.

ــ أنا رئيس التحرير، وطلبت منك دراسة عن رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف، وتغيرات المدن والبشر تحت ظل علاقات النفط، وأنت كتبت دراسة عن صدمة التلقي الأولى لوجود الأمريكان في الخليج بمكان واحد صغير هو وادي العيون. قال مبرراً فعله الذي أحسست أنه موجه لتبرير نفسه إلى محمود.

ــ يبدو أن علي أن أشرح لك ما فاتك. لقد كتبت دراسة عن ذاكرة المكان، حالة تدمير المكان، وتأثيرها على مجموعة بشرية أحسّتْ بمستقبل الخطر المتجلّي هذه الأيام بأكبر تواجد مسلّح يشهده التاريخ في الخليج، والأهم من ذلك لجوء الإنسان في ظل تدمير ذاته إلى حضن أمه/ الصحراء أو وضحة الحمد أو أم الخوش التي حذفتها أو أية أم على أمنا الأرض. وإذا لم تكتشف هذا بسبب سيطرة فكرة أخرى برأسك، أو بسبب حسابات النشر، فاكتب أنت مقالك، وضع عليه اسمك.

ــ لست بحاجة إلى أن أكتب. أنا أختار ما يعجبني، وأنت لديك الخيار.. قال كمال حاسماً مسألة نشري لمقالي.

ــ نعم. نحن الاثنان لدينا خياراتنا.. قلت بأسى ونظرت إلى محمود الذي يراقب بحزن ما يحدث. قلت ذلك وعرفنا نحن الثلاثة أنني وصلت مع رفيقي كمال إلى مفترق طرق لا مجال إلا لتفرقنا فيه.. نظرت حزيناً إلى محمود الذي تحرك لانتشالي. ذكرني بموعدٍ مصطنع مع سامح، مشيراً إلى ساعته، وقمت. نظرت إلى كمال مودعاً. مددت إليه يدي، وعرف أنها المصافحة الأخيرة بيننا.. مدّ إليّ يده متردداً، قرأت في عينيه أنه يريدني

أن أبقى، لكن لم يعد هناك مجال للتراجع. ها نحن ذا وصلنا إلى نهاية الطريق الذي كنا مستعدين أن نموت فيه معاً...

أختنق بدمعي... أغمض عيني لأبعد مشهد وداعي الفجائي الغريب مع رفيقي الذي كنت مستعداً للموت معه في دمشق عندما كنا ملاحقين من أجهزة المخابرات. أحدّق في الهاوية المفتوحة السوداء من نافذة الطائرة، أحدق ملقياً بنفسي في الهاوية...

سرت صامتاً مع محمود. صامتاً بحيادية المطلق، في مدينة أصبحت غريبة عني بالمطلق.. ليست هذه هي التافهة باريس التي حلمت أنها أنثاي. ليس هذا شارع جان ميرموز الهادئ الذي يشبه شوارع دمشق الستينات. ليس هذا هو الشارع الذي قلت له فور مروري فيه مرحباً أيها الشارع الذي ستصبح شهيراً لأن رفاقي يصنعون الأحداث فيك. ليست هذه هي الشانزليزيه التي أذهلني استنبات القمح سنابل في شوارعها بعيد تموز. ليست هذه ممرات مترو باريس التي طالما كانت حضناً دافئاً يحتضن شراستي أو شرساً يحتضن دفئي بعروقه التي تنبض بموسيقى أميريكا اللاتينية أو طبول الأفارقة التي تحولها إلى غابة شرسة أليفة وحانية بآن. ليس هذا شارع أميل زولا الذي كان حدثاً مهماً لي أن أسكن فيه، وليس هذا مدخل بيتي. ليست هذه علبة صندوق البريد التي اختار لها محمود غير عابثٍ اسم " مارا ".. لكن يد محمود الممتدة فيها لاستخراج الرسائل هي يد محمود، ومحمود الذي يسندني بصمته هو رفيقي محمود.

حلّق بنا المصعد إلى السماء السادسة الأخيرة بالنسبة إليه وتوقف لنصعد الدرجات إلى سمائنا السابعة. انفجرت بالضحك وأنا أفتح الباب. هذا هو عش النسر. قلت لمحمود الذي اتجه إلى الثلاجة الصغيرة في نهاية الممر

الضيق، وأعدّ لي كأس الويسكي بالنعناع. ألقيت بحقيبة يدي فوق الطاولة. خطوت خطوتين لأفتح النافذة. نظرت إلى رأس برج إيفل الشامخ خلل سراب الرماد في سماء باريس. حييته، وجلست. تناولت الكأس من يد محمود. نظرت إلى صورة رفيقي معاذ التي احتلت صدر الجدار. رفعت كأسي. قلت نخبك أيها الرفيق.

ــ كان علي أن أكون مكانه. لست أدري إن كنت أحسده على قبره. قلت وأنا أغب غبة كبيرة من كأسي. نظر إلي محمود بحنان محاولاً مواساتي.

ــ انظر هاني. أنا أعلم كم يصعب عليك تحمل ما حدث بينك وبين كمال، لكني أريدك أن تعرف أن كمال يحبك. ربما كان مرضه يضغط عليه، ربما تعلق الأمر بوضع المجلة التي تفتقد الموارد. ربما كان خائفاً وبدأ يفقد الأمل.. قال محمود، ونظرت إليه متأملاً ما وصلنا إليه.

ــ يحزّ في نفسي يا محمود، ما وصلنا إليه. لقد كنا النار التي سارت على هديها القوى الوطنية الديمقراطية في البلد. وضعنا أول برنامج سياسي ديمقراطي. انتقلنا بالشيوعية ولأول مرة في تاريخ الأحزاب الشيوعية في منطقتنا من ديكتاتورية الستالينية السوفييتية إلى الديمقراطية.. لقد حملنا في أيدينا حلماً كبيراً يتسع العالم.. يحز في نفسي يا صديقي أنه كان يكفي النظام المخابراتي السوري أن يعتقل قيادتنا الأولى لكي يوصلنا إلى أن لا نستطيع عقد مؤتمر لمنظمة الخارج، أن يصل الاختلاف الذي شجعنا بعضنا عليه إلى ممارسة وسخ ما كان البكداشيون يمارسونه في الحزب.. قلت وقاطعني محمود قبل أن أغرق في كآبات الشكوى.

ــ هوّن عليك. إن هذا يحدث، إنها ليست المرة الأولى التي تعاني فيها من الفصل. لقد تحولت إلى سيرة في المشاكسة.. قال محمود ضاحكاً

ومذكراً إياي بتاريخي الحافل بالخلافات مع الرفاق خلال مسيرتنا لصنع الديمقراطية في الحزب، وضحكت.

ـ أذكر المرة الأولى التي فصلت فيها من الحزب في مدينتنا الصغيرة دير الزور. كنت في السابعة عشرة فقط، وكنت متحمساً حتى التعصب لمسيرتنا. عند خروج الثلاثي وانضمامهم إلى الاتجاه الستاليني الذي يمثله " خالد بكداش "، حاولوا تكتيل ما يستطيعون من رفاق لجرهم معهم، وكان بعض رفاقنا في اللجنة المنطقية يساعدونهم على ذلك، وأخفوا عنا رسالة اللجنة المركزية الموجهة إلى جميع الرفاق لعرض الخلاف. لم يكونوا يريدون عرض اللجنة المركزية للخلاف وقرارها بشأنه لأنهم يعرفون أن النتيجة ليست في صالحهم... سألني رفيق قريب من جامعة دمشق زار البلد عن رأيي بالرسالة، وأبديت له جهلنا بحدوث أي شيء فأعطاني نسخة منها... قرأت الرسالة واستغربت لماذا تخفي عنا اللجنة المنطقية هذه المعلومات. طلبت مقابلة صاحبك أبو حكيم، رئيس اللجنة المنطقية. قلت له بأني قرأت الرسالة من خلال أحد رفاقنا في دمشق، فطلب مني وكان متردداً أين يقف بأن لا أخبر أحداً من الرفاق عنها ريثما تقر اللجنة المنطقية ما يكون بشأنها. قلت له أن الرسالة موجهة إلى جميع الرفاق. وقال لي بحنكته التي تعرفها أنه يخشى أن تحدث الرسالة انقساماً في صفوف المنظمة، لذا علي أن أتريث.. أحسست أن من يريد إخفاء هذه الرسالة يريد كسب الوقت لضم ما يستطيع من رفاق فسارعت بالتصرف. درت على جميع الرفاق الذين أعرفهم وأطلعتهم على مضمون الرسالة. هددني أبو حكيم بالفصل من الحزب لأني أخرق النظام الداخلي، وزاد هذا في حماسي. لم أترك رفيقاً في المنظمة إلا وأطلعته عليها، وفصلني أبو حكيم من الحزب.. قلت وضحك محمود من تصرفات أبو حكيم.

ـ أنا أذكر ما حدث، وأذكر أن أبو حكيم قرر البقاء مع رفاقنا وأصبح من أشد المتحمسين لعرض الرسالة. لقد كان يقدس أميننا العام / ابن العم، ويعتبره بطله. ولقد شرح له ابن العم أبعاد الانتهازية في خروج الثلاثي من الحزب، فأكد له أبو حكيم أنه معه قائلاً: أنت تعلم يا رياض أنني جندي سنغالي لديك، فضحك رياض الترك، وقال له: نحن نحمل مشروعاً ديمقراطياً للحزب، وأنا أريد رفاقاً يفكرون ويختلفون لا جنوداً سنغاليين يطيعون... قال محمود وهو يضحك من طيبة أبي حكيم، وضحكت.

ـ لقد كانت أياماً حافلة تدفعنا للمضي قدماً في مشروعنا الديمقراطي.. لكني أحس هذه المرة أنني مطعون يا محمود. مطعون وأنزف. إنها المرة الأولى التي أحس فيها أنني عاجز. لم يصدف أن عانيت من العجز أكثر من هذه المرة. حتى عندما اعتقل الرفاق. حتى عندما ارتكب السفاحون المجازر. حتى عندما تلقيت نبأ استشهاد رفيقنا معاذ. أحس أنني عاجز، ومكبّل. أحس يا محمود أنني جثة. أنا أتحرك الآن وفي داخلي جثة. لقد منحني قدومي إلى باريس الأمل في البداية في أنني سأفعل شيئاً لرفاقنا المعتقلين. بعث فيّ قدومي إلى مدينة الديمقراطية الأمل في أنني سأستطيع كتابة روايتي. سأستطيع إخراج جثة رفيقي من داخلي بعمل روائي يمجّد تضحياته. أنني سأرتاح مما أحمل في داخلي غير أنني تحولت إلى جثة.. قلت منكسراً ومحبطاً وصمت محمود مفكّراً بوضعي. رفع كأسه متعاطفاً ومشيراً لي أن أشرب.

ـ لقد قررت قبول عرض قبرص. وسأغادر باريس بأقرب فرصة.. قلت مفاجئاً محمود بقراري.

ـ أعتقد أن عليك أن تهدأ الآن دون أن تقوم بأية خطوات. مبدئياً نستطيع تدبير النشر بصحف أخرى تدرّ عليك بعض المال.

ـــ أحس أن مشكلتي هي أكثر من مشكلة تدبير النقود على أهمية ذلك، يبدو أن علي أن أغيّر حياتي.. قلت مصمماً، وحاول محمود تغيير استراتيجية تهدئتي.

ـــ ألم تنس شيئاً في اتخاذك لهذا القرار؟.. قال محمود ملمّحاً، ولمعت في رأسي صورة نورا. صورة وجه المشمش إياه. وجه المشمش المنمش بتويجات بيضاء. كم أحتاجك نورا في هذا الموت. لمعت في رأسي صورة عينيها الخضراوين. صورة البحيرتين الواسعتين المحاطتين بغابات النخيل. لمعت صورة شفتيها المكتنزتين الهادئتين بسكينة، صورة شفتيها اللتين تدور حول سكون ثلجهما أبداً فراشة مجنونة. لمعت في رأسي صورة شجرة المشمش إياها التي رأيتها مزهرة لأول مرة في الربيع. لمعت في رأسي صورتها وأغرقني الصمت.

ـــ نعم. لكن يبدو أنها أحد أهم أسباب رحيلي.. قلت هارباً من ضغط صورتها. أحس أنني أصبحت عبئاً على الجميع هنا، وخصوصاً نورا. أحس أنني أضعها في خيار لا تريد هي أن تكون فيه. كما أحس أنها مازالت تحب زوجها وتحرص على عدم إيذاء ابنها من خلال ترددها. أعتقد أنني أشكل ضغطاً عليها، ويجب على هذا أن يزول، يجب على هذا أن يزول.. قلت غير مدرك ما أقول، ونبهني محمود.

ـــ أنا أقدّر صعوبة خياراتك والطريق الذي حشرت فيه، لكن علي أن أنبهك هاني إلى نقطتين: الأولى هي أن الفرنسيين لن يسمحوا لك بالعودة إذا قطعت إجراءات حصولك على اللجوء السياسي، والثانية هي أنني معك. يمكنني تبنيك، ولن يكون هناك فرق كبير بين ولدين وثلاثة. قال مازحاً للتخفيف عني ومبلغاً إياي وقوفه إلى جانبي إن تضايقت، ونظرت إليه باسماً.

ـــ سوف أجرّب حظي في مكان آخر. ربما كان هذا أفضل للجميع...

أغرق في بحيرة دمعي. يقطع نشيجي صوت المضيفة التي تراني هكذا وتتردد بسؤالي. أسألها أن تحضر لي كأس ويسكي، وأتناوله من يدها شاكراً. أنظر إلى يميني. سواد سواد ولا شيء يلمع في هذا السواد...

في عشائي الأخير مع عائلة محمود التي دعتني لتوديعي، أحسست حقيقة بعظم ما فقدت من دفء العائلة. كانت مودة عائلته لي وتماسكها الجميل مع بعضها يشكلان معادل خلل توازني العائلي الذي فقدته مبكراً ويوازنان وجودي. لقد كانت عائلة محمود هي سندي الحقيقي في هاوية هذه التافهة باريس، كانت عائلة محمود هي عائلتي وباريس الحقيقية بالنسبة لي، متاحف باريس الفنية، متاحفها العلمية، حدائقها، أسواقها التي شهدتها مع أطفال محمود، ودفء البيت المتوازن الذي يشع بالجمال...

تقدم مني بشار ابن محمود الصغير، مودعاً إياي بطريقته الذكية. قدّم لي سكّينه العزيز عليه قائلاً أن غلاوته زادت عليه منذ تعبنا أنا ووالده في العثور عليه عندما ضاع.. " لقد كانت رحلة بحث مليئة بالمعاني ".. قلت وأنا أنظر في عيني الولد الذي كنت أرى فيه امتداد رفيقي معاذ الذي قتلوه، الولد الذي كنت أرى فيه بوجه غير ذي حق تعويضنا لما نفقد من رفاق أعزاء نمد بهم حياة بلادنا... طلب مني بشار أن أروي لعمّه رشيد الذي حضر لوداعي مع امرأته الفرنسية اللطيفة كيف عثرنا على سكينه الأبنوسي المطهم، في غابة خطوط باصات باريس... قلت لرشيد وأنا أضحك أن شاعرنا نديم المغرم بالسكاكين والبلطات أحضر لبشار هدية مميزة من قبرص هي هذا السكين الأفريقي الخشبي المشغول بحرفية مذهلة. وقد نزل بشار وأمه دون السكين من الباص الذي مضى. لقد نسي بشار هديته الرائعة في الباص، وأدركنا أنا وأبوه أي فقد عزيز تشكله هدية نديم، فاستنفرنا.. تتبعنا الباص الذي مضى من شارع إلى شارع ومن محطة إلى محطة ونحن نسأل كل من له علاقة بخطوط الباص عنه.

والمشكلة كانت أننا لم نكن نعرف رقمه ولا أين يتجه، ووصلنا أخيراً إلى نهاية خطوط الباصات. لم يبق علينا إلا أن نوصي مدير المحطة بالاتصال بنا إذا ما أوصلها أحد أولاد الحلال إلى الأمانات، وأعطيناه مواصفات السكين بدقة مفرطة جعلته يشكك بعقولنا لكن أدبه طمأننا خيراً.

كنا محبطين ويائسين، ولم يبق لي كما أفعل عادة إلا أن أركّز مخي وأطلب من صديقي الله أن يساعد صديقي الطفل. قلت له يا ألله، يا صديقي الله.. من أجل هذا الولد الهائل الذي تعرفه. هذه المرة يا ألله. وصعدنا إلى الباص المتوقف كي نعود أدراجنا. جلسنا على المقعد وكانت السكين بيننا على المقعد نفسه.

ضحك رشيد من جنوني الذي يتكرر وقال لامرأته الفرنسية وهو يضحك: نعم إن لدى هاني معجزات شهدتُ واحدة منها في عيد الهيومانيتيه. فقد أحستْ ابنة رفيقنا ونحن نصعد الباص للعودة مع هاني أنها فقدت بطاقة هويتها الفرنسية الجديدة، وقلبت شنطتها رأساً على عقب بحثاً عنها، وانفجرت بالبكاء.. طلب منها هاني أن تهدأ ولا تفكر بشيء. ركز مخه وطلب منها أن تفتح محفظتها وأن تفتش بهدوء بين محتوياتها. فتحت البنت المحفظة وكانت الهوية بين المحتويات. قال رشيد وضحكت زوجته اللطيفة ابنة العلم غير مصدقة ما يرويه الشرقيون من جنون.

تقدمت ابنة محمود الصغيرة أليسار مني. سلّمتني قصيدة وطلبت مني أن لا أفتحها إلا داخل الطائرة. قالت وهي تشكرني " تلك قصيدة مني رداً على القصيدة التي كتبتها لي في عيد ميلادي "...

يصمت هدير الطائرة وأمد يدي إلى جيبي. أخرج قصيدة طفلة صديقي أليسار، أقرأ قصيدتها لي: " سيف أبيض حلّ بيننا، لكنه مضى مثل البرق، وبقي السؤال. إنه عمو هانيبال... " أقرأ قصيدة طفلة صديقي وأشرق

بدمعي. أؤكد لنفسي وعداً أقطعه على نفسي أمام قصيدة طفلة صديقي. سوف يبقى السيف سيفاً يا طفلتي. سوف يبقى السيف سيفاً...

يصمت هدير الطائرة وأشرق بفيض الدمع. أرى وجه نورا. يفاجئني وجودها أمامي في المطار.

ــ إلى أين تهرب.. تقول لي ضاحكة، وأتسمّر في مكاني. ها هي ذي المرأة الوحيدة التي تسمّرني في مكاني أتت لتراني. غلبني التأثر وتمالكت نفسي من الركض إليها واحتضانها. نظرت إلى محمود وابنها طارق. ركض إليّ طارق. ضرب كفه بكفي كما تعودنا حين نلتقي ووقف بهيئة عراك الكاراتيه لمجابهتي. ضحكت ورفعت يدي مستسلماً. ركض إليّ واحتضنته رافعاً إياه إلى أعلى... انفردت بمحمود حين أخذت نورا ابنها طارق لتشتري له الذرة. سألني محمود ضاحكاً مع ساعة مغادرتي التي تقترب ولم يعد من مجال لبقائي.

ــ ماذا كرهت في هذه التافهة باريس!؟.

ــ كرهت أنها لم تفتح لي نافذة واحدة على طفولتي.

ــ تلك طبيعتها، لكنك لم تصبر كفاية عليها.

ــ نعم. ربما تسرّعت قليلاً، لكنني سأمضي.. قلت حزيناً وحضرت نورا. أخذ محمود طارق وأبعده قليلاً محدثاً إياه كي يتيح لنا الانفراد. نظرتُ إلى نورا. نظرت إلى بحيرة الحنان الساكن في عينيها، تلك هي اللحظة التي أستطيع فيها أن أقول ما أخفيت في صدري. تلك هي لحظتي.

ــ كنت أتمنى أن نبقى معاً ونتزوج.. قلت وفوجئتْ نورا. احتقن وجهها ولمع الدمع في عينيها.. نظرتُ إليها مكابراً دمعي، وحملتُ شنطة يدي واستدرت للمضي إلى البوابة. وصلتُ إلى البوابة وسمعت صوتها. سمعت

صوتها ولا أعرف إن كان هذا حقيقة أو حلماً، وما الفرق.. استدرتُ لأقف لحظة، ولتركض هي إلي. توقفتْ أمامي دامعة وعانقتني.

ــ أنا أيضاً هاني. أنا أيضاً هاني. قالت وضممتها، ضممتها لأول مرة في حياتي، ضممتها وكأنها جزئي الذي لا ينفصل عني، جزئي الذي سينفصل عني بعد لحظات تحت تهديد سيف الطرد من جنتي بيد الملاك.

الشاطئ

ها أنا مرة أخرى أمامكِ. بيننا البحر والحقد والضياع ولكنَّ سماء المتوسط فوقي تمدني بقوة غريبة تعيدني إلى حالات التحامي الأولى بنهر طفولتي تحت سمائك... أرفع كفَّيَ مثل جسر أصل به السماء والماء، وأحس بهدوء التسامح.

أنظر في الموجات التي تترامى على شاطئ ليماسول تحت قدمي، أنحني لأطويها بيدي الواثقتين مثل سجادة أدحرجها أمامي لأصل هذا الشاطئ الغريب بشاطئك.

أنحني لألمس ترابك. أقف لأنظر في عينيكِ مباشرة وأسألك بعيني كيف هو حالك. أزيل جدران حقدي، وأسألك دون ضغينة بين الأصدقاء هذه المرة كيف هو حالك. أطمئنك أنني لن أعيد لومي لك. أقول لك حسناً لن أسألك كيف تسمحين لهم بقتله على ترابك!؟ كيف استطعت حضن جثته في ترابك!؟. وأقول لك احتضني جثتي أنا أيضاً في ترابك...

ها أنا مرة أخرى أمامك، عارياً من أية تحضيرات للقاء، خالياً من المشاعر، مسلماً قياد هذا البركان في داخلي لكفك الممدودة، دونما ذكرى، دونما تفسير ودونما تفكير...

دعينا نرمي ذكريات ما حدث جانباً، دعينا نطوي ما حمّلتني من مآسي مثل منديل نضعه ببساطة وهدوء على الطاولة، دعينا نسمي هذه اللحظة فقط لقاء رجل بوطن...

ها أنا قريب منكِ أكثر، وأحس بالحياد تجاه مشاعر حقدي، أحس بتكسر أمواج الشاعر الهادرة على صخرة مائي، وانسيابها ماء يروي أراض وحقولاً، أو يحكي حكاية طفل وحيد وجد حضناً دافئاً وإنْ في الحلم بعد تشرّدٍ طويلٍ وحنين...

حطت الطائرة سالمةً مثلما أخبرت السائحة الفنلندية في مطار لارنكا، ولوحت لي الفتاة بيدها وهي تجول بعينيها باحثة في أرجاء المطار عن صديقها، واستقريت أنا بين يدي نصير، وسبحان من لا يتبدل.. نصير هو نفسه بطوله الذي يقارب عرضه. وجه بوذا بعينيه الجميلتين وشحمتي أذنيه الكبيرتين، مع ابتسامته الهادئة السموحة الساحرة لكن باختلافات بسيطة تناولت الشعر الذي خف وقارب الصلع، والعينين اللتين فقدتا مع كبر السن فتنتهما وإن حافظتا على الجمال.

تعانقنا وقدمني إلى محمد، نائب رئيسة التحرير، ولفت انتباهي تهذيبه وهدوؤه بالقدر الذي أثار إعجابي ذكاء عينيه.

ـ بداية تبشر بالخير إن كان هذا مديري.. قلت لنصير بعد أن أوصلنا محمد إلى البيت، وبعد أن قدمت لمحمد زجاجة فودكا البيزون هدية بافتراضي أنها الهدية المناسبة لشاعر أو ليبي، ورد على مجاملتي ضاحكاً: إن أجمل البدايات هي التي تفتتح بالفودكا.

طمأنني نصير ونحن ندخل بيته ضاحكاً بأن محمد وزوجته عائشة التي ستكون مديرتي هما في الأصل شعراء، ويمكنني التعامل معهما على هذا الأساس، وأن محمد سيناسبني طالما تم التعارف بيننا عن طريق الفودكا.

استقبلتنا أحلام زوجة نصير بلطفها الطفولي المهذب، وعرفتني على أولادهما الثلاثة.

فوجئت بحجم ابنها الأكبر سِرَاج، الذي حاز اسم جده لكونه الذكر الأول في العائلة. قلت مندهشاً: أنت شاب!، وبادرت أمه التي كانت تتوقع استغرابي بالقول: إنه فقط في الحادية عشرة، لكنه بلغ طول أبيه وأمه معاً، وقلت له ممازحاً أنه سيصبح بعد يومين بطولنا نحن الثلاثة.

جلست وأنا أتأمل الأب والابن، إنهما متشابهان حتى في الملامح الطفولية التي لم يتخلَّ عنها وجه نصير، لكن سِرَاج يختلف بشكل جسده الممشوق عن شكل جسد أبيه الذي فاجأني بتكرشه على هذه الصورة.

قلت لنصير أنه لم يكن كذلك في حلب، وقال ضاحكاً إنه لاشيء يبقى على حاله، واستطرد ضاحكاً: إلا أنت، فيما عدا هذه الشيبات، هل هي شيبات؟ وضحكت، قلت أن الباريسيات يفضلن الرجل الناضج فحاولت خداعهن بصبغ شعري.

ـ وهل صدّقن ذلك؟.. قالت أحلام ضاحكة.

ـ في الحقيقة لا. واحدة منهن اكتشفت ذلك وسألتني عن السبب، ولما كنت صريحاً وغبياً كعادتي قلته لها، فقالت أن تفكيري على هذه الصورة لا يعبّر عن نضج.

ضحكت أحلام من سخريتي، استمرت..

ـ لكنك مازلت تحتفظ به!؟.

ـ في الحقيقة أنا أخالفها الرأي وأريد الإثبات من خلال احتفاظي به أنني ناضج.

ضحكنا سوياً وفاجأني سِرَاج بسؤاله..

ـ يعني عمو.. شعرك مصبوغ، ما لون شعرك؟ وقبل أن أجيبه سألني..

ـ عمو إنت تعرف بابا من زمان؟ وقبل أن أجيبه سألني..

ـ عمو أنت جئت من فرنسا، يعني كنت في فرنسا؟

ضحكت وقلت له: توقف. أولاً على أي سؤال تريد أن أجيبك أولاً؟.. وضحكت أمه ناهرة إياه: سِرَاج. ووجهت كلامها إليّ مبررة:

ـ هذا حالنا معه.. إنه يجننا بأسئلته. لا تأخذها بجد. إضافة إلى أنه لا يلتزم بمواعيد نومه. هذا الكلام سِرَاج أمام عمو هاني. يجب أن تذهب إلى السرير. مضت ساعتان على موعد نومك.

ضحك نصير ولم يعلق فشكت إلي ضاحكة..

ـ هكذا هو وابنه. يفلت له الحبل، وفي لحظة غضب يقلب الدنيا على رأسه.

أمر نصير ابنه بالذهاب إلى النوم، وقام الولد.

قدمت هداياي لهما وقدم لي نصير كأس ويسكي، بينما ذهبت أحلام إلى المطبخ.

انتقل بي الحديث مع نصير إلى أحوال الرفاق غير المشجعة في باريس. وقلت له في النهاية:

ـ إنها سيئة. تصور أنهم لم يطوّروا أي مشروع تجاري بالنقود التي لديهم لتشغيل الرفاق المنفيين كما فعل غيرهم.

ـ أعلم هذا. قال نصير. هم هكذا. طرحت عليهم أكثر من مرة أن أشغّل لهم بعض الأموال هنا، ولم يردّوا علي. كيف هي علاقتك بأبو أحمد.

ـ جيدة. قلت، وقال نصير: نعم سمعت أنه يثق بك. اسمع هاني. لدي مشروع يعود عليهم بالنفع، بسيط ودورته شهران فقط. إنها صفقة ورق. أنت تعلم. نحن الناشرون لا نعتمد فقط على طبع الكتب. غطيت أنا الجزء الأكبر من الصفقة، وأحتاج إلى خمسين ألف دولار. لو وافق أبو أحمد على إرسالها لي فسوف تعود عليهم بمثلها بعد شهرين. ما رأيك؟.

أحرجني سؤاله، وتذكرت تحذير محمود لي من الدخول في مشاريع نصير المالية. قلت له أنه ليست لدي خبرة في هذه الأمور، وطلبت منه أن يطرح بنفسه المشروع على أبو أحمد.

أخذ نصير رشفة كبيرة من كأسه، وقال:

ــ أنت تعلم مدى خوفهم، وخبرت بنفسك ترددهم، طرحت عليهم في السابق عدة مشاريع ولم يردوا لي خبراً حتى. قلت ربما ساعدتني أنت في إقناع أبو أحمد بسهولة وأمان الصفقة. إنه يثق برأيك.

أحرجت أكثر. ماذا علي أن أقول. شغلت نفسي قليلاً بكأسي وأنقذني سِرَاج بدخوله وسؤاله المفاجئ لي.

ــ عمو. فرنسا فيها بحر مثل قبرص؟

قام نصير مهدداً الولد، وطالباً منه للمرة الأخيرة أن يذهب إلى النوم وإلا فإنه سيعاقب، وعاد ضاحكاً.

ــ هذه حالنا معه. من يصدق أن هذا الحجم لولد في الحادية عشرة فقط. وضحكت أنا أيضاً. قلت له إنني بدأت أصدق، وضحك معي ضحكة قصيرة منتظراً جوابي.

حافظت على جو المرح. قلت لنصير بعد أن قررت بلحظة عدم التورط..

ــ لماذا لا تطلب مني ديوان شعر تطبعه، بدلاً من إشغالي بالتجارة!؟.

ــ سأطبع لك ما تريد، لكن دعني أموّل نفسي بهذه الصفقة.. قال وخشيت أن يساء فهمي فقلت بسرعة..

ــ لا. لا. أنت تعلم أنني تركت الشعر. قصدت أنني لا أفهم بالصفقات.

ــ لن تحتاج إلى الدخول بهذا. فقط أريدك أن تقنعه؟

ــ بماذا!؟ كيف أقنعه بأمر أنا نفسي لا أفهمه.

ــ إنه لا يحتاج إلى فهم. لكن انتظر، لقد فهمتك. سأعطيك التفاصيل غداً في المكتب، ونرسل بعدها فاكس لأبو أحمد. قال وسكت، ودخلت أحلام قائلة أن العشاء جاهز.

ــ ما هذا العزّ. كان علي أن لا أتعشى في الطائرة لو أعلمتموني بذلك. كبة بلدية. متبل. فتوّش. دجاج بالفرن. دجاج بالرز والبازلاء. ماذا تظنوني؟ قلت مبدياً إعجابي وشكري على الوليمة.

ــ أنت نحيف زيادة، ويبدو أن أحلام بدأت تفكر بذلك منذ الآن. قال نصير وضحكت.

ــ لا أعرف إن كنت بحاجة إلى شفقتكن عليّ، زوجة محمود في باريس، وأنت هنا الآن. لست خروفاً لديكن، وابتسمت أحلام..

ــ صحتك جيدة لكن يلزمك القليل.

ــ ليس القليل الذي لدى نصير، قلت وأجابت أحلام ضاحكة..

ــ لا عليك من نصير. إنه حالة خاصة، ولا تظن أنه أكلي، إنها قلة الحركة.

ــ لكنه يفكر ببرنامج ركض، في الطريق قال لي ذلك وقلت أنني سأشترك فيه معه للتشجيع.

ــ عليك أن تبدأ به من الآن وإلا فإنه سيتبخر مثل غيره من البرامج.. قالت أحلام ضاحكة. وضحك نصير لمداعبات زوجته له.

ــ حملك عليّ. غداً صباحاً على الأقل.. قال نصير وثبت أنا الموعد قلت أنني سأكون جاهزاً في التاسعة. ما رأيك، وضحكت أحلام مصححة لنا الموعد.

ــ في التاسعة ستكونان في المكتب. الموعد هو السابعة. ووعدنا بالالتزام.

دخل سِرَاج أمام مفاجأتي وقال أنه جائع. وضحك نصير، وغضبت أمه..

ــ لقد تعشى قبل ساعة انظر كيف أصبح من كثرة الأكل. أنت تفسده.. وجهت كلامها لنصير.

ـ يلاّ. هذا اليوم استثنائي بوجود عمو هاني. دعيه.. لكنه سيذهب بعد العشاء مباشرة إلى النوم، ثم أنه سيمسح بقايا الأكل من الثلاجة في جميع الأحوال ونحن نيام، فليمسحها الآن.. قال نصير ضاحكاً ووافق سِرَاج وجلس لمشاركتنا المائدة ورضيت أحلام ضاحكة.

مع القهوة بعد العشاء وعلى الأرائك الأنيقة الحافلة بالذوق في الصالة، طرح نصير الموضوع المحبب إلى قلبه، الحرب. سألني..

ـ ما رأي الرفاق في باريس، هل ستشعل أمريكا الحرب؟.. قال وجلست أحلام منصتة. تنفست بعمق " الحرب "!؟ ليس لي من مفر.

ـ إنهم شبه واثقين من عدم قدرة أمريكا على المجازفة، ويراهنون على موقف أوروبا، وفرنسا بشكل خاص.. قلت بإيجاز.

ـ أعتقد أن هذا صحيح. إذا أضفنا البرنامج الكيميائي والنووي الذي كان ينفّذ في العراق. يبدو أن الأمريكيين يخشون خسارة لن يتحملوا نتائجها الآن. ما رأيك أنت؟ قال نصير.

ـ أنا أتمنى أن تكون هذه هي الحقيقة ، لأنني أشعر أن هناك لعبة تدار على صعيد الإعلام، وهذه اللعبة تخيفني.. الأوروبيون مثلهم مثل الأمريكان ينقرون على وترين، أولاً تشبيه العراق بألمانيا النازية التي يقودها ديكتاتور خطر أحمق إلى الهلاك مع تضخيم حجم القوة التي يمتلكها، وثانياً يذكرون شعوبهم بصلاح الدين الذي يكرهونه وكأنها تهيئة لحرب صليبية، وليتك ترى الإعلانات في مترو باريس.

ـ هل تعني أنهم يهيئون إعلامياً للحرب؟ ألا يكون ذلك تذكيراً بمخاطر الحرب من أجل تفادي خوضها؟.. قال نصير.

ـ لا أعرف، ولا أستطيع أن أستنتج شيئاً من التحليل، لكن حدسي يقول أنهم يهيئون للحرب وواقع الحشود الهائلة التي يضعونها في الخليج يخيفني أكثر.

ـ أنا أرى العكس، وأتفق مع تحليل الشباب لأنه في النهاية هناك خطوط حمراء لا تستطيع أميركا تجاوزها وأعني الاتحاد السوفييتي الذي لمّح أنه لن يسمح بوجود هذه القوة على ما يعتبره حدوده الجنوبية.

ـ ليت هذا هو الواقع، غورباتشوف يفكر بالبيت الأوروبي كحل لمشاكل الاتحاد السوفييتي، وسيلقي بكل العالم الثالث في فم أميركا.

ـ لا تتحدث بهذا التشاؤم. إن ما نتحدث عنه هو حرب عالمية ليس سهلاً خوضها من أي كان.

ـ وما نتحدث عنه مصالح جوهرية وخطوط مقدسة وضعتها الإمبريالية الغربية لكي لا تمس من أي كان.. قلت ذلك بحدة متورطاً في إيضاح ضيقي، ودخل سِرَاج الذي كان يستمع مختبئاً في الممر..

ـ يعني عمو. أميركا لن تحاربنا. صمتُّ مذهولاً لكن مرتاحاً لهذا الإنقاذ الذي قد يغلق نقاش الحرب، وقام نصير غاضباً ومهدداً إياه بالعقاب.

ـ لقد تجاوزت حدودك. وعاد ضاحكاً بعد أن هرب سِرَاج وأغلق على نفسه الباب.

على باب بيت نصير الجميل المستقل الذي يدعونه في قبرص " هاوس" لتمييزه عن الشقة في الأبنية استقبلت أول صباح لي في ليماسول. صباح جميل مشبع بالسحر والبرودة التي تميز سواحل المتوسط.

استنشقت الهواء بعمق وقمت ببعض التمارين السويدية في انتظار نصير الذي خرج مبدياً إعجابه بثيابي الرياضية، وانحنى لربط حذائه الرياضي. هيا بنا الآن. قال. وبدأنا نهرول في اتجاه الشارع الرئيسي، الذي أخذنا إلى اليمين باتجاه البحر.

ــ عشر دقائق من الهرولة، ونصل إلى الشاطئ. قال نصير منحدراً ومسرعاً أكثر.

ــ سنصله بعد دقيقتين على هذا الركض، أرجو أن تبطئ، قلت، ولم يرد علي مضاعفاً سرعته وسابقاً إياي. ماذا يريد أن يثبت!.. قلت في نفسي وحافظت على سرعتي.

وصلت إلى الشاطئ. بعد أن غاب عني نصير. وهاهو ذا منحن يلهث، ويتنفس بصعوبة.

وقفت ضاحكاً: تريد أن تختصر البرنامج في يوم واحد. قلت ولم يستطع أن يجيبني. طلبت منه أن يتمدد على العشب، ويفتح ذراعيه بهدوء ليتنفس. تركته يرتاح واتجهت صوب البحر. صوبك.

هاهو ذا أنت أخيراً.. قلت وأنا أنظر إليك عبر المدى المفتوح، كما أنظر إليك الآن. بنظرة الحزن نفسها. بموجة الحنين التي تصادم موجك كي تمتزج فيه. بذاكرتي التي تتداح هكذا مدى شاسعاً من رمل.

ــ كم يبعد البلد عنا؟.. سألت نصير دون أن أزيح نظراتي عنك.

ــ ثمانون ميلاً فقط.. قال وهو يتنهد. وأردف.. هل اشتقت إلى حلب؟.

حلب؟ ثمانون ميلاً فقط من الأزرق اللامتناهي. الأزرق الذي أطويه أمامي كما سجادة لأصل إلى ترابك. لأصل وأخلع نعليّ بهدوء على خط ترابك. هل قال نصير حلب؟!..

قالت نورا ضاحكة، وهي تجلس بيني وبين زوجها في المطعم الأنيق الذي دعتنا فيه لقضاء حفلة رأس السنة في حلب.. انظر ماذا أحضرت لك. لا تقل لي إنها ليست جميلة. إن فتنتها ستقتل عبد الواحد الذي بدأ بالحركة. انظر إليه، سوف يدعوها للرقص. عليك أن تقطع عليه الطريق. أنا أريدها لك. قالت نورا مشيرة بعينيها إلى أخت صديقتها التي دعتها معها للحفلة من أجلي.

ــ قلتِ لي أن اسمها....

ــ فريال. كم مرة أعيد عليك الاسم.

ــ فريال! هل أنت جادة لربطي بفتاة تحمل هذا الاسم. إنه يذكرني بالرياضيات.. قلت مازحاً وضحكت نورا.

ــ سأقوم للرقص مع يوسف، فلا تضيع الفرصة. قم بدعوتها فقط. إنها تنتظر.. قالت نورا وهي تقوم ممسكة بيد زوجها. وقمت لأجلس في المقعد الشاغر بجانب رفيقي مرزوق الذي أحسست من تجرعه للويسكي بهذه الدفعات أنه يعاني من خذلان أخت محسن له.. لعنتُ البورجوازية وتصرفاتها.. لقد شجّعه هذا البورجوازي المهووس باليسار على التفكير بأخته، وشجعته الفتاة بالحضور إلى مطعم الكلّية للقائه. لكنّ ابنة البورجوازية خضعت كلياً لمنع أبيها وأمها البات لها من التفكير فيه، ولم تعد ترد نهائياً على مكالماته بينما تجاهل محسن حال رفيقه الذي قتله الهيام.

ـ هل تعلم أين تكون جميلة الآن!؟.. سألته وأنا أحتسي جرعة من كأسي.

ـ مع خطيبها بالتأكيد. لماذا تريد أن تعرف؟

ـ لألعن "مرض اليسارية الطفولي" لدى هذا البورجوازي التافه محسن؟.. قلت وضحك مرزوق الذي تذكّر إطلاقي هذا اللقب على محسن عندما عمل لاستصدار قرار فرعية الجامعة ببعدي عن جميلة، وثورة محسن الذي انتفض من مقعده لضربي على سخريتي.

ـ ما زلت متأثراً من وقوفنا ضدك؟ قال مرزوق محاولاً الاعتذار.

ـ لا. لكن أنت تعلم.. جراحات الحب تبقى حتى لو اندملت. أفكّر أن أحرق هذه الجراحات نهائياً بالاستمرار في الحياة، والحب.. قلت وأنا أشير بعينيّ إلى فريال التي بدأت تستجيب لدعابات عبد الواحد. وانفجر مرزوق بالضحك عالياً.

ـ أنت لا تريد إعادة الكرّة مع عبد الواحد. وأنا لن أراهنك. ابتعد عن هذا هاني.. قال مرزوق وهو لايزال يضحك.

ـ كنت سأخذلك، لكن يبدو أن الأوان فات.. قلت ضاحكاً وأنا أنظر إلى عبد الواحد الذي مرّ علي بنظرة سريعة وهو يقود الفتاة للرقص.

انضم إلينا معاذ وسحر حين شعرا بوحدتنا. نظرتُ إليهما بكامل السعادة. لقد وجد معاذ فتاته أخيراً. يالهذا الزوج الذي يشع بالنقاء.

ـ أراد هاني طلب الفتاة للرقص، قال مرزوق ضاحكاً وانفجر معاذ بالضحك. لخبط شعري بيده، قائلاً لي أنني لن أكفّ عن شقاواتي. واستفسرت سحر عمّا يجري.

ـ إنهما يظنان أنني سأنافس عبد الواحد على فتاته، لكنني أقرّ بعجزي. انظري إليهما. قلت مشيراً إلى الزوج الذي يتمايل بانسجام أمامنا.

ـ هل تريد الرقص. قالت سحر مواسية بلطفها إياي.

ـ لا. أنت سترقصين مع هذا الذي لم يصدّق أنه وجدك، وأنا سأقدم استعراضاً لمرزوق لن يستطيع نسيانه. قلت وأنا أقوم لطلب يد أخت فريال التي كانت تبادلني اختلاس النظر، للرقص. وبدأ مرزوق بالضحك من تصرفي بسعادة.

وضعت يدي على خصر الفتاة الرخص الذي دفعني إلى الضغط قليلاً عليه وتطويقها مع اقتراب أنفاسي من عنقها. أبعدت شعرها الأسود المسترسل بظاهر يدي وأنا ألامس عنقها، وأقرب جسدي من جسدها.

ـ أنا متزوجة.. قالت هامسة وهي تستجيب بلطف لحركاتي.

ـ وأنا غير متزوج. قلت مداعباً وأنا أقرب شفتي من عنقها.

ـ لهذا سنتصرف بلطف، قالت محافظة على وضعها وهي تتمايل بلطف مع إيقاع جسدي.

ـ نعم. وسنكمل لطفنا برقصك مع مرزوق.. قلت متآمراً معها وأنا أنظر إلى مرزوق الذي استجاب لإشارتي بدعوته. وطلب مني أن أسلّمه الفتاة اللطيفة التي شاركتنا تعاستنا بفيض نادر من الحنان.

تأملت رفيقي معاذ سعيداً بفيض الحنان الذي تغمره به رفيقته. أحسست بسعادة غامرة لسعادته. أي نقاء يشع من هذا التلاحم . أي نقاء يشع من هذا الحب. أي نقاء يشع من هذه الألوهة. غمرتني سعادة رفيقي، وغرقت في حضن شاسع من الأمومة رأيت فيه وجه أمي ووجه شجرة المشمش إياها وهي تقترب مني، تمسك بيدي وتأخذني لأرقص معها بهدوء وحنان قال لي فيه حنانها.. لن يغمرك غيري بما تحتاج من حنان.

ـ كم يبعد البلد عنا؟.. أعدت السؤال على نصير، ولم أسمع جواباً. نظرت إليه. كان نائماً باستسلام مثل طفل بين أيدي شمس المتوسط. شمسك الحانية مثل أم.

يا إلهي.. كم أحسد نصير على هذه الطمأنينة. ليتني أستطيع الهجوع هكذا بين أحضان شمسك. ليتني أستطيع الإحساس هكذا وأنا ممدد بحضن ترابك. ليتني أستطيع استعادة طمأنينة الولد الذي كنته. الولد الذي وقف مرة أمام الفرات مواجهاً هديره الصاخب من على الجسر ليتحد فيه، ولينقسم في اتحاده إلى ولدين شقيين ينبض في وجه أحدهما أبداً نبع طفولة يجري ماء صافياً لا يتوقف رنين ضحكاته. الولد الذي انفلت عن جدوله وجرى خلف فراشة عابثة دون أن يسأل عن الطلقة المخبأة لصدره بين أشواك السور. الولد الذي سقط أمام جدوله مضرجاً بالدم. دم قال عنه أنه ماء الورد، لكنه ماء الورد الذي انتزع قلبه، ووضع مكانه حجراً وأفقده نعمة البكاء.. يا إلهي ليتني فقط أستطيع استعادة طمأنينة الولد الذي كنته، ليتني أستطيع إبعاد صورة وجه الطفل الذي كان معاذ عن ذاكرتي وأبكي.

أفكّ لفة الجرائد من على التمثال فوق المكتب. أرمي كبكوبة الأوراق في السلة على يساري تحت ساعده، وأنظر إلى سكرتيرة المكتب روزالين. إنها لم ترني. هذا جيد. أقوم من مقعدي. أقف على باب مكتبي وكأنني ضيف سأدخله. أين أضع التمثال. أتملاه من بعيد. هذا هو ديك الصباح. ديك شهرزاد التي ستسكت عن الكلام المباح وتضعني أمام تحدي طلاقة القول أو الخرس أمام قضبان ما يتاح، في مجلتي الجديدة...

أنقّل بصري في الأرجاء والزوايا، ليس هناك أفضل من ساعد المكتب على يساري بجانب التلفون. أنظر إلى روزالين التي أحس أنها تراقبني دون أن تشعرني بذلك. سوف تظن أنني مجنون. لا بأس. أعود إلى مكتبي وأضع ديكي في المكان الذي حددته له. هذا جيد. يدخل سكرتير التحرير حسان ويضع أمامي مسودة المواد..

ـ هذا بريد القراء.. يقول بإيجاز وعجلة.

ـ شكراً.. أقول له. تفضل بالجلوس.

ـ لدي عمل. وقد حان موعد قدوم الرئيسة.. يقول.

ـ هل يعجبك وضع الديك هنا. أسأله قبل أن يمضي وألاحظ ضيقه بالسؤال. يبدو أنني أخطأت، ماذا أفعل لغبائي. لقد كان مكتبه. أشعر بالندم على سوء تصرفي. وأحاول تعويض ذلك بدعوته مرة أخرى للجلوس.

ـ إنه جيد.. يقول قاطعاً محاولتي ويمضي.

كيف أستطيع تجاوز ذلك. أنظر إلى روزالين، برج المراقبة في المجلة. إنها تبدو لطيفة وطيبة لكنني لم أحب انفتاح مكتبها على مكتبي بهذا الزجاج. يدخل ساعي البريد إلى مكتبها ويمازحها. الجميع يشعرون بالراحة معها ويمازحونها. توقّع له الأوراق وتبدأ بتقليب الرسائل القادمة.

أعود إلى بريد القراء منكباً على تحرير المادة ومستغرقاً في التصحيحات. تدخل روزالين إلى مكتبي، ويلفحني عطرها المميز.

ـ رسالة من باريس.. تقول وتناولني الرسالة. إنها من محمود. هل أستطيع مناداتك روزا. أقول بكامل انشراحي وسعادتي، وتضحك موافقة. أفتح الرسالة: "هيبي أيها الرجل. حلمك علينا. مكتب جميل ونافذة على البحر!! رحم الله أيام الشارل ميشيل وناتاشا والمونوبريه في باريس". أضحك متخيلاً وجه محمود الجميل الساخر وهو يستغرب وقوفي مع جارتي الجميلة ناتاشا بعد يومين فقط من إقامتي في البيت. "أرجو أن لا يفجع سعادتك العنب الحامض". أضحك تاركاً نفسي على سجيتها دون أن أسأل عن نظرات روزا التي تراقبني وتبتسم لسعادتي. "العنب الحامض" هذا ما تراه إذن من مستقبلي في قبرص يا محمود! لن تكف سخريتك عن قتلي وإسعادي بهذا القتل. كم أحس بحاجتي إلى مشاطرتك السعادة التي أنا فيها. ماذا تفعل في هذه اللحظة. أنظر إلى روزا. إنها وديعة. وديعة وطيبة لا تشعرك بوجودها رغم إحساسك أنها تراقب كل شيء في المجلة. أتابع القراءة. "سألتني عنك فنانة تشكيلية قادمة من كندا تدعى ماريان، وقلت لها أنك في قبرص. أردت أن أعطيها عنوانك، لكنها ترددت في أخذه واستغربت هذا التصرف. كيف تشرح لي هذا التصرف منها". أقرأ وتدمع عيناي. تعود صورة ماريان إلى ذاكرتي حية وأخاذة وهي ترفع كنزتها لتريني بطنها، أرى بطنها الحليبي الضامر يقترب مني ويتسع. أرى نجمة سرّتها تتسع وتضمني لأغرق فيها. أغرق في كوني الشاسع. أغرق لأبتعد قليلاً عن كوني وأرى ماريان حية وكاملة ويأخذ بطنها شكل بطن نسائها الحاملات. أرى ماريان كاملة بطفلها المكور في بطنها. أرى وجهها الهادئ الساكن بنشوة الرضا بعد الحب وتدمع عيناي. أدير وجهي كي لاتحس بي روزا.. أتشاغل بترتيب وضع ديكي، وأحس بروزا

تراقبني. أحس بقلقها الذي لا تريد إظهاره لي. ترفع سماعة التلفون وتنظر إلي. تضع السماعة وتتجه إلى مكتب الإخراج. تغيب قليلاً وتعود لتدخل إلى مكتبي. اجتماع خاص لمناقشة غلاف العدد في غرفة الإخراج بعد ربع ساعة بالضبط.. تقول وهي تنظر إلى ساعتها متشاغلة عن النظر إلي لكن فضولها يغلبها وتنظر في عيني. أنظر بحيرة اللوز اللطيفة القلقة في عينيها وأهز رأسي دون أن تفارق عيني عينيها. كم تشبه عيون ماريان. أبتسم لها فتبتسم وهي تعطيني ظهرها.

تطفئ يد حسان النور. الظلام يسود غرفة الإخراج. أختلس نظرة إلى شبح عائشة المنتصب بجانب محمد ويثير طولها الشبحي بين عماد المستغرق في وضع السلايدات بآلة الرشق وزوجها الساهم النظر في الشاشة على الحائط إعجابي. أحس بها جانب محمد وكأنها عشتار التي تقود ابنها تموز داخل أنفاق العالم السفلي للخروج إلى إشراقة الحياة.. يا لهذه المرأة الهائلة الجمال. أفكر بكلمة هائلة التي تليق بطولها. تتحرك لتأخذ مكانها وسطنا، وأحس بها كاهنة أسطورية تقود مجموعة الرجال الخونة لجنسهم الذكوري وهم يشحذون الأسلحة لخوض معركة الأنوثة، وأشعر بالرضا لهذه الخيانة. أحس أنها تنظر إلي خلل الظلام وتستمتع بمراقبتي لها. يرتفع صوت عماد.. سأبدأ العرض.

ـــ طيب.. تجيبه عائشة. وتبدأ الصور بالانسفاح على وجه الشاشة، مضيئة وجوهنا وراشقة عليها طابع الوجوم.

على خلفية حائط رمادي كابٍ قبعت عليه صورة الرئيس المصري حسني مبارك تقف امرأة مذعورة، تخفي ذعرها بوضع يدها على فمها لإطلاق زغرودة فرح، وبجانبها يقف رجل يسدد سبابته في حركة تهديد إلى طفلة في السادسة اجتاح وجهها الذعر وهي مقيدة بين يدي رجل ثان فتح ساقيها على منتهاهما لتبرز زهرتها أمام الرجل الأول... الرجل الأول في صورة أخرى يمسك مشرطاً موجهاً إلى زهرة الفتاة التي ضربتها صاعقة من ذعر... الرجل نفسه في صورة ثالثة بين فتاة في الثانية عشرة وأمها وهو يحاول تعرية ساقي الفتاة التي رفعت سبابة التلميذة أمام الأستاذ طلباً للرحمة خشية العقاب، والرجل الثاني منشغل بفتاة أخرى محاصرة بينه وبين امرأتين ترتديان الأسود لجرها مثل خروف إلى المذبح. الأم الأولى في صورة رابعة تحمل طفلتها المكفنة بالأبيض والمغمى عليها من

هول إعصار الختان الذي اجتاح جسدها وروحها... الرجل الثاني يقف في صورة خامسة وهو يحمل بين أصابعه الموجهة إلى الكاميرا قطعة لحم صغيرة على منديل أبيض اجتثها من زهرة الفتاة...

يقشعر جسدي من الذعر. أحس بوجوم الجميع أمام الشاشة البيضاء التي بقيت بيضاء لفترة أمام صمتنا.

ــ إنه مسلخ بشري.. أقول.

ــ ما العنوان الذي اخترته له؟.. تسألني عائشة وهي تخفي ما أصابها من ذعر.

ــ "وإذا المختونة سئلت/ إعادة إنتاج الوأد".. أقول وتصمت عائشة مقلّبة في رأسها العنوان.

ــ هل يشكل أية حساسية بمقابلته مع الآية الكريمة "وإذا الموؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت".

ــ لا أعتقد، خاصة وأن الموضوع يثبت أن الختان هو أحد تمظهرات الوأد.

ــ حسناً دعونا نعيد الصور الآن مع التوقف لاختيار صورة الغلاف. العنوان أعجبني، وسنناقش الموضوعات المساندة في مكتبي بعد الاختيار.. تقول ويبدأ عماد بتحريك الآلة لتتسفح صور المسلخ مرة ثانية أمامنا على الشاشة.

ــ توقف يا عماد.. تقول عائشة. كبّر صورة الرجل. حسناً دعنا نكبّر صورة الفتاة. ما رأيكم.. تقول.

ــ إنها الأنسب.. أرد عليها ويبدأ وجه الفتاة المذبوح من الذعر بالاقتراب منا.

ــ توقف. ما رأيك يا عماد.. تقول عائشة.

ـــ دعيني أصغّرها قليلاً.. يقول وينحسر وجه الفتاة ليظهر جزء من وجه الجلاد مع سبابة يده الناهرة للفتاة.

ـــ هذه هي. توقف. ما رأيك هاني. ما رأيك يا محمد.. تقول عائشة.

ـــ بالضبط.. أقول.

ـــ اتفقنا.. تقول عائشة، ويلمع النور.

ـ ماذا لديك من موضوعات مساندة للغلاف؟.. تسألني عائشة وهي تنظر إلى محمد كي يتابع الحديث.

ـ هناك موضوع حول قانون الأحوال الشخصية في المغرب، يحلل ويضع إصبعه على مواطن الظلم المقنوَن والمشرّع له على المرأة. وهناك موضوع جريء مترجم حول جذور خوف الرجل من المرأة، ويعرض فكرة جريئة حول الشك البيولوجي في أن عضو الرجل ما هو إلا بظر متضخم منتصب، لإثبات أن الأنثى هي الأصل. وهناك موضوع عن الحرب الأولى بين الرجل والمرأة وكيف دمّرت الذكورية عالم الأنوثة ورموز الأم الكبرى ووظفت الرموز التي لم تستطع تدميرها لصالح الإيديولوجيا الذكورية. وهناك موضوع أعتقد أننا لن نستطيع نشره حول آثار الديانات الأمومية في الديانة الإسلامية...

ـ إنه موضوع جيد. لم لا نستطيع نشره؟.. تسألني عائشة مهتمة بالموضوع. وتعود صورة ماريان هادئة وسادرة في انتشائها، مختلطة بوجه نورا وموشاة برموزها إلى ذاكرتي.

ـ المشكلة في هذا الموضوع أنه يفتقد إلى الإثباتات والمراجع، رغم كونه يحلل ويخالف بجرأة نادرة قضية تم الاتفاق حولها من قبل المؤرخين هي صورة إله الإسلام، وينفذ إلى رأي يخالف الآراء المعتادة القائلة أن إله الإسلام مجرّد وغير خاضع للتشخيص، "ليس كمثله شيء" إلى رأي عجيب بأن إله النبي محمد هو في الجوهر صورة الوحدة المبدعة للذكر والأنثى إن لم يكن الأنثى نفسها.. أقول وتضحك عائشة.

ـ وكيف توصل كاتبه إلى هذا الرأي.. تسألني عائشة.

ـ إضافة إلى تعايش النبي محمد مع المسيحية الأولى التي يعتقد أنها أمومية كما يقول، ومحاولات النبي منح المرأة مساواة كاملة مع الرجل

لولا معارضة صحابته الذكور حوله، فإن النبي محمد ترك النص مفتوحاً لزمن آخر يمنح المرأة الإنصاف، مع قبوله لذريعة من حوله والقائلة بأن تثبيت الدعوة ومشروع بناء الدولة الإسلامية لا يمكن أن يتم مع فرض النبي للمساواة على بشر تعودوا اعتبار الأنثى سلعةً تورّث مع المتاع.. ومن تتبعه لرموز الإلهة الأنثى في الديانة الإسلامية، ومنها كما يذكر اعتماد النبي التقويم القمري القائم على دورة الأنثى الشهرية، وعلى تقديس نور القمر حيث الإلهة الأمومية هي سيدة القمر، وطلبه من المسلمين أخذ نصف دينهم من امرأة هي عائشة "الحميراء"، إضافة إلى قوله صراحة في النص القرآني "وليس الذكر كالأنثى" كتفضيل منه للأنثى.. يخلص الكاتب إلى أن صورة الإله في الوعي الباطن للنبي محمد هي أنثى، ويدعم رأيه أيضاً بالقول أن طلب النبي من المرأة التي كانت تمارس الختان أن تخفض أي تترفق بالمختونة يصب في باب أسلوبه بمناصرة النسوية عن طريق فتح النص عسى أن يأتي الزمن الذي يزول فيه خوف الذكور من عضو الأنثى فيكفّون عن اجتثاث صواعقه وتعود فيه لعضو الأنثى قداسته، ويورد رأياً غريباً يقول فيه إنه لا يستغرب أن تكون عبادة الفرج لدى بعض الفرق الباطنية في الإسلام هي تعبير عن عودة هذا التقديس.. أقول وتنفجر عائشة بالضحك...

ــ إنها آراء غريبة. هل هي مسندة بمراجع!؟

ــ لا، وأعتقد أننا لن نستطيع نشر كلام حساس كهذا ولا تسنده المراجع؟

ــ أوافقك هاني فنحن لن نعرف أين سيعلقوننا إذا نشرنا هذا الكلام. هل أنت مع رأينا بعدم نشره يامحمد.. تقول عائشة موجهة كلامها إلى زوجها الذي يضحك وهي لا تزال تضحك.

أدخل مكتبي. أحيي ديك شهرزادي سعيداً. أطبطب على عرفه الأحمر. أضع الأزهار التي قطفتها بطريقي في المزهرية. أجلس وأنظر إلى روزا التي تراقبني ضاحكة وسعيدة. يالهناءة هذا الصباح. أبدأ بمراجعة المواد أمامي. ألاحظ خروج حسان بصحبة المدير الفني عماد من مكتب محمد. أنظر إلى روزا. إنها تنظر إلي بقلق. أبتسم لها وتردّ على ابتسامتي بعذوبة. أحمل مسودة المواد وأدخل مكتب عماد وحسان. أسلّم بانشراح غير أني أفاجأ بارتباكهما من دخولي.

ــ اذكر القط.. أقول مازحاً، ويضحكان بإحراج أحسّ فيه أنهما كانا فعلاً يتحدثان عني. يبدو أن عليّ أن لا أبقى. حسناً. أعطي الأوراق لحسان. إنها جاهزة للطباعة. أقول بلطف وأخرج.

ألاحظ حركة محمد غير الطبيعية وهو يدخل ويخرج بانشغال من مكتب عائشة. علي أن أراه لمناقشة افتتاحية العدد. متى يفرغ من انشغاله. أدخل مكتبي وأحس أنني ملاحق مرة أخرى بنظرات روزا. ثمة أمرٌ يحدث في هذه المجلة ولا أستطيع اكتشافه ويعكّر هدوئي!. لماذا لا تتصف السعادة بالكمال!؟. أقلّب صفحات العدد السابق من شهرزاد بدون اهتمام، وأرى روزا تتجه إلى مكتب عائشة وتخرج منه إلى مكتب عماد وحسان قبل أن تدخل بعد ذلك مكتبي.

ــ اجتماع مع رئيسة التحرير.. تقول وأنظر إليها. أنظر هذه المرة في عينيها مباشرة كي أرى ما تخفيه. إنهما وادعتان جميلتان وتنسياني السبب الذي نظرت إليهما من أجله.

ــ كن حذراً، وحافظ على هدوئك.. تقول وتخرج. لماذا عليّ أن أكون حذراً. ولماذا تحذرني روزا؟. إن هذه الفتاة تخيفني. أدخل غرفة عائشة. الجلسة مرتبة. عماد وحسان يجلسان في طرف، ومحمد في الطرف

الآخر، وثمة كرسي بينهما مخصص لي أمام مكتب عائشة... هذا هو الاجتماع الثاني لي في المجلة بوجود عماد وحسان. أتوجس شراً لا أستطيع تحديد مصدره. ألاحظ أوراق بريد القراء أمام عائشة، ويزداد توجسي حدة غير أني أحافظ على هدوئي.

ــ لا أحد ينكر التحسن الذي طرأ على المجلة مؤخراً، لكنه لم يصل للدرجة المرجوة على جميع الأصعدة.. تقول عائشة بأسلوب رجل أعمال لا يريد إسعاد موظفيه بذكر نجاح الإنجاز خشية من أن يكبروا عليه بهذا، وتستطرد.. لا أريد مناقشة إلا ما يتعلق بجانب التصحيح في المجلة رغم أن هناك ملاحظات قدمها لي أحدهم حول الأسلوب. هناك شكوى من عماد على هانيبال تتعلق أولاً بإدارته للعمل حيث يقول عماد أن هانيبال متكبر ولا يسمع من حسان أي رأي حول مواضيع العمل، وثانياً...

أنظر إلى وجه حسان الذي استحال إلى لون الشمع. أحاول أن أضغط على أعصابي كي لا تنفجر. لقد صعقتني المفاجأة.. وتستمر عائشة.. هناك قائمة بأخطاء نحوية مرّت على هاني في التصحيح... أنظر إلى وجه حسان الذي اصفر من كشف عائشة للأوراق أمامي، ويتوقف عقلي عن التفكير. الجميع أمامي هلام ولا صوت. أضغط على نفسي كي أعود، ويعيدني صوت عماد بصاعقة أخرى.

ــ الصفّيفة يشكون أيضاً من تعبهم بصف بريد القراء ويقولون أنه غير مصحح تقريباً... أتوقف عن التنفس. هذا هو الموضوع إذاً. حبل مشنقة أعده لي عماد بمساعدة حسان، وهاهو يضع فيه عنقي.

أستعيد أنفاسي وتتحفز كل خلاياي للمقاومة. أنظر إلى عائشة بهدوء وصمت.

ــ هذا ما فهمته من محمد الذي نقل إليّ شكوى عماد، تقول عائشة محرجة مني، وتبتسم..

ـ هل تسمحين لي برؤية القائمة؟.. أقول ضاحكاً.

أنظر إلى القائمة وإلى حسان، ثم إلى عماد. إن حسان نفسه شكا لي منذ أيام من سيطرة عماد، وتعهدت له بمعالجة الأمر. نعم، سأفي بعهدي لك يا حسان، وسأعالج الوضع معك يا عماد، وبجانبك هذا الحليف الذي يكره سيطرتك.

تضغط عائشة على زر الجرس، وتدخل مدبّرة المطبخ نينا. ماذا تشربون تقول عائشة محاولة تلطيف الجو الذي تسمم.

ـ قهوة. نعم قهوة. أقول وأنا أحاول استعادة هدوئي.

أعيد القائمة ضاحكاً إلى عائشة بعد أن رصدت ماهية أخطائي واطمأن قلبي أنها لا شيء تقريباً. ألاحظ ضيق خصمي من ضحكتي. لن تتمكن من إتمام عملية القتل بسهولة يا عماد بل لن تتمكن على الإطلاق. هاهو ذا الطفل في داخلي يجمع أوراقه بسرعة، ويخرج شيطاناً قادراً على الإيذاء.

ـ أشكر مدام عائشة.. أقول.. على تنبيهي بهذا الكشف عن كيفية جريان الأمور في المجلة لكوني جديداً عليها، كما أشكرها على شفافية التعامل المطلوبة في مجلة من نوعية شهرزاد. في البداية أنا أعتذر من حسّان عن شعوره بأنني متكبر على تقبل اقتراحاته حول موضوعات المجلة والأسلوب. لقد اقترح حسان علي فعلاً تغيير بعض الأمور التي هي من صلب مهماتي، وكان هذا حديثاً بين صديقين، ولم تسجل كاقتراحات للمجلة، وقدّم لي موضوعاً يعتقد هو أنني أهملته، لكنني في الحقيقة أرجأت نشره بعلم رئيسة التحرير إلى عدد آخر. أقول هذا وأنا أنظر إلى عائشة وأشعر بامتنانها على عدم إحراجها أمام حسان من رفضها لنشر موضوعه الذي حاولت أنا نشره.. وأكمل.. أعتقد أنه كان على صديقي حسان رفع مقترحاته كتابة كي تناقش كمقترحات إذا كان حريصاً عليها وأعتقد أنه كذلك، بدلاً من الحديث فيها مع عماد، لكن على

أية حال ومهما كان التفكير بهذه المقترحات، ومع إيماني بأحقية أي عضو في المجلة بتقديمها فقد كان قبولها أو رفضها يعنيني أنا فقط بالتشاور مع رئيسة التحرير لأنها تتعلق بمهامي أنا كمدير تحرير تنفيذي، فأنا المسؤول عنها ومن سيسأل عن النجاح والفشل في النهاية، ومع ذلك وآسف إن لم يعلم حسان بذلك فقد قمت بعرضها على رئيسة التحرير احتراماً مني لصدورها عن سكرتير التحرير.. أقول وأنا أنظر إلى حسان الذي بدأ ينهار لهذه المعلومات، وأكمل.. إن سوء التفاهم يمكن أن يحدث في أي مجلة، لكن يمكننا تجاوز ذلك بتقديم مقترحاتنا خطياً، وعقد اجتماع لمناقشتها.. وبالنسبة لحساسية صديقي حسان، فأنا أعتذر عن مسّها إذا كنت قد فعلت، لكوني جديداً في المجلة ونحن لا نزال نتعرف على بعضنا.

ـ حسّان يحسّ أنك تسلبه مهماته في العمل، وأنك تريد القيام بكل شيء علماً بأنك تخطئ في مجال هو مجاله، وأعني تصحيح الأخطاء.. يقول عماد بأسلوب اتهامي محاولاً إعادة الأمر إلى ما يريد وخلخلة تماسكي.

ـ القائمة.. أقول ضاحكاً. إن حسان لم ينبّهني إلى أي خطأ نحوي مرّ علي، وكان عليه تنبيهي مباشرة قبل إعداد العدد للطباعة، من أجل توفير الوقت وجهدك في الإعادة علماً بأنني أصحح جميع الأخطاء التي تمرّ عليه هو أمامه مباشرة دون تسجيلها له، ثم إن أخطائي لا تتجاوز ثلاثة أخطاء مكررة وهي تعتبر بحكم الأخطاء الشائعة أمام عدد كامل مؤلف من مائة صفحة كان يحفل قبل أن أستلمه بالمئات... وبالنسبة لسلبي مهمات حسان، أنا لا أعرف فعلاً كيف أسلبه مهماته، ولماذا !؟ أنا أرجو من حسان أن يتحدث بنفسه عن هذا. أقول رامياً الكرة في ملعب حسان الذي مازال يشعر بالإحراج.

ــ أريد أن أقول أن هانيبال لم يترك لي المجال كي أحدثه بأخطائه، وأنتم تلاحظون أنه شديد الثقة بنفسه للدرجة التي لا يسمع بها من الآخرين. لقد استلم مهمة الإشراف على التصحيح والتي كانت منوطة بي دون أن يترك لي رأياً بذلك، علماً بأنني أستطيع القيام بذلك على أكمل وجه ودون السماح لأي خطأ نحوي بالمرور.. يقول حسان، ويبادر عماد بتثبيت هذا كرأي.

ــ إنه أمر معقول أن يستلم حسان مهمة الإشراف على التصحيح كي لا يكون هناك أي حساسية، وكي يتفرغ هانيبال لمهماته كمدير تحرير تنفيذي.

تذهلني حبكة عماد. هذا خصم خطر تستطيع احترامه. لكن ماذا فعلت له لكي يكون خصمي على هذه الصورة!؟ ولماذا يريد تجريدي من مهماتي!؟. لقد أخذت جزءاً من مهماته بإشرافي أيضاً على الأمور الفنية في المجلة لكنني لم أسئ إليه سوى بزيادة تدقيقي.

تنظر إلي عائشة منتظرة رأيي بهذا الاقتراح. وأشعر أنه فخ منصوب ومليء بما لا يخفى من رماح.

ــ ليس عندي أي اعتراض على استلام حسان لمهمة التصحيح بدلاً من إشغال مدير التحرير بها، وهي أصلاً ليست من مهام مدير التحرير، ففي جميع المجلات مدقق لغوي أو مصحح تجاوزناه هنا بما نملك من قدرات لغوية، لكن قضية الإشراف تخلق كثيراً من الإشكاليات، فهي اختصاص مدير التحرير ورئيسة التحرير. وأرى أن الحل العملي مادمنا جميعاً نريد مصلحة المجلة هو أن يستلم حسان وكلّي ثقة بأنه أهل لذلك مسؤولية التصحيح، تحت إشراف مدير التحرير الذي يكون مسؤولاً بدوره أمام رئيسة التحرير، ولا أعتقد أن حسان يعارض ذلك مادامت الغاية في النهاية أن لا تخرج المجلة بأي خطأ.

ــ لكنها مهمة واحدة تتعلق بالتصحيح، وحسان سوف يحس بالمسؤولية أكثر إذا استلم الإشراف.. يقول عماد معيداً الكرة إلى ملعبي.

ــ وما الذي يضير إذا زاد التدقيق بالأخطاء تحت إشراف مدير التحرير التنفيذي الذي تقع عليه مسؤولية الإشراف على جميع مواد العدد. أقول وتهز عائشة رأسها بالموافقة على رأيي، ويسقط في يد عماد. لقد تم الأمر. يجيب حسان أنه موافق، ويتنفس داخلي الصعداء. إنها معركة فعلاً. أحس بانتصاري لكن مع غصة خزي عالقة في حلقي. أحس أنني علقت في معركة وسخة حشرت فيها غصباً عني. يا إلهي ما الذي تضعنا فيه!؟ كم بت أكره هذا المنفى الذي يضع في يدي سيفاً يقتل بدلاً من زهرة تحيي!! يا إلهي.. كيف أستطيع أن أكون نفسي، كيف أقطع حبال جرّي إلى حلبة هذا الصراع الذي أكرهه!؟ كيف أستطيع أن أكتب الجمال الخالص دون هذا الصراع، وأن أكون الشاعر الذي يمثل نقاء الإنسان، كيف لي أن أكون نفسي!؟...

ـــ العمى، يقدم قائمة بأخطائك، إنه لم يدع لك فرصة تثبيت نفسك في المجلة. تقول أحلام منفعلة ومتأثرة على حالي. حسّان يفعل هذا. ماذا جرى للدنيا!؟.

ألتزم صمتي. ينظر إلي نصير دون أن يتخذ موقفاً..

ـــ ليس لدى حسان أي حق في أن يضع يده بيد عماد لكي ينال منك عماد وهو المتضرر أكثر. لقد جرّه اللئيم إلى هذا الموقف.. لكنه ليس من قدم القائمة يقول نصير وينرفزني تحليله.

ـــ انظر يا نصير. لقد أخطأ صديقك حسان، وسواء جره عماد أم لم يجره فقد حاول تدمير عملي دون وازع من ضمير. لقد قدمته لي على أنه شاب يساري نظيف، وأنا لا أستطيع أن أنسى سخريته من لا جدوى ذهاب بعض أصدقائه من "الشغيلة" إلى القتال ضد الإسرائيليين في بيروت. كان يسخر من انتحار أصدقائه في عمل بطولي قال عنه أنه غير مجدٍ، وأنه امتلك الوعي للابتعاد عنهم. ربما أغراك هذا بتقريبه منا، لكن مقاييسي في تقبل من يقترب منا تختلف. أنا لم أحترم عدم احترامه لإرادة أصدقائه ولو كانت انتحاراً.. وقد أثبت لي فعله اليوم صحة رأيي فيه. لقد طلب أمامك مساعدتي له في الحد من سيطرة عماد الذي ليس من مصلحتي معاداته. وقد تورطت بالموافقة. ولا أعرف الآن ما الذي ركّبه من حديث لعماد عني. لم أعد أستطيع تحديد أية هوية له.. أقول لنصير الذي يحاول تهدئة انفعالي.

ـــ لا أحد يقرّ ما فعله حسان اليوم، لكن هل حاولت أن تتفهم موقفه من أصدقائه على أنه رأي خاص هو حرّ فيه، هل تعرف ما لدى الشغيلة من أمراض يسارية طفولية فعل حسان حسناً في هربه منها. هل حاولت أن تتفهم وضعه في المجلة!؟. إنه يحس أنه أصبح بلا عمل في المجلة مع

قدومك. لقد حللت مكانه تقريباً. إنه يدافع عن نفسه. لا تفهمني خطأ. أنا لا أقرّ ما فعله لكنني أعرف أن الظروف لا ترحم، وأنه ليس بالسوء الذي تصورته فيه. لقد صارحني اليوم بما فعل معتذراً وقال أنه أخطأ بالشكوى لعماد عن وضعه تحت إحساس أنه مفصول عن عمله، كان يريد شغل وظيفة ما كي لا يعتقد أحد أنه لا عمل له بالمجلة وقال هذا لعماد لمعرفته باحترام عائشة لرأي عماد، وصدف أن هذه الوظيفة تقاطعت مع عملك.. يقول نصير، وأجيبه باعتراض على فهمه..

ـ كيف تفهم الأمور على هذا الشكل. إن عمله يتقاطع إدارياً مع عمل عماد لا عملي، ومع هذا حاول إيذائي أنا لا عماد، وأشك في أنه هو من قدم قائمة الأخطاء إن لم يكن أوحى بها إلى عماد.

ـ هوّن عليك هاني، ولا تدع الغضب يأخذك إلى الخطأ. أنت الآن منفعل لأنك مجروح.

ـ جرحي الحقيقي هو تحليلك الذي لا أفهمه.

ـ ليس تحليلاً بل تفهماً لأحوال الإنسان. اجلس فقد أعدت أحلام العشاء، أو أقول لك. هيا معي إلى المطبخ لعمل خلطة الجريب فروت خاصتك. لم أقل لك. اتصلت مع شاعرنا نديم اليوم. قلت له أنك أحضرت لنا من باريس خلطة للفودكا مع الجريب فروت فقال لي معتبراً أن هذا إهانة للفودكا، فالفودكا تشرب عادة مع الحليب لا مع الجريب فروت.. يقول نصير عاضاً على ضحكته التي تخرج بدفقات. ويعود لي قليل من هدوئي وابتسامتي. لقد خلخل نصير جدران قلعة الانتقام التي سورت نفسي، وأدخل طعم العجز إلى فمي. ليتني أستطيع المسامحة ببساطة. ينتابني شعور بالغضب من نصير على تعريته لروح الانتقام داخلي وذره لبعض من ملح الإنسانية على جرحي!؟

ــ لقد حان موعد الأخبار. سنسمعها ومن ثم نتصل بمحمود لسؤاله عن آخر التحليلات لديهم حول الإنذار الأمريكي بتحديد موعد الحرب. يقول نصير مغيراً قناة التلفزيون وغارقاً في مقعده يحتسي كأس الويسكي. الحرب. أضحك بسخرية وغصة. هذا موضوع أستطيع فيه الانتقام من نصير على خلخلة داخلي.

ــ إنها لعبة. والله لقد أصبحت الحرب لعبة في يدكم أنتم المثقفون!!.. أقول ويفاجئه كلامي الذي قلته بعفوية. ينظر إلي مندهشاً ومحافظاً على انشراحه، وضاحكاً..

ــ لا بأس، أنت اليوم مجروح، ويحق لك قول ما تشاء.

ــ ما أشاء! هذا عز لا أحلم فيه!.. أقول ويقرر الشيطان في داخلي أن لا أخذل سماحته. وحسناً، إنها فرصة لخلخلة هذه الإيمانية التي تفلقني فيه.

ــ حسناً.. أقول بمودة وضحك. بدأت أفكر أنكم حولتم مأزق دخول الكويت إلى لعبة أطفال وقمتم بتعبئة مسدسات البلاستيك بالماء استعداداً للحرب. وبما أنكم ضليعون بالثقافة والسياسة ومثقفون عرباً فقد استبدلتم ماء المسدسات بالتنظير، وحولتم التنظير إلى طقس، ثم حولتم أنفسكم إلى كهان.

ــ وماذا تفعل أنت زيادة عنا!.. يقول نصير ضاحكاً مني.

ــ أنا أتفرج الآن. سئمت من اللعبة.. أقول.

ــ لكنك مازلت فيها، وما زلت حتى يوم أمس تبشر بالخراب. أنت الوحيد الذي يلبس ثياب الكاهن، ويقول أن الحرب واقعة لا ريب فيها، متجاهلاً كل تحليل لواقع القوى على الأرض.

ــ أعتقد أنكم تتفقون معي ضمناً على هذا. وتعرفون بقرارة أنفسكم أن الحرب واقعة لا محالة، لكنكم تهربون كالعادة إلى التحليل بدلاً من

مواجهة أنفسكم، أنتم تحولون مجرى التحليل إلى نتيجة تريح خوفكم، وتبعد عنكم شبح الحرب، تمارسون نوعاً من ارتداء أقنعة تسمونها تحليل الواقع لكنها في الحقيقة هرب من رؤية الواقع.. أقول ويضحك نصير ماداً لي يده بكأس الفودكا..

ــ ستحولنا إلى مرضى نفسيين!.. يقول نصير وتتدخل أحلام مرددة تحليل نصير ببساطة أكثر.

ــ لكن الأمريكان أصبحوا يخشون من تعداد القتلى بعد خسارتهم في الفيتنام، كما أن هناك معارضة في الكونغرس للحرب، ثم إن هناك السوفييت ومبادرة ميتران التي تعبر عن المعارضة الأوروبية.. تقول أحلام وأقاطعها مستمراً في لهجة كلامها..

ــ نعم، وهناك حشد بلغ النصف مليون جندي في تحالف تسع وعشرين دولة بينها عشر دول عربية، في مقدمتها مصر وسورية، وهناك أسلحة خرجت من المخازن وفكّ عنها السيلوفان. هناك ملاحق إعلامية تروّج لمزايا هذه الأسلحة في صحف الغرب وصحف العرب على حد سواء. هناك معرض أسلحة حي سيقام أمام العالم في لحمنا.. أقول ويضحك نصير. يخاطب أحلام.

ــ ألم أقل لك أنه كاهن الخراب. أنت لم تعرفيه في البلد. لقد بدأ حياته الشعرية بقصيدة تبشر بهبوط الفاشية مثل ثور أسود يحمل في قرونه المجازر.. يقول ضاحكاً وأضيف مجارياً إياه في ضحكه.

ــ وها نحن ننعم بفضله في جنة المنفى، ولا تلاحقنا قرونه التي لم تمزق أوصال البلد والأحزاب والمؤسسات بالاستبداد والفساد والقتل، ولا تنهش لحم رفاقنا الآن في سجونه. ولا تجعلنا نلعب بدخولها الحرب إلى جانب أميركا لعبة تحليل الدخول والخروج، كما لم تجعل غيرنا يمدحون

حكمة النظام الديكتاتوري في وقوفه مع أمريكا ضد ديكتاتورية صدام حسين.

ـــ لا أحد يمدح دخول النظام إلى جانب أمريكا.

ـــ بل بدؤوا، وفي التجمع الوطني الديمقراطي بالذات، وحاولوا جرّ رفاقنا إلى اتخاذ موقف يدين أميركا والعراق على حد سواء كمقدمة للوقوف مع الحرب.

ـــ أنا معك هاني في موقفك من النظام لكن لا تبالغ في انحراف موقف التجمع وكأنك تريده أن يكون كذلك لإثبات رأيك. كل ما فعله حلفاؤنا هو محاولة جر رفاقنا إلى إدانة الطرفين ظناً منهم أن هذا هو الموقف الصحيح، وأدرك رفاقنا أن هذا يعني الوقوف مع الحرب على العراق، وأصدروا بياناً يقف ضد الحرب فقط.

ألتقط جملة "وكأنك تريده أن يكون كذلك"، لأنظر قليلاً إلى داخلي. هل أريد هذا فعلاً!؟ هل أريد للحرب أن تقوم من أجل إثبات صحة موقفي؟ وهل ساعدتْ سوداويتي ورؤياي للخراب قرون ثور الفاشية السوداء من أن تطحن بلدي؟ أي شيطان يقبع في دواخلنا يا إلهي!! ولكن هل علي أن أجمّل الصورة لكي تصبح الصورة جميلة فعلاً! هل يشكل هربي من رؤياي لخراب الحرب على العراق كما يفعل نصير وقفاً لهذه الحرب!؟ هل سأشعر بالسوء إذا كان موقف نصير هو الصحيح!؟ يا إلهي، لم أعد أستطيع ضبط مرآة داخلي التي يختلط فيها الملاك بالشيطان.

تضحك أحلام سعيدة من روح نقاشنا، وتعتذر للذهاب إلى المطبخ واستخراج الطعام من الفرن بينما يملأ لي نصير كأس الفودكا، ويضيف إليه الجريب فروت ضاحكاً.

ـــ فودكا جريب فروت. لدينا حليب إن كنت تفضل خلطة نديم. دعنا نتصل بمحمود.

ألملم أقلامي المتناثرة على طاولة مكتبي. أضعها في المقلمة أمامي. أرى روزا تقفل باب مكتبها، تلوّح لي بيدها مودعة وتمضي. لم يبق أحد في المجلة. إنهم لا يصدّقون متى تحين ساعة الانصراف كي يغادروا المكان، ولكن أليسوا على حق!؟. أرتدي جاكيتتي مسرعاً بدافع صهيل نداء مجهول. ها هي روزا. إنها ما تزال على باب المصعد كما حدست.

ــ لقد تأخر المصعد كالعادة. تقول روزا محرجة من وقوفها الطويل.

ــ لقد أمرته أن ينتظرني. هل أعتذر منك على ذلك. أمازحها وتضحك. ينفتح الباب. تدخل وأدخل وراءها.

ــ أي زر أضغط؟ أمازحها وتضحك. أضغط زر الأرض. ثمة ما يحيّرني الآن في روزا. لقد تجاهلتني طيلة هذا اليوم، وتبدو ودودة معي الآن، ولقد حذرتني منذ أيام مما يعدّونه لي. إنها تعرف الكثير. أنظر إليها. أجعلها تحس بنظراتي وتتجاهل هذا الضغط. أستنطق ملامحها. لا أصل إلى شيء. كيف أستطيع كسر حجر صمتها. نخرج من المصعد. أقدم على خطوة اختبار.

ــ هل تسمحين لي بمرافقتك على الطريق. سأتناول طعامي في المطعم الكائن في نهاية طريقك.. أقول وتتردد.

ــ نعم، ولكن هل يضيرك أن نذهب عن طريق البحر. الجميع يذهب من هذا الطريق وأخشى أن يرانا أحد.

أستغرب خشيتها. أنظر إليها مقطباً جبيني بعدم الفهم. وتقول مبددة استغرابي..

ــ الجو متوتر مما حدث. أنت تعلم. لا أريد أن أعلق بأية تفسيرات.

ــ دعيني أعتذر عن طلبي. أنا آسف فعلاً على إحراجك.

ــ لا. لا. ليس من مشكلة. فقط كي أتجنب أية تخمينات من الآخرين.

أضحك مشيراً لها أن هذا يذكرني بالبلد، وكأننا لسنا في قبرص.

ننزل إلى الشارع المؤدي إلى البحر صامتين. يبدو أنني ملزم بكسر الصمت مادمت قد طلبت مرافقتها.

ــ أشكرك روزا على تنبيهي. تعلمين أنني جديد في المجلة وأستغرب ما يحدث. تضحك بهدوء:

ــ سوف تعيش حالات طويلة من الاستغراب. لكن قل لي ماذا حدث في الاجتماع. عائشة كانت سعيدة ومحمد تصرف بشكل حيادي، حسان كان محرجاً وعماد كان منزعجاً. وأنت صامت كصياد يشحذ أسلحته.

ــ صياد!! لا أعرف إن كان هذا إطراء سيعجبني.

ــ أنت تعجب عائشة، لقد امتدحتك بوجودي أمام محمد. ماذا حدث فعلاً ؟!.

ــ أنت التي تسألين؟ يفترض أنك أول من يعلم. أقول وتضحك..

ــ ليس بالضبط لكنني سكرتيرة المجلة ومستودع أسرار الجميع.

ــ لم أكن أتصور أن يحول عماد وحسان مشكلة صغيرة إلى فخ للنيل مني. لماذا يفعلان ذلك برأيك؟ أسألها وتتردد في الإجابة.

ــ لا أريد الخوض في النميمة؟

ــ لكنك سألتني عما حدث.

ــ ولم تجبني. أخبرني بما حدث؟.. أضحك على تهربها. وأقرر خوض الحديث.

ــ لقد قدم أحدهما قائمة بأخطاء مرّت علي، وطلب عماد كفّ يدي عن الإشراف على التصحيح وتسليم حسان هذه المهمة.

ــ ورضيت بذلك!.. تسألني باهتمام.

ــ كنت سأقبل لولا أن الأمر يمكن أن يضرّ بالتراتب الإداري، ويقلل من صرامة التدقيق، فاقترحت أن يستلم حسان مهمة التصحيح تحت

إشرافي، وأنا تحت إشراف عائشة، ووافق الجميع من أجل خير المجلة. أقول وتضحك روزا..

ــ خير المجلة!! ها. لقد حمّلت حسان مسؤولية كان مرتاحاً منها أمامك، وأصبحت أنت الذي سيعدّ قائمة الأخطاء.

أصمت واجماً بحيرة وقد مسّني ذكر القائمة.

ــ هل أهنتك!؟.. تقول وقد أحست بجرحها لي.

ــ انظري روزا. نحن لا نكاد نعرف بعضنا. سأتجاوز إهانتك معتبراً أنها مزحة، لكن أرجو أن تعرفي أن عماد هو من بدأ ذلك، وأساء لحسان بهذا، كما أرجو أن تعرفي أنني لست عماد لكي أضع نفسي في ذات الموقف الذي احتقرته. أقول وتضحك روزا..

ــ أقدّر ذلك، لكنك قسوت على حسان. دلني تصرفك على أنك لست الرجل الطيب الذي رأيته في البداية. حسان لا يستحق ذلك. إنه طيب وحساس، وتعلم أن قدومك إلى المجلة هزّ وجوده وهدّد وظيفته. لقد كان يجلس في المكتب الذي تجلس فيه الآن، وأنت تعرف ذلك.

ــ اللعنة على هذا المكتب.. أقول. الجميع يعلم أنني اخترت أصغر وأبعد مكتب في المجلة حين وجدت حسان فيه، وعائشة هي التي أصرت على إعطائي إياه شارحة لي أن مكتب مدير التحرير يجب أن يكون بجانب مكتبها، ومكتب سكرتير التحرير يجب أن يكون مع مكتب عماد وجماعة الكمبيوتر. لماذا لا يفهم الإجراء العملي في هذا!.

ــ إنه لا يحس بالأمان لأن عائشة لا تكن له مودة.. تقول روزا، وتتوقف كمن تورط في تفاصيل لا يجب الدخول فيها. ماذا أفعل. إنها تدافع عن حسان وكأن بينهما علاقة ما، أو ربما هي تشفق عليه لا أكثر.

ـ أعتقد أن عائشة محقة.. أقول وتصمت روزا باستياء يشعرني بإدانة صمتها لقسوتي. ماذا لو كانت على علاقة بحسان؟ إنها قلة أدب مني أن أبدي لها عدم احترامي له.

ـ أرجو أن لا تزعجك قسوتي.. أقول.

ـ لا. لكنني أفكر بالرجل الذي التقيته أول مرة وأثارتني بساطته.. تقول وأضحك. إنها بداية انفراج.

ـ أول مرة. كيف رأيتني أول مرة!؟ أسألها وتضحك.

ـ عندما علمت أن القادم سوري، انقبض قلبي.

ـ كلبنانية

ـ نعم. وقلت ألا يكفي حسان في المجلة. لكنني لم أصدق أنك سوري فعلاً. كنت مهذباً وهادئاً على غير عادة السوريين وأقرب إلى السذاجة بشعرك القصير الذي بدا أنك حلقته بنفسك.. تقول وأضحك.

ـ لقد حلقته بنفسي فعلاً. لم يكن لدي الوقت في باريس للذهاب إلى حلاق، وعندما فعلت ذلك لم يعد ينفع الندم. ماذا أيضاً!؟.

ـ سأكون صريحة معك. دققت بملفك لأعرف من أية منطقة في سورية، وتأكد حدسي عندما عرفت أنك من المنطقة العراقية في سورية. زال خوفي قليلاً وأضحكتني سذاجتك وقلقت عليك عندما حاول عماد النيل منك أمام عائشة. لقد شعرت بظلمه لك.

ـ هكذا إذن.

ـ غير أنني أخفق دائماً في أحكامي. أنت تخيفني الآن أكثر من الجميع.. تقول روزا، وأضحك. تتوقف.

ـ لقد وصلت الآن إلى البيت.. تقول، وأحس أنني ملزم أمامها بالإيضاح، لكنني لا أستطيع استبقاءها أكثر في الشارع.

ـ قبل أن أودعك. أريد أن تكوني على ثقة بأنني لا أستطيع إيذاء أحد وإن بدا علي ذلك. حتى لو أردت ذلك. صدقيني.. أقول وتنظر روزا إلي بعينيها الصافيتين وتضحك.

ـ هذا ما يخيفني فيك. تقول روزا أمام دهشتي وتمضي.

دومينو الحرب

أمدّ يدي إلى راديو سيارة محمد. أوقف الموسيقى الصاخبة.

ـ أليس لديك شيء أهدأ؟.. أقول لمحمد الذي يستغرب تصرفي.

ـ كنت تحبها كما أظن!

ـ نعم لكن لا أدري لماذا كرهتها للتو. هل تعتقد أنهم سينفذون الإنذار.. أقول وينظر إليّ محمد مستغرباً. يضحك لموقفي.

ـ ما بالك الآن. أنت الوحيد الذي يصرّ على أنهم خططوا للحرب كي يخوضوها!

ـ مع ذلك أكاد لا أصدّق. اليوم انتهت كل فرص التفاوض. لقد أفشلوا كل فرص التفاوض، ومع ذلك لا أكاد أصدق أنهم سينفذون الإنذار، ألا ترى أنك تجاوزت البار. لماذا لا تتوقف عن السير. منذ ساعة وأنت تدور بالسيارة.. أقول ويضحك محمد قلقاً

ـ لقد حيرتني. قبل قليل ضقت بالبار وطلبت مني أن نخرج.

ينعطف محمد إلى اليمين. يدخل الشارع الموازي لشارع بار ماريّا، ويلف من خلفه، لتستقر السيارة أمامه.

ـ هيّا. أظنك طلبت أن ندخل البار.. يقول وأتردد في النزول.

ـ أنا طلبت ذلك!!.. أقول ويصمت محمد. أفتح باب السيارة وأنزل. ندخل بار ماريّا بب. نتجه إلى البار. يأخذ محمد مكانه أمام الساقية الإنكليزية. يحدثها ممرناً لغته.

ـ اثنان فودكا بالجريب فروت. ينظر إليّ إن كنت موافقاً. نعم. أمسك كأسي. أرتشف ما فيه من مرارة شارداً في الزجاجات المرصوفة خلف الساقية.

ـ ما رأيك بالبلياردو؟.. يسألني محمد، ويحضر قطع النقد. يصفّها على حافة الطاولة. يتناول واحدة. يضعها في الشق. يسحب القبضة، وتتدفق الكرات بتزاحم محدثة جلبة خالية من الصوت ومنتشرة أمامي كما الهلام. ينظر محمد إليّ وأنا أمسك بعصاي دون أن أتحرك. يضع عصاه ويبدأ بإخراج الكرات. أنتبه إليه. أحضر المثلث. أحصر الكرات بداخله وأقف. يرفع محمد المثلث. ينظر إلي. يلقي بقطعة النقد ويتلقفها على ظهر يده. وشم. الضربة الأولى لي. أركّز على الكرة البيضاء وأضرب. أفكر بنورا. أتخيل وجهها وهي قلقة عليّ من خلال التلفون.

ـ ساعة الصفر تقترب. كيف الحال لديك في قبرص!؟ لـديكم قاعـدة إنكليزية. هل أنت بعيد عن موقع الخطر!؟. أتخيل وجهها وأعيد تكرار طمأنتي لها. أعيده للمرة الخمسين في ذاكرتي.

ـ لا تقلقي نورا. أقول محاولاً اغتصاب ضحكة من داخلي. أنا بعيد، ولن يضرب أحد قبرص. القاعدة بعيدة عني على أية حال. كيف أحوالكم أنتم. بدأت أسمع عن طرد بعض المعارضين للحرب من فرنسا.

ـ نعم هاني. وهذا يقلق الجميع. مبادرة ميتران تم مسحها من الإعلام، ولم يعد من أمل سوى الاجتماع الأخير بين جيمس بيكر وطارق عزيز. الشباب هنا يفكرون أنه تراجع لأمريكا عن الحرب لكني أحس بقلقهم.. تقول نورا وأصمت.

ـ اسمعي نورا. آمل أن يكون كذلك فلا تخشي شيئاً. هل أنت قلقة علي فعلاً!؟.. أقول منتظراً إجابتها بلهفة.

ـ لا. أردت فقط أن أعرف إن كنت قد حافظت على غلاظتك أم لا.. أضحك وأنا أتخيل وجهها. أستعيد غضبها. نار غضبها. كم أحتاج لها الآن. يلاحظ محمد شرودي. أنا أضرب الكرات دون تركيز.

ــ لم تقل لي. كيف حال نورا؟ أحسست أنك قلق بعد تلفونها في المكتب. يقول محمد وهو يستلم ضرب الكرات، يفاجئني بالتقاط إحساسه لما أفكر فيه.

ــ جيدة. إنها تفكر في المجيء إلى قبرص، لقد عرض عليها عمل كمصممة لمجلة الجديد في نيقوسيا.

ــ هذا جيد. دعها تأتي. ربما فكرنا في زيادة عملها من رسومات الأطفال بتصميم الكتب. نصير عرض علي مشروعاً للاشتراك في طباعة الكتب.

ــ أشكرك محمد.. أقول. لقد شجعتها على المجيء لكنني قلق من جماعة الجديد. ما هي مسموعاتك عنهم؟.

ــ إنهم بخلاء قليلاً في الرواتب، لكن يمكنها تعويض ذلك بعمل التصميمات لجهات أخرى.

ــ إذا وفروا لها الوقت. أنت تعلم ما هي صعوبة العمل في مجلة أسبوعية!

ــ نعم لكن أنت قلق زيادة عن اللزوم، دعها تأتي ولا تخف. يقول محمد مخففاً من قلقي، وأستلم دوري في ضرب الكرات. أدور حولها محتاراً. أي واحدة علي أن أضرب. تلك هي كرتي. أضرب لكنني ألمس الكرة السوداء. يضحك محمد. أضع عصاي على الطاولة، ونتجه إلى البار.

ــ من الذي ربح؟.. تسألنا الساقية.

ــ أنا ... خسرت. أقول وتضحك. نحتسي كأسينا. أعود إلى شرودي. بينما يدرب محمد لغته مع الساقية.

أنظر إلى الزجاجات المرصوفة المتلامعة خلف الساقية. أغرق في الظلال المتداخلة التي تداخلني وتشعرني بالتلاشي. أغرق في تكسّر النور

والظلال، وأستعيد وجه نورا، قلق نورا عليّ... أسمع طرقاً على الباب وأفتح باب غرفتي لأرى نورا تنظر إلي وكأنها غير مصدقة أن تراني. إنها تريد التأكد من أنني حقيقة أمامها. أنظر إليها أن تهدأ . أمسك بساعديها. وأجلسها على الكرسي بجانب المدفأة. تداري ضعفها بجرعات من السيطرة.

ــ حسناً هاني. سنحسم أمرك بالرحيل عن دمشق هذا اليوم قبل الغد. لقد هيأت لك كل شيء. لقد تم عمل عقد لك مع صحيفة عربية في قبرص. وكمال أرسل لك جواز سفر سوف تستلمه في بيروت. خروجك مؤمن عن طريق بيروت. لن أتحمل قلقي عليك بعد الآن.

ــ ما الذي استجد لكي تقلقي إلى هذه الدرجة. أقول قلقاً من قلقها.

ــ سألحق بيوسف إلى الكويت بعد أيام.

ــ أعرف هذا. وأعرف أنك سعيدة للم شمل العائلة. لكن ما الذي يقلقك الآن!؟. أقول وأنظر إليها أن تفصح.

ــ حسناً. تقول. لقد اعتقلوا رباح، وعليك أن تكون حذراً. لا أستطيع الثقة أنه سيصمد أمامهم وهو يعلم أنهم قتلوا عبد الرزاق تحت التعذيب لأنه رفض إفشاء ما يعرف. تقول وأخاف من قلقها على انهيار رباح.

ــ حسناً. علي أن آخذ حذري، لكنك تبالغين في خوفك من انهيار رباح. أنت لم تحبيه منذ البداية. ماذا يقلقك غير ذلك!؟

ــ معاذ. تقول نورا وتدمع عيناها.

ــ ما به معاذ. لقد خرج من السجن!؟.. أسألها بقلق وتداري انفعالها.

ــ لا شيء. لكني قلقة عليه. إنه مريض كما تعلم. والسجن ربما يكون قد أثّر على صحته.. تقول وأشعر بالقلق على معاذ. أبدي لها غضبي منه لأنه لم يأت إلي كي أخفيه في دمشق خلال ملاحقته.

ـ أرسلت له أنني أستطيع إخفاءه هنا. لكنه أصرّ على البقاء في حلب. كم أكره حلب. أقول وتدمع عينا نورا. تخفي انفعالها بأخذ سيجارة. أشعل لها سيجارتها، وتخفي عني وجهها متشاغلة بجلب منفضة السجائر. تأخذ نفساً عميقاً من سيجارتها.

ـ لن ينفع الندم الآن. أنت تعلم عناده وإصراره على العمل السري في حلب. المهم أنه طليق الآن، ويستطيع العلاج. دعنا نفكر في قضيتك أنت. لن يصدّق أحد أنك خارج التنظيم. هاني قل لي ماذا يعرف عنك رباح. لقد طلب مني مروان تحذيرك أنت بالذات. قال أن النسخة الثانية من الرسالة الداخلية كانت مع رباح خلال اعتقاله. قل لي ما هي هذه الرسالة، وما دخلك أنت بذلك. تقول نورا وتعتصر يد ساحقة قلبي.

ـ متى اعتقلوا رباح!؟.. أسأل نورا. الأمر يتطلب التحرك، فقد يفشي لهم رباح باسم من أعد الرسالة.

ـ البارحة.. تقول. وأحس أن علي التحرك.

ـ أعتقد أن علي تغيير المكان، ولكن إلى أين!؟.

أفكر باللجوء إلى العائلة، ولكن كيف أصل إلى دير الزور. لم أحسب هذا الحساب لتدبير هوية مزورة. وستكون الطرق هي أول ما يراقبوه. علي المغادرة الآن والتفكير بعد ذلك إلى أين. أنظر من نافذة غرفة جابر المطلة على الطريق مستطلعاً الشارع، وتذهب نورا للنظر من نافذة عبد الحي لاستطلاع الجهة الأخرى. المكان هادئ. لكن الليل سيهبط ولا يدري أحد ما يخبئه الليل. علينا أن نغادر. أقول لنورا. أجول ببصري في أرجاء غرفتي الحنون وكأنني أودعها لآخر مرة. أنظر إلى لوحات الإعلان البولونية التي تشكل بتكوينها السري الذي لا يعلمه غيري اسم المرأة التي أحببت وهي بجانبي على خلفية ورق الجدران الجغرافي الأزرق البحري الذي يشكل العالم. أنظر إلى كتبي المرصوفة في ركن الحجرة..

"مذكرات بابلو نيرودا. أعراس محمود درويش. التجربة التاريخية الفيتنامية لياسين الحافظ. إلزا أراغون. قحط هيثم الخوجة. وعزلة غابرييل غارسيا ماركيز". أنظر إلى أشرطة الكاسيت المرمية حول المسجل "فيكتور جارا. أغاني المقاومة. مارسيل خليفة. جوان باييز. أحمد الزعتر. كارمينا بورانا. شهرزاد ريمسكي كورتزاكوف. خامسة بيتهوفن. وبحيرة بجع تشايكوفسكي". أرفع كاسيت كارمينا بورانا لأضعه في جيبي وأتوقف. أفكر بلا جدوى أخذي لأية ذكرى، وأعيد الكاسيت إلى مكانه. سينثرونك مع بقية محتويات الغرفة. تتناول نورا شالها وتلفه حول عنقي.

ـ ستخنقيني. أقول. الربيع على الأبواب. والجاكيت والكنزة التي تسجنيني بهما تكفيان. تضحك نورا وتنتهي من لفي وكأنني طفلها.

ـ لست ابنك طارق.. أقول وتضحك.

ـ سوف تتمنى ذلك لو اعتقلوك.. تقول وأنظر إليها بعينين ماكرتين.

ـ أستطيع تمني ذلك دون أن يعتقلوني.. أقول وتضحك.

ـ كنت ترى نفسك كبيراً عندما كنا صغاراً.. تقول ضاحكة ونحن نغلق الباب لنغادر.

ـ ستنام عندنا هذه الليلة وبعد أيام سأدبر أمر خروجك إلى بيروت في إحدى سيارات المقاومة.. تقول ونمشي في شارع بيتي الفرعي باتجاه شارع العابد. ننعطف يساراً وأنظر إلى الخلف مواربة دون أن أشعر أحداً بذلك. ألمح سيارة الرانج روفر المميزة للمخابرات السورية من بعيد تتوقف على بعد عشرين متراً من المنزل فأعرف أن رباح قد سقط. نحث الخطى باتجاه السبع بحرات. ثم باتجاه موقف الباص الذاهب إلى ركن الدين.

ـ أنت في أمان منهم الآن.. تقول نورا، ونمشي مسرعين. تمر بذاكرتي صورة معاذ وسحر يقفان أمام البيت الذي ضرب فرد من أحد

أحزاب التجمع الوطني الديمقراطي موعداً لمعاذ فيه. يمر بذاكرتي ارتياب سحر من الصمت المخيم في الشارع.

ــ لا يعجبني هذا الموعد.. تقول سحر. لم أستطع الوثوق بصاحبه. ويخاف عليها معاذ.

ــ انتظري في المدخل. سأحدث ضجة تسمعينها إذا حدث ما يريب. اهربي فور سماعك أية ضجة، ولا تسألي عني. أنا أدبر نفسي.

تمر بذاكرتي المثقلة خطى معاذ وهو يصعد الدرج إلى الطابق الأول وكأنه درج الجلجلة. يقرع الباب وتتابعه هي بنظراتها المتوجسة. يقرع الباب. ينتظر لحظة. يحس بالخطر ويتراجع غير أن الوقت فات. لقد كمنوا له داخل البيت. ينفتح الباب بسرعة ويبرز منه رأس الكلاشينكوف موجهاً إلى صدره. يمسك برأس البندقية بيده صارخاً ومزيحاً إياها عن صدره لتنبيه فتاته المنتظرة في الأسفل. يتعارك مع رجل المخابرات المسلح الذي يضغط على الزناد خائفاً فتترشق الطلقات.

تسمع سحر صوت العراك في البداية وتزمع على الهرب. غير أن صوت الطلقات يسمّرها في المكان، ثم يدفعها إلى صعود الدرجات بجنون. ترى أمامها مسلحاً يهوي على رأس رفيقها بعقب البندقية من الخلف بينما تنحل يد معاذ عن فوهة بندقية مسلح ثان يشتبك معه. ويوجه مسلح ثالث فوهة بندقيته على جسده الذي يتهاوى.

تندفع سحر في اتجاه معاذ رامية نفسها عليه، ومغطية إياه في حركة حماية وصارخة أن يتركوه قبل أن يشدها المسلح من شعرها ويصلبها على الجدار.

تدخل نورا مكتباً للمقاومة في الساحة. تغيب لحظات. وتأتي باسمة

ـ لقد تم الأمر. هناك سيارة مغادرة مع فضل غداً وسيارة بعد ثلاثة أيام وعليك الخيار.. تقول.

ـ بعد ثلاثة أيام. علي إخبار الرفاق بتغيير مساري من قبرص إلى باريس.

ـ سأخبرهم عنك. أرى أن تسرع في الخروج رغم عدم وجود ما يمنع من بقائك ثلاثة أيام. لم أعد واثقة من شيء في هذه الأيام.. تقول ونمضي في اتجاه بيتها.

تضحك الساقية من صعود أصابع محمد إلى ساعدها بعد أن كان يمسك بيدها بين كفيه. أضحك محرجاً. ماذا أفعل لمنعه من تماديه. أحس بمسؤوليتي عنه تجاه عائشة التي تطلقه حراً إذا كان بمرافقتي. لكن لماذا أمنع محمد عن شقاوة الطفل فيه. لماذا لا أدعه على سجيته في هذا العالم الذي يوشك على الانهيار. أنا أعلم أنه يحب عائشة ولا يستطيع العيش دونها رغم كل شقاواته. كم تعجبني وتوازن تعقيدي بساطته. أنظر إلى الزجاجات المرصوفة أمامي خلف الساقية. أرتشف جرعة كبيرة من كأسي وأغرق في تكسر النور والظلال.

ـ لم تقل لي ما هي خطورة الرسالة التي كانت بحوزة رباح عليك؟.. تسألني نورا ونحن نحتسي القهوة في المطبخ بعد العشاء.

ـ ليس من خطر حقيقي سوى أنه سيكشف حقيقة وضعي الحزبي إذا قال لهم رباح من كتب الرسالة، ولن يمكنني الإنكار لأنها بخط يدي.

ـ بخطك!.. تكتب رسالة خطيرة بخطك. ماذا جرى لك!؟.. تقول نورا. وأضحك

ـ تهوري المعتاد، لكن لم يكن هناك مجال آخر.

ـــ نعم. أنت الذي يقرر كالعادة إن كان هناك مجال آخر أو لم يكن.

ـــ يروق لي أن تقومي بدور أمي، لكن لا تهيني كرامتي هكذا.

ـــ أنا لا أهينك، فقط أحس بالمسؤولية تجاهك لأن خالتي أوصتني بك.

ـــ ههههها نعم. خالتك. أقدّر لكما أنت وخالتك الاهتمام بي.. أقول ساخراً وأنا أتذكر بمرارة دخول أمي غرفتي لتضع القهوة على الطاولة ولتخاطب ابنة الجيران التي جلست أمامي لرسمها قائلة لها إن هانيبال لديه دراسة. أتذكر مرارتي من تصرفات أمي الوقحة مع كل من أحببت من فتيات. أتذكر تدميرها لمراهقتي. أتذكر مرارتي وأنا أنظر برعب إلى نورا التي بدت وكأنها تشبه أمي.

تدخل أخت نورا المطبخ، تسلّم علي. تعرّفها نورا عليّ.. تقول لها إنني سأقضي لديهم بضعة أيام ويفضل أن لا يعلم أحد بوجودي.

ـــ طبعاً، أقدّر ذلك.. تقول أختها وهي تخرج معتذرة لدراستها.

ـــ نعم. أنا أسمع منك. اشرح لي أمر الرسالة.. تقول ويسقط في يدي. هل أخبرها بما حدث. وكيف أخبرها بذلك. أنا واثق أنها ستتخذ موقفاً لن يعجبني من قصتي. لكن نظرتها الحنونة تغريني بإخبارها. أنظر في عينيها اللتين تنتظران روايتي بحنان ويسقط في يدي، لم لا أخبرها القصة سوف يعجبها ما صنعت، على الأقل كرجل تصرف بثقة ورجولة، وربما ساعد هذا في استمالتها لي. نعم. لماذا لا أستميلها بهذا؟

ـــ أنت تعلمين.. أقول لها.. أنه كان عليّ واجب مساعدة الحزب عندما اعتقلوا القيادة الأولى والأمين العام، خاصة أن عضو المكتب السياسي أبو حرب الذي دفعني للاستقالة من الحزب خان الحزب وسلم الأمين العام إلى المخابرات. لقد قلت لك وقتها إنني عدت إلى العمل السياسي، لكن ما لم أقله هو أنني حضرت اجتماع القيادة الجديدة للحزب لمناقشة أخطر ما يواجه الحركة الديمقراطية في البلد لاتخاذ أصعب قرار يواجه الحزب: إما

التخلي عن البرنامج الديمقراطي الذي طرحناه وشكلنا التجمع الوطني الديمقراطي على أساسه، كما يطلب النظام، وبهذا نحصل على الأمان الذليل غير المأمون من الفاشية. أو الإصرار على التمسك ببرنامج الحزب، ومواجهة السجن والموت.

لقد اتضح لي أكثر من أي وقت مضى أن النظام هو الذي صنع الحرب مع الإخوان المسلمين لا لضربهم فقط بل لضرب الحركة الوطنية الديمقراطية التي بدأت النهوض، وضربنا على أي وجه مهما كان القرار الذي سنتخذه لكوننا على رأس هذه الحركة.

كان الرفاق يعلمون بموقف أبو هشام في السجن عندما طلب منه النظام إصدار بيان بإدانة الإخوان المسلمين، ويعلمون بإصراره على مبدأ التعددية السياسية للجميع، وعلى حقه الديمقراطي ورفضه ذلك تحت موقف أن الحزب الشيوعي هو حزب مستقل يكفل له الدستور حرية الرأي والقرار. وأن التفاوض لا يتم مع سجين. هناك حزب في الخارج مسؤول عن إصدار القرارات، وعليهم إطلاق سراحه والتفاوض مع الحزب..

وكان على النظام أن يلعب اللعبة.. لعبة أن يحصل من الحزب على هذا القرار مادامت القيادة الصلبة معتقلة لديه في السجن.. ولهذا قام النظام بترتيب لقاء بين يوسف ظافر الذي فصله الحزب علناً لانضمامه إلى المنشقين، وبين عضو الأمانة الوحيد ميخائيل أيوب الذي بقي خارج السجن. وقد بدأ ميخائيل بوازع طيبته وتحت ظن أنه بهذا يوقف اعتقالات الرفاق بالاتصال مع منظمات الحزب لعقد اجتماع للجنة المركزية من أجل إصدار بيان يدين الإخوان المسلمين غير مدرك أن هذا البيان سينسف مبدأ حق التعددية واستقلالية موقف الحزب التي ناضلنا عمرنا من أجلها.

لقد رأيت بنفسك مدى قلقي عندما طلب مني الرفاق حضور هذا الاجتماع، فلقد كنت أصغر حجماً من هذه المسؤولية لكني أدركت خطورة

القرار عندما رأيت تحرك سامح ظافر بدفع من أخيه يوسف وأيدي النظام لجرّ منظمات الحزب إلى قرار مضاد لقرارات مؤتمرنا. كان النظام يريد شق الحزب وكان يوسف وسامح ظافر وميخائيل أيوب يساعدان على ذلك بوازع نوايا طيبة لم أستطع أن أرى في عسلها غير السم...

كان واضحاً أن هذه الحركة بدون وجود القيادة الأولى للحزب ستقسم الحزب، كما كان واضحاً أن المشنقة سوف تنصب لمن يقف ضد هذا التوجه.

كانت المسؤولية جسيمة، وكان وضعاً لا أحسد عليه، دفعني للذهاب إلى البلد وتصفية ذهني أمام الفرات.

أمام نهري وقفت لاتخاذ أخطر قرارات حياتي.. لقد كان اجتماع اللجنة المركزية الذي دعيت إليه هو الصراط الذي يحك معدني كرجل. إنه معركة حقيقية لا حدود لاحتمالاتها والقرارات التي ستتخذ فيه قرارات لن تكون سارة لأحد، والمشنقة سوف تعلّق لمجرّد الحضور إلا إذا لبس المرء ثياب يهوذا.

لقد فكرت بالتراجع. تلك مسؤولية كبيرة على من أراد القيادة فيها أن يتحمل وضع صدره أمام النار.. لكن رغبتي بمساعدة رفاقي كانت تمنعني عن التراجع. ماذا أفعل كي أكون نافعاً لرفاقنا داخل السجن، وماذا أفعل لمساعدة من هم خارجه حتى الآن!؟. إن أي قرار سوف يتخذ هو قرار أكثر من حساس. ماذا لو كان ميخائيل على حق وأنه سيساعد الرفاق بموقفه، لكن هل هو على حق فعلاً وهل سيساعد هذا رفاقنا؟!.. تذكرت بلدنا وما آل إليه من فساد، تمييز طائفي، ديكتاتورية، ضعف، فاشية، سرطانية للأجهزة البوليسية، تدمير للحياة المدنية المؤسساتية، حكم للحزب الواحد والفرد الواحد، تأليه للتفاهة، مجازر خارج السجون وداخل السجون، تذكرت كيف حولوا بلدنا إلى سجن مريع. تذكرت رفيقي فرحان

الذي سلخوا من شبابه أربع سنوات داخل السجن كان سيتخرج فيها مهندساً لمجرد خروجه في مظاهرة ليوم الأرض الفلسطينية، وأخرجوه ليعيدوه إليه مرة ثانية. تذكرت عبد الرزاق وهو يلفظ أنفاسه تحت التعذيب دون أن يسمح لهم بإذلال رجولته باعتراف. تذكرت عمر قشاش بسماحته وهو يقول للمحقق "إنني مع سياسة حزبي التي أعرفها والتي لا أعرفها، فافعلوا ما تشاؤون". تذكرت الدكتور فايز الفواز وهو يشرح لي بلطفه وذكائه أهم ما ارتكز عليه فكرنا من أجل خير الناس في بلادنا، ودون أن يشير إلى شكة لينين التي وضعتها على ياقة معطفي: "إن الميداليات السوفييتية هي امتداد لمعتقدية الأيقونات، وعبادة الفرد"، ويجرني إلى جرأة مواجهة إيمانيتي بروح العقلانية. تذكرت "ابن العم" الأمين العام لحزبي رياض الترك، بعينيه الطيبتين الصلبتين بآن وهو يزيح ورقة انسحابه بيده جانباً وينظر بتلك العينين إلى خشبة الصليب الذي أعدوه له، ويقول للضابط الذي قدمها "البيان يوقعه الشعب لا أنا". تذكرت رفيقي رياض الترك وهو يسلمني رسالته لآخر اجتماع للقيادة قبل سجنه من أجل إخفائها، ويقول لي ضاحكاً: "يمكنك أن تقرأها لكن انتبه، عليك بإخفائها جيداً ". تذكرت أن هذه الوثيقة بالذات هي ما يمكن أن يقلب الطاولة أمام أي شك في موقف قيادة الحزب، ومن سيوقف لعبة النوايا الطيبة.. لا أنكر أن الخوف دخل إلى قلبي وأغراني برفض هذا الشرف. قلت في نفسي أنه يمكنني إعطاء وثيقة رياض لأبو مازن واللجنة المركزية وهم سيعرضونها في الاجتماع، ولكن ما الذي يضمن لي أن أبو مازن سيعرضها. وماذا إذا أعاق أبو مازن عن موعد الاجتماع اهتمامه الشديد بتغذيته في أحد المطاعم تحسباً للجوع، أو أعاقته الجاكيتات الثلاث والكنزات الخمس والبيجامات الأربع التي يلبسها مرة واحدة تحسباً للبرد إذا ما تم اعتقاله. تذكرت كم هو صعب مواجهة مرحلة حساسة مثل هذه

بأحاسيس أبو مازن. تذكرت. نعم تذكرتك نورا، وضعت نفسي في طاحونة موقفك المتعارض الذي يشبه اختبار الله لإبليس حين طلب منه السجود لآدم وهو يعرف أنه ممنوع من السجود لغير الله. تذكرت أنك ستشيرين عليّ أن أسير بدرب السلامة خوفاً علي، وأنك ستحتقرين موقفي الخالي من الرجولة في الوقت نفسه إذا سرت في هذا الطريق. تذكرت أمي التي أدانت العالم وانكفأت على نفسها وتذكرت أبي الذي باع الدنيا وغاب عنا مع الصوفيين ووقفت أمام الفرات. وقفت في منتصف الجسر مواجهاً إياه. وقفت حيث تكون المياه المتدفقة الملتفة حول الدعامة أعنف ما تكون. وجهت قلبي صوب الفرات..

كانت الشمس تأخذ شكل برتقالة هائلة تهبط وئيداً في حضن النهر وتلاشيني معها في الخضم الهادئ لألم ومتعة هذا الولوج. انحدرتْ عيناي من قلب الشمس إلى هاوية المياه المزمجرة بصمت حول دعامة البازلت التي تغيب. حدّقت في قلب الهوة حتى الغياب فانشطر وجه قلبي وتدفق فيه النهر. كان عارماً ومعذباً بصمت. جرني النهر بهدوء نحو الأسفل حتى الغرق، وارتفع بي محلقاً بأجنحة هائلة ثقيلة تنتثر منها تحت رذاذ ضوء الغروب قطرات الماء.

صعدت عيناي ببطء نحو قلب الشمس. أحسست أن الكتل في داخلي تنحل، والكتلة الكبيرة التي تشكل رأسي تذوب ثم تتلاشى. فتحت ذراعي وتراجعت. درت على رجل واحدة دورة دورتان وأنا أحدق في الأعلى ثم انسفحت.. شكّل ذراعاي المنفتحان مع جسمي الممدد ما يشبه الصليب. كانت قيامةً وكنت مغموراً فيها بالغبطة.

بعد زمن لا أعرف مقداره قمت. حدّقت في الجهة المقابلة بالنهر حيث ينساب ويذهب. صرخت فيه لقد تبادلنا دماءنا يا فرات ولم يعد لك مهرب.

في اجتماع اللجنة المركزية أبرزت وثيقة الأمين العام المدونة بخطه. كانت بسيطة وحاسمة كما هي طبيعته: "وفقاً لقرارات مؤتمر الحزب ينبني المشروع الذي وضعه الحزب على إقامة نظام وطني ديمقراطي مبني على التعددية السياسية وهذا يعني عدم العمل بالديمقراطية الشعبية التي تتبناها بعض الأحزاب وتفتح الباب للديكتاتورية، كما يعني استقلالية الحزب في اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً دون وصاية من أحد، مع التحذير من أن أي تراجع عن المشروع الديمقراطي تحت خديعة أي مساومة سوف يعني تكريس الديكتاتورية والطائفية والتشريع لها، وسوف يعني ضرب قيم الكفاح التي يجب أن تكرس بالتضحية من أجل الديمقراطية والشعب". قرأت الوثيقة وقلت أن هذا هو ملخص اجتماع قيادة الحزب قبل ضربها.

بسبب ما يشكله رياض الترك للحزب من روح ورمز جرى التصويت بالأغلبية على استمرار كفاح الحزب وفقاً لقرارات المؤتمر الخامس، وكان علي أن أنتقل إلى ما هو أكثر حساسية من هذا.. التصرف مع الرفاق الذين نسّقوا مع يوسف ظافر من أجل البيان، وخرقوا النظام الداخلي بمحاولات الاتصال مع منظمات الحزب خارج قنوات التنظيم. ابتدأت كلامي بتذكير الرفاق أن هناك نظاماً داخلياً للحزب ينص على فصل أي عضو يقوم بالتكتل أو يخرج عن قرارات مؤتمر الحزب، وطلبت بناء على ذلك فصل الرفيق ميخائيل عضو الأمانة المركزية من الحزب.

ـــ ماذا؟! تقول نورا مندهشة مما أقول. طلبت فصل ميخائيل!!؟

ـــ نعم. اتبعت سياسة طلب الكثير لأحصل على ما يمكن.

ـــ وماذا كان رد ميخائيل!؟

ـــ لم يكن حاضراً لحسن حظي وحظه، وقوبل رأيي باعتراض الأغلبية.

"إن هذا من شأنه أن يقسم الحزب".. قال أحد الرفاق، وأجبته بأن هذا من شأنه أن يفعل العكس، فاتصال ميخائيل بمنشقين عن الحزب يتفقون مع النظام يعني عملياً اتفاقه مع النظام الذي يسجن ويقتل رفاقنا الآن، ويعني أن مكانته السابقة لن يكون لها تأثير على منظمات الحزب، كما أن فصله سيمنع اتصاله الذي يجب وقفه بالرفاق، ويحول دون هز عزيمتهم.. ما نحتاجه الآن.. قلت.. هو رص صفوف الحزب حول قرارات المؤتمر الخامس، وبتر أي محاولة لخلخلة التراص.

أقول وأنظر إلى نورا. إنها مندهشة من جنوني. وأنا سعيد بإدهاشها على هذه الصورة.

ــ طبعاً.. أقول.. إن هذا مأزق يصعب حله، لكن الرفيق أبو كريم حله بطرح تجميد الرفيق ميخائيل بدل الفصل للتصويت، ونظر إلي دون أن يلحظه أحد كي أوافق. ووافقت، فقد كنت أريد كف يد ميخائيل عن منظمات الحزب في هذه المرحلة وهذا يكفل ذلك.

ــ وهكذا كتبت أنت الرسالة الداخلية التي ألقت بميخائيل خارج الحزب، والتي من شأنها أن تعلقك على الجدار. تقول نورا مستنتجة ما حدث.

ــ ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟!. لم يعد بالمستطاع الوصول إلى آلات الحزب الكاتبة في الوقت القصير الذي لدينا. كنا نخوض سباقاً مع الوقت، وكان علينا أن نكف يد سامح وميخائيل عن الاتصال بالمنظمات.

تصمت نورا مفكرة. تحتسي الرشفة الأخيرة من فنجانها.

ــ قلت لي إنني أضعك على الصراط مثلما فعل الله مع إبليس. تقول ضاحكة. هل تعتقد أن موقفك الرجولي الأحمق سيجذبني إليك أكثر مما لو اتخذت موقف السلامة.

ــ لم أفكر على هذا النحو. أقول محرجاً من انسياقي إلى ما هو محظور علي، وتاركاً لها نفسها أن تقرر.

ـ أنتم الرجال أغبياء، لكنكم محقون فنحن النساء أيضاً غبيات ونضعكم دائماً على الصليب. تقول، وألتقط إعجابها، لكنها تحس بذلك وتتراجع.
ـ لا يمكنكم إبعاد نيل إعجابنا عن مشاريعكم. تقول ضاحكة. وتستمر كمن تذكر شيئاً.
ـ تذكرت هاني. أهل يوسف يمكن أن يزورونا غداً ومن الأفضل أن لا يراك أحد الآن.. سندبر أمر رحيلك غداً وسأخبر رفاقك بما حدث. هاني أرجو أن تفهمني.. تقول وتمد لي يدها. أمسك بيدها.
ـ أعرف أنك تريدين حمايتي. أقول لها ممتناً على هذه اللحظة من حبها.
ـ الأمر أخطر مما تتصور هاني. صدقني. تقول وتدمع عيناها.

أنظر إلى الزجاجات المتلامعة أمامي على رفوف البار. أنظر إليها وهي تتلاشى بوجه نورا.
ـ ما رأيك بتغيير المكان.. يقول محمد منتشلاً إياي من شرودي. لقد يئست الفتاة من إنكليزيتي. دعنا نذهب إلى بار فيه إنكليزية تفهم العربي. يقول وأوافقه الرأي مرتاحاً كي أزيح عن صدري حجر الرحى الذي بدأ يطحنه.

ندخل ساحة الشرف الوطني في ليماسول. ندخل بار "برينس أوف ويلز" الكامن في زاوية الشارع، والمطل على الساحة. يعرّفني محمد على صاحبة البار.
ـ إنها ليندا. أميرة ويلز.. يقول ضاحكاً بالعربية التي تفهمها قليلاً. وهذا صديقي هانيبال. إنه من العراق.. يقول وأنظر إليه باندهاش مترافق مع اندهاش نظرات ليندا.

ـ قلت لها ذلك لأثيرها.. يهمس لي. سوف ترى.

ترحب بي ليندا. تناولني كأس البيرة الذي طلبت.

ـ كيف هو استعداد العراق؟!. اليوم هو اليوم الأخير للإنذار. هل تعتقد أن صدام سيصمد أمام كل هذه القوة!؟.. تسألني ليندا بالإنكليزية ويثير سؤالها الرجلان الإنكليزيان على يساري. أراهما ينظران إلي بمواربة. أنظر إليهما. لقد طلب مني محمد أن أكون هادئاً لأن معظم رواد البار هم طيارون وبحارة إنكليز. أنظر إليهما وأفكر.. هل سيذهبان اليوم للقصف، ليتني أمتلك القوة لمنعهما، هل أستطيع منعهما. أتمنى لو أستطيع ذلك ولو بالقتل.

ـ هذه الحرب ستكون مدمّرة. ديكتاتور أحمق يضع العالم على فوهة بركان. ستكون هناك دماء.. تقول ليندا وأفكر بدماء أطفال بغداد تحت القصف. أتمالك أعصابي.

ـ أنت مثل جميع الأوروبيين المخدوعين.. أقول لليندا. تردّدين مقولة الديكتاتور الأحمق اليوم، متناسية أن من أطلقها ومن يخطط للحرب ومن يريد الحرب هي أمريكا من أجل السيطرة على نفط الخليج.

ـ ولماذا يعارض ذلك صدام!؟ النفط ليس نفطه.. تقول ليندا.

ـ وليس نفط أميركا.. أقول.

ـ إنه نفط الجميع.. تقول ليندا أمام دهشتي. نعم قد تختلف معي على ذلك، لكن النفط هو نفط جميع الناس على الأرض مادمنا أبناء لهذه الأم الواحدة التي هي الأرض.. تقول ليندا ويبدأ مرجل رأسي بالغليان.

ـ نفطكم!؟ هذه آخر نكتة أسمعها. ما رأيك لو حاول أحدهم مثل ألمانيا على سبيل المثال الاستيلاء على نفط الشمال، وهل ستعتبرين هذا من حق الألمان ماداموا أبناء أمنا الأرض.

ـ نعم إذا استطاعوا ذلك.. تقول ليندا ويطير غطاء المرجل عن رأسي.

ـ منطق القوة إذن هو ترجمتك لأمنا الأرض، ياللإنكليز. ليتكم حتى أصحاب الحرب ولستم مجرد مأجورين.. أقول ويتنبه الإنكليزي.

ـ هذه حرب دولية، والمجتمع الدولي بأجمعه هو من يحارب صدام.. يقول الإنكليزي.

ـ خفة الدم الإنكليزية لا تفارقكم حتى وأنتم في هذه الحالة.. هل تصدّق أنت كذبة أنكم لستم قتلة مأجورين من قبل الأمريكان!؟.. أقول ذلك وينزل من كرسيه على البار مستعداً للعراك، وتتدخل ليندا.

ـ أرجوك ريتشارد كلنا متوترون وعليك أن تهدأ.

ـ حسناً ليندا.. يمد يده إلى جيبه ليخرج النقود. يضعها على البار.. كنا سنخرج على أية حال. فرصة سعيدة أيها السيد.. يقول لي ريتشارد ويخرج دون أن ينتظر ردي.

أتنفس الصعداء. أطلب من ليندا أن تملأ لي كأسي.

ـ لا داعي للغضب هانيبال. كلنا هنا أصدقاء.. تقول ليندا وتتجه إلى محمد الذي يراقب ذلك سعيداً.

ـ وأنت. أين كنت طوال هذه المدة ومع من أيها الليبي!؟.. تسأل ليندا محمد، وأغرق في الهدوء متأملاً الزجاجات خلف ليندا. أحتسي بيرتي وأغرق في الهدوء المتراقص أمامي بين الظلال. أرى سيارة الجيب العسكرية وهي تنهب الطريق العسكري بين دمشق وبيروت. أراني فيها. أنظر من النافذة الخلفية وأرى دمشق تبتعد. أحس بحجر الرحى يبدأ الدوران ليسحق قلبي. لقد أصبح الأمر حقيقة وها أنذا على طريق المنفى.

أنظر بعينين حزينتين في عيني نورا التي تبتسم لي مشجعة، وتمسك بيدي.

ـ لا تقلق.. تقول.

ـ لم يكن من داع لمجيئك معي.. أقول وتضحك.

ـ أنا ذاهبة لشراء ثياب لطارق من بيروت.. تقول وتترك يدي. هذه الطريقة في السفر آمنة فلا تقلق.

ـ الحواجز ليست مخوّلة بتفتيش السيارة.. يقول فضل مطمئناً إياي. ويسأل فضل نورا عن أحوال يوسف. متى يأتي، أو متى تسافر هي إليه، وهل الأحوال جيدة في الكويت. أراقب الطريق الجبلي المعشب. أفكر بالرفاق. تتداخل صورهم مع صور أشجار السرو على الطريق. كيف سمحت لنفسي أن أذهب وأترك التنظيم بيد أحمق مثل أبو مازن!؟. لكن هل كنت سأستمر بالعمل دون اعتقالي مع شخص بمثل حماقته!؟. كيف أترك معاذ مريضاً على هذه الصورة، وكيف أترك الرفاق داخل السجن وأغادر البلد!؟. لكن هل كان بقائي ينفع لإخراجهم!؟ لقد عملت وتمنيت وحلمت حتى بتهريبهم من السجن ولو عبر نفق، غير أن أحلامي تتكسر أمام قوة النظام الآن، فمن جهة نحن حزب ديمقراطي لا نؤمن بالحل عن طريق السلاح. وثانياً لقد سيطر النظام على كامل البلد بإرهاب الخوف. إن قتل الآلاف في مجزرة مثل مجزرة حماة كان كفيلاً بتغييب وعي شعبنا عن هول ما يحدث ربما لثلاثين سنة. فماذا سوف يفعل عملي السري تحت هذه الظروف. أنا كاتب، وربما استطعت المساهمة أكثر في فضح هذا النظام بالعمل الإعلامي في الخارج. لقد تواطأ الإعلام الغربي الذي تقوده أميركا مع النظام إلى درجة إخفاء مجزرة بحجم مجزرة حماة. وقد يكون لعملي الإعلامي تأثير أكثر مما لو قبعت أناقش أبو مازن في صحة اتجاه هذه الجملة وتلك في جريدة محدودة مثل نضال الشعب. إن هذا التبرير يريحني ولكن هل يعبر هذا عن حقيقة داخلي، ألا أخفي جبني وخوفي من الاعتقال تحت هذا التبرير!؟. ونورا التي ورّطتني بالخروج رغم عشقها للمتهورين والأبطال والضحايا!؟ كيف ستعاملني بعد ذلك. لقد أرسلتْ زوجها يوسف للعمل في الكويت خوفاً عليه، وقد لاح لي ضيقه

من تناقضاتها إلى درجة انصياعه للذهاب خوفاً من فقدان حبها، لكنه غامر أيضاً بفقدان حبها عندما أطاعها. هذه المرأة تذكرني برادا مكسيم غوركي التي كان زوبار سيفقد حبها لو لم يطع أمرها إليه بقتلها. لقد وضعتني في نفس الخيار الذي وضعت فيه يوسف وسقطت أنا في امتحانها. أنظر إلى المرأة التي تقتلني. أنظر إلى نورا. تنظر إلي باسمة. لقد تجاوزنا الحدود.. تقول. وتدمع عيناي. ألا أستطيع العودة. هل لك أن تتوقف يا فضل. لا. تدمع عيناي وتمر صورة معاذ بذاكرتي. أفكر في عناده للبقاء في حلب رغم مخاطر الاعتقال. أفكر في بطولته. أفكر في شقاواته معي عندما عرّفني على نورا وهو يضحك بعينيه الطفلتين للمأزق الذي وضعني فيه. أفكر فيه وهو يحتضن يد جميلة مناكداً إياي باستعارة وصفي ليديها.. "حمامة بيضاء تهدل". كم كان معاذ لائقاً بها. وكم وضعت أنا من سدود أمامه بحبي لها. لكنه وجد الرفيقة التي يحب. كم أنا سعيد بحبه لسحر بعد ألف مغامرة خيار فاشلة للنساء. أفكر بمعاذ وهو يراقصها بعذوبة إلهين حمّلا أنفسهما عبء محو آثام البشرية في آخر أمسية لها على الأرض. أفكر بمعاذ وهي تحميه من طلقات بنادق الجلادين. هذا رجل سعيد. أقول. وهذا صديقي. أفكر بصديقي معاذ يقف أمام ضابط السجن يسأله بسخرية وهو ينظر إلى صندوق أوراق الاستفتاء أمامه: "هل أنت متأكد أنه يحق لنا نحن المعتقلون لديكم الاستفتاء على الرئيس، ولماذا تمنحوننا هذا الحق الديمقراطي المبجل"!؟. أفكر فيه وهو يتلقى رد الضابط: "هذه مكرمة من السيد الرئيس". أفكر فيه وهو يضحك في البداية على النكتة ثم يرفع صوته بغناء نشيد سيد درويش الذي كنا حورناه أمام الضابط. أدمدم معه بالنشيد:

بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

أفكر بصوته العذب وهو يبعث العدوى بالرفاق الذين صفتهم إدارة السجن في الساحة للاستفتاء وهم يرفضون الاستفتاء تحت تهديد السلاح. أفكر فيهم وهم يشتعلون بالغناء:

سوريا أم البلاد　　　أنت روحي والفؤاد

وعلى هدي الوداد　　　فلتسيري يابلادي...

أفكر بمعاذ وهو يتهاوى تحت ضربات الهراوات وأعقاب البنادق لإسكات صوته المشتعل بنار الغناء. أفكر برفيقي شمس وهو يصرخ فيهم ويتناول قطعة حادة ليقطع بها شرايينه أمامهم كي يكفوا عن ضرب معاذ. أفكر برفاقي...

تتوقف السيارة أمام مكتب من مكاتب المقاومة في بيروت. يترجل فضل من السيارة. ونترجل أنا ونورا. تنظر إلي بحنان وهي تودعني..

ــ عناوين بيروت لديك. سوف يدبرون لك كل شيء وستتصل بي إلى الكويت لتطمئنني عنك من باريس. سأكون هناك بعد أيام.. تقول لي. وأنظر في عينيها. هاأنذا أودع المرأة التي تقتلني. هاأنذا أودع المرأة التي تحبيني. هاأنذا أودع جنتي. أنظر إليها وأبتسم لأزيل هذا الإحراج.

ــ لقد اطمأنيت عليك الآن.. تقول وتنظر في عيني مباشرة. تضمني بهدوء وأحس بدموعها. أنظر في عينيها اللتين تريدان أن تخبراني شيئاً وتتراجعان.

ــ حسناً هاني. يبدو أن علي أن أخبرك. لم أستطع أن أخبرك في دمشق لكي لا تتردد في الخروج.. تقول وهي تشرق بدموعها.

ــ ماذا هناك. نورا.. أقول محاولاً إيقاف دموعها التي حبستها طيلة هذه الأيام.

ـــ لقد مات معاذ بعد خروجه من السجن بأيام. تقول نورا وأقف واجماً. يبدوا أنهم أطلقوه لأن حالته الصحية تدهورت إلى غير رجعة.. تقول وهي تغرق على صدري بنهر دمعها. لقد قتلوا معاذ. تقول وتضع حجراً في عيني اللتين يتحجر فيهما الدمع.

أنظر إلى الزجاجات المتلامعة أمامي في البار. تدمع عيناي. تنشطر بحيرة عيني بسكين ليسيل دمعي. نهراً يسيل ولا يتوقف. أرى خلل الدمع ليندا وهي تدير وجهها عني كي لا تشعرني أنها تراني. أنزل من على الكرسي وأتجه صوب الباب وأخرج.

أخرج واتجه منحدراً صوب البحر. أمشي على الشاطئ. أنظر إلى الموج الفضي المتلامع المسترسل بتقدمه نحو أقدامي.

أنظر القمر الكامل الذي يقترب شيئاَ فشيئاً ليغمرني بالكامل في نور ضيائه. أخلع نعليّ بهدوء وأتقدم خطوات على الرمل. تدمع عيناي. أتجه صوب البحر. أرفع يداي فاتحاً إياهما إلى أقصى مدى نحو القمر. يا إله السماء. أصرخ وأتهاوى على ركبتيّ ثم أتهاوى على وجهي فوق الرمل وأبكي. أبكي. أتلاشى. يتلاشى ثقل جسدي وارتفع شيئاً فشيئاً نحو السماء. أرتفع لأرى خلل الرمل المترامي في الضوء نفسي ممدداً في حركة صليب على الفراش. أرتفع لأرى خلل الرمل المترامي في الضوء مدينة بغداد بقبابها الذهبية تتشكل تحتي. أرتفع لأحس أن هذه المدينة منذورة للدمار وتحتي. أنظر تحتي وأرى خلل الرمل المترامي في الضوء سهاماً نارية متراشقة تتجه إلى بغداد كما تتجه إلى قلبي. ترتفع النار في الأسفل. انفجار صامت أشبه بانفجار قنبلة ذرية يحدث. عمود دخان هائل يحمل نثار الأجساد ويرتفع في الأسفل تحتي. أصاب بالذهول والخرس. أحدّق في عمود الدمار الذي يبدأ بالتفكك كي يتحول إلى الأصفر المغبرّ. تقشع

عيناي شيئاً فشيئاً من خلال علوّي الشاهق صليباً صغيراً ممدداً يكبر ويكبر تحت ضوء قمر يكتمل وأرى نفسي ممدداً على ظهري في حركة صليب على أرض مألوفة تتجلى خلل الضوء وتتكشف لي. هي ذي أرض أحلامي. أصاب بالدهشة. أقترب بعيني لائذاً بها من حجر الرحى الذي يسحق قلبي. أحس برائحة جسدها تنتشر في جسدي وأحس بالأمان.

أرى نفسي طفلاً ممدداً على ظهره ويفتح ذراعيه كما صليب. أرى طفلاً تتواثب حوله صيصانه الصفراء وتتناقر حوله تحت رقابة ديك مصاب بخيلاء ريشه المرقش بين الدجاجات. أرى طفلاً ممدداً لا يستطيع الحراك. يقترب منه غزاله الصغير، يشمشمه ولا يستطيع الحراك. أرى طفلاً تومئ إليه شجيرات التوت وأزهار فم العصفور والخراف الوادعة الصغيرة البيضاء السمينات الإلية وهي تلوك العشب الأخضر أن يقوم ولا يستطيع الحراك. يومئ له النحل تحت رذاذ ضوء شمس لا مبالية وهو يطنّ حول الأزهار ويحط عليها، يمتص رحيق فمها المفعم بالرغبة ولا يستطيع الحراك. . تومئ له الحية بابتسامتها الأليفة الخضراء وهي تزحف على ندى الجدار ولا يستطيع الحراك. يومئ له صوت المياه الرقراقة من فم الحنفية النازل في الحوض مشكلاً رغوة هفهافة ولا يستطيع الحراك. يومئ له الضوء المتناثر رذاذاً في أرجاء المكان ولا يستطيع الحراك. أحس بأنفاس الطفل هادئة آمنة في حديقة أحلامه وأحس بالأمان. أنظر إلى الطفل. أغرق معه في سكينة أحلامه، غير أنني أحس أن علي تنبيهه كي يستفيق. أقول له حسناً أيها الطفل الوديع تزوّد برائحة طفولتك قدر ما تشاء، خذ ما تستطيع من رائحة طفولتك كيفما تشاء ولكن علينا أن نستفيق. علينا أن نستفيق لكي نواجه شمس هذا النهار.

أفتح عينيّ. أمدّ يدي من فتحة ضيقة في لحافي الأخضر إلى زر تشغيل الراديو القابع على الكومودينو بجانب سريري. أضغط وأعيد يدي إلى الدفء. تنطلق إشارة بث الأخبار من راديو مونتي كارلو: "هجوم جوي صاعق على بغداد تبثه شبكة "سي أن أن" إلى العالم فجر هذا اليوم، ويقول عنه مذيعها أنه أشبه بأسهم نارية فوق بغداد التي لم يصدر عنها أي صوت، والخبراء يقدّرون كمية القنابل التي هطلت على بغداد بضعف كمية القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما". أغمض عيني. أدفن رأسي في الوسادة. الصوت لا يريد أن يتلاشى. أمد يدي إلى زر تشغيل الراديو وأضغط. يتوقف الصوت وأدفن رأسي في الوسادة أكثر. هلام. لا أرى سوى الهلام. هلام ينتشر دون صوت، ويكبر، يكبر ليفجّر رأسي. أحس أنني محموم، وثمة ما يدفعني للتقيؤ. أقوم مسرعاً باتجاه مغسلة الحمام. أفتح الماء، وأفتح فمي ليسيل منه اللعاب كما الماء. أوجه الماء بكفي إلى ماء لعابي على أرضية المغسلة. أشعر بقليل من الهدوء. أرشق الماء على وجهي، وأغلق الصنبور. أتناول المنشفة وأضغطها بهدوء على وجهي. أعود إلى الفراش. أستلقي على ظهري فوقه لاهثاً. أحاول التنفس بعمق لأسترد هدوئي. أنظر إلى الساعة. لقد تأخرت. أرتدي ثيابي. أضع ركوة القهوة على البوتاغاز في المطبخ وأشعل النار. أعود لارتداء جاكيتي الأسود وحذائي. أنظر إلى ركوة القهوة وهي تغلي. أطفئ النار وأتجه إلى الباب. أنظر إلى الصالة. إنها واسعة على هذا الأثاث. واسعة وباردة. أفتح الباب وأخرج. أمر بجانب سور الورد. ليس هناك ما يدفعني لقطف زهرة. روحي بحيرة ساكنة ولا حركة. أصل بناء المجلة. أصعد الدرجات الخمس وأقف أمام المصعد دون أن أضغط الزر. أقف ولا أعرف كم وقفت. يضغط عماد زر المصعد دون أن يحيّي أحدنا الآخر، دون أن

ينظر أحدنا في وجه الآخر. أحس بوجومه وسكون روحه مثل بحيرة ساكنة ولا حركة. ليس هذا عماد. يصل المصعد إلى باب المجلة. نخرج منه أنا وعماد. أحس بوجوده ويحس بوجودي. يشعر كلانا بحاجة لمن يسنده. ننظر في عيني بعضنا. يفتح يده لي ونتعانق. نترك بعضنا دون أن ينظر أحدنا في وجه الآخر.

أدخل مكتبي، وأجلس. أمرّ بجانب روزا التي تنظر إلي وتخفض نظراتها دون أن أنظر إليها أو أحييها. أجلس على الكرسي الدوّار. أدور نصف دورة لأواجه ساعد المكتب على يساري. أفتح الدرج. أتناول ملفاً وأضعه على المكتب. أتناول قلماً وأدق بطرفه على الورقة دون أن أكتب. أدق دون أن يرتسم في الصفحة السوداء التي هي مخي أي خط. أدق وأنظر في اتجاه المجهول. أحس بيباس حلقي. أتناول فنجان القهوة الذي كانت نينا قد وضعته دون أن أنتبه. أرشف رشفة قوية. أنظر إلى الساعة، إنها تقارب العاشرة. عليّ أن أسمع الأخبار. لن أقف جامداً كما الأبله هكذا. أتصل بروزا. ترفع السماعة وتنظر إلي عبر الزجاج.

ــ أريد الراديو.. أقول وتعتذر.

ــ إنه يخص رئيسة التحرير.. تقول، وأقوم من مكتبي غاضباً. أدخل غرفة عائشة المجاورة لي. أنزع مأخذ الراديو وأحمله إلى مكتبي أمام نظرات روزا التي تبتسم بخفاء. تصريحات لقادة التحالف، لقد تم القضاء على معظم القوة العراقية، والعراق لا يرد. بغداد لا يصدر عنها أي صوت. أي إحباط هذا الذي يخيّم على الجميع. أغرق في حزني وأتابع. يدخل حسان. يتجه إلى مقعدي ماداً يده لي. أقوم من مقعدي، ونتعانق بهدوء لكي نسند بعضنا. يجلس بمودة ويستمع. يبدو وجهه حزيناً ومصدوماً. يحك لحيته غير الحليقة بيده الصغيرة وهو ساهم. أشعر

بالرثاء له. أشعر بالرثاء لكلينا. أنسى إساءته لي. أحس أنني أسأت له أنا أيضاً، وأنظر إلى عينيه نظرة اعتذار. أنظر إلى روزا التي تنظر هي الأخرى بقلق. تدخل عائشة المجلة بطولها الفارع وتتجه إلى مكتبها. يدخل محمد خلفها. يقوم حسان إلى مكتبه، وتنظر روزا إلى الراديو على مكتبي. أرفع السماعة، أضغط على رقم روزا وترفع السماعة بسرعة.

ــ قولي لعائشة أن الراديو عندي إذا سألت.. أقول لها وتعتذر لعدم تلبيتها طلبي بإحضار الراديو.

ــ أتفهم الأمر وأتحمل أنا مسؤوليته.. أقول لها وأقوم من مكتبي لمتابعة أمور المجلة.

أنظر إلى الساعة. إنها الخامسة. أدخل غرفة الإخراج. آخذ الصفحات المنجزة وأجلس في مكتبي لتدقيقها. الصمت يسود المكان ولا صوت. لا أحد يرغب بالكلام. لقد طال القصف القلوب والألسنة. إلى متى ستصمد قلوبهم ويصمد قلبي. لقد خرجوا للغداء دون أن يحسوا ببعضهم وعادوا دون أن يحسوا ببعضهم. أحس أن كل واحد منهم بحاجة إلى من يكلمه لكن لا أحد يقوم بالمبادرة.

أضع الصفحات المنجزة أمام عائشة وأجلس أمامها بجانب محمد. أتأمل وجهها المتعب الأسمر الجميل الذي استكان وهي تقلب الصفحات.

ــ أعتقد أن علينا اختيار غلاف العدد. نحن في منتصف يناير، ولم يبق لدينا أي وقت.. أقول وتسحب عائشة نفساً من سيجارتها.

_ هل لديك أسبرين يا محمد. أخبر نينا أن تحضر لي شاياً بالليمون.

يرفع محمد السماعة ويطلب الشاي. يسألني ماذا أشرب وأطلب القهوة.

ــ أمر لا يصدّق. عاصمة عربية تختفي هكذا. تتبخر ولا صوت. هل تصدّق هذا هاني.. تقول عائشة وأصمت.

ــ هل رأيت ذلك في التلفزيون أمس.. تقول. الصداع يقتلني ولا حل. تتألم عائشة. تعيد شعرها الأسود الجميل الذي انسدل إلى الخلف. أي شلال متعب.

ــ لدينا موضوع عن عيادات الجن في مصر. يمكنك مراجعتهم لمعرفة سبب اختفاء العاصمة. أقول مخففاً من ثقل الجو. تبتسم عائشة، ويضحك محمد لكسر ما بداخله من وجوم.

ــ لم يكفنا منع المجلة في مصر بسبب موضوع ختان البنات والوأد.. يقول محمد وتضحك عائشة.

ــ حسناً ماذا لديك من موضوعات رئيسية للغلاف؟.. تسألني وأصمت. يعود لي شرودي. ماذا لديّ. هل بقي لديّ شيء أي شيء!!.

ــ أين ذهبت البارحة. قال لي محمد أنك تعاركت مع الإنكليز في البار ومن ثم اختفيت. أين ذهبت؟!.. تسألني عائشة.

ــ أين ذهبت!؟ لست أدري فعلاً أين ذهبت. محمد يبالغ.. أقول وأحاول الخروج من حيرتي. لم تسأليني عن الراديو. دعيني أحضره لك.. أقول وأغادر إلى مكتبي. الصمت يلف المجلة. الساعة تتجاوز السادسة. الجميع غادر المكان. ألتقط جاكيتي وأخرج. ألتقي بروزا أمام المصعد.

ــ شكراً على انتظاري.. أقول لها وترد..

ــ عليك أن تشكر المصعد.

ندخل المصعد صامتين لا ننظر إلى بعضنا. نتجه إلى الباب. أقول لها وداعاً وتقول لي الوداع. أمشي وحيداً وأنظر أمامي في الشارع الطويل. أين ذهبت البارحة!؟. أذكر صوت البحر. تلتمع الأمواج الفضية برأسي وهي تتقدم. تلتمع برأسي صورة بقعة خضراء تدور في الفضاء وتتقدم. تتقدم مني وتتجلّى أمامي حديقة كاملة وأصاب بالدهشة. أرى حديقة أمي أمامي كاملة بنباتاتها وحيواناتها وقمرها. أرى طفلاً يطعم صيصانه الحب بين يديه الصغيرتين. أرى حديقة أمي وتدمع عيناي. تدمع عيناي عبر الشارع الطويل الذي ينشر ضياءه كما ضباب بين عيني. تدمع عيناي وأرى نورا خلل الدمع. لوكنت هنا نورا. أقول لها لو كنت هنا في هذا الموت. أقول لها كم أحتاجك في هذا الموت. أقول لها كم أحتاج لدفئك في هذا الموت البارد.

أفرغ ما تبقى من كأس البيرة في جوفي. أخرج قطعة الـ 10 باوند. أضعها أمام الساقية. تعيد لي بقية الحساب. أزر جاكيتي ثم أعود لفتحه وأنا أخرج. الجو دافئ. أتجه صوب البحر. أمشي بمحاذاة شاطئ البحر على يساري. أصل ساحة المشي في نهاية الكورنيش ساهماً أفكر بما يحدث. تقول الأخبار أن العراق امتص صدمة القصف الأول لكنه لم يعلن عن أي قتلى. ضعف القنبلة الذرية على بغداد ولا قتلى. النظام العراقي لم يعلن عن أي قتلى. هل هذا ما تريده أميركا. كم هو غبي أن لا تعلن عن قتلاك بعد قنبلة ذرية. ولكن ماذا سيحدث إن أعلنت عن قتلاك. ماذا لو خاف جنودك من ضخامة عدد القتلى وانهارت معنوياتهم. يا إلهي. إنها مصيدة لئيمة محكمة، والانهيار محسوم كما لو كان قطع دومينو تنتظر الدور. كم مخيف أن تتصرف قسراً كما يريد عدوك...

ـ هاي. أنظر أمامي وأرى روزا. أنت لا تعبّر أحداً. تقول بابتسامتها الساخرة الودودة.

ـ آسف أنني لم أرك. أقول وتعرّفني على الفتاة الجميلة التي ترافقها بثيابها الرياضية.

ـ هذه لونا. أختي. تقول وأمد يدي باسماً.

ـ أنت القمر!.. أقول وتضحك.

ـ هانيبال مدير التحرير.. تعرّفها علي وتمد يدها مرحبة بي.

ـ أنا أقرأ لك. أسلوبك صعب قليلاً، لكنه جميل.. أبتسم وأشكرها.

ـ إلى أين تتجهان!؟.. أسأل.

ـ كنا عائدتين من مشوار الرياضة، وأنت؟

ـ أنا لا أعرف. هل تعيدان المشوار؟.. أقول.

ـ حسناً.. تقول لونا برغبة وتنظر إليها روزا.

أمشي بجانب الفتاتين الناعمتين. أشم رائحة عطر ساحر أخاذ.

ــ آسفة بشأن الراديو. أنت لا تعرف عائشة بعد. ربما لا تبدي انزعاجها لكنها تكون غير ذلك.. تقول روزا، وأبدي دهشتي.

ــ تريدينني أن أحذر. أقول وتنتبه روزا. تتراجع بضحكة رنانة.

ــ أعرف أن عائشة تودك، وأعتقد أنك الأكثر قرباً منها.. تقول بسخريتها الودودة، وأصمت. تحس روزا أنني أفكر بما تقول. وتعتذر..

ــ أنا أمزح معك فقط.

ــ أستغرب أنك لم تنسي قصة الراديو بعد مضي يومين. أنت تبالغين في الدقة إلى درجة التردد.. أقول وتضحك ضحكة تعيد بها الثقة إلى نفسها، وأكمل. أعتقد أن لونا توافقني على ذلك. وتضحك لونا.

ــ أنت أيضاً اكتشفت ذلك.. تقول وأضحك

ــ اجتمعتما علي.. تقول روزا بطيبة. وأحاول أن أعيد لها ثقتها.

ــ أعرف أيضاً أن ثقتك بنفسك مخيفة.. أقول وتضحك روزا.

ــ والله أنت المخيف.. وأضحك أنا.

ــ ما هي الأخبار؟ تسألني قاطعة الحديث.

ــ القصف مستمر على بغداد. لكن العراق كما يبدو امتص الصدمة.

ــ هل تجلسان؟.. تقول وتجلس على الكرسي الطويل، ومعها لونا. أجلس وأنظر إلى الأشجار المضاءة بالنيون وضوء القمر.

ــ امتص الصدمة!؟ لماذا تكذبون على أنفسكم، أحس أنها مؤامرة يشترك بها الجميع. تقول ويفاجئني رد فعلها. أحاول التخفيف من وقع ذلك بالمزاح.

ــ سوف يصل اللبنانيون إلى تفسير حتى ضوء القمر هذا بمؤامرة على الأرض.. أقول وتطعنني روزا بسرعة.

ـــ بفضلكم أنتم السوريون.. تقول وأصمت. أفكر بعدم الاستمرار بهذا الحوار، وأصمت. تلاحظ روزا حزني وتعتذر.

ـــ لم أقصد أي جرح أنت تعلم.. تقول ضاحكة.

ـــ نعم أعلم. لست متضايقاً لكنني أفكر بالذي أوصلك إلى هذا.. أقول وتضحك.

ـــ فضلنا. نعم إنه فضلنا لكنه فضلكم أيضاً.. أقول ونضحك متصافيين. أسترخي في جلستي وأتأمل القمر الذي يغطيه السحاب.

أضغط جرس باب نصير. يفتح لي سِراج الباب. أهلاً عمو. يقول وأدخل. يستقبلني نصير فرحاً وخلفه أحلام مستبشرة، ويملأ قلبها أمل تحاول احتجازه كي لا يهرب.

ـ جئت بوقتك. العراق ما زال صامداً أمام القصف، وهدد أيضاً بقصف تل أبيب. يقول نصير دافعاً أمل قلبه في اتجاه تحقيق هذا الأمل. وأصمت أنا. أفكر بكلام روزا حول المؤامرة.

ـ سوف أعد لك كأسك ريثما يحين موعد الأخبار. يقول ويتجه إلى المطبخ.

ـ يا رب. دعه يفعلها. تقول أحلام راجية السماء. سوف يقلب هذا موازين الحرب. سوف تدخل إسرائيل الحرب وتصاب الدول العربية الداخلة في التحالف بالإحراج. تقول أحلام وأفكر. نعم ربما تصحو جثة هذا المارد الممدد من الماء إلى الماء. أفكر. هذا وحده الذي سيقلب ميزان القوى، لكن هل سيصحو المارد ويقوم.

ـ تفضل. يقول لي نصير مقدماً كأس الفودكا بالكريب فروت وناظراً إلى الساعة التي قاربت الثامنة. يضغط زر الراديو وتشتعل شارة أخبار مونتي كارلو. أمتص كأسي بهدوء وترقب. ينطلق صوت فريدة الشوباشي باعثاً بقلبي الأمل.

ـ "تطور دراماتيكي في سير الحرب. صواريخ سكود عراقية تنفجر في تل أبيب والذعر يسود إسرائيل". يا إلهي ينفر الدمع من عيني بصمت. تقفز أحلام مثل فتاة صغيرة طائرة فوق أجنحة الجنون.

ـ هيييي هيي هيي ضربها ضربها.. تصرخ وتقفز وتطلق زغرودة طويلة مع انبساط السعادة على وجه نصير الذي ينظر إلي ويده على خده.

تنطلق زغاريد أحلام وينفر من عيني الدمع. يقفز أولاد نصير مهللين: النصر النصر. ياإلهي. ينفر من عيني الدمع ويسيل بصمت..

يهدئ نصير زوجته والأولاد كي يواصل سماع الأخبار. "الحرائق التي ولّدها الانفجار ترتفع في سماء تل أبيب".

ـ عمو لماذا تبكي. يقول لي الولد الصغير. سوف ننتصر عمو سننتصر. لماذا تبكي. أنتبه إلى نفسي. أشيح بوجهي عنه وأمسح دمعي.

ـ أنا لا أبكي عمو أنا لا أبكي. أقول له وينزل دمعي السجين سيلاً يتفجر من صخور الأحزان التي تراكمت في صدري. يا إلهي دع هذا يكون. فقط من أجل فرحة هذا الصغير. فقط من أجل زغرودة هذه المرأة الرائعة الوادعة. ياإلهي. دع هذا يكون فقط من أجل فرحة هذا الصغير.

أتأمل أصابع عائشة الطويلة وهي تقلّب صفحات المجلة المخرجة أمامها. أختلس النظر إلى وجهها الأسمر وعينيها الوحشيتين كي أعرف انطباعها غير أني لا أخرج بنتيجة. تأخذ سيجارتها من المنفضة. وتسحب نفساً طويلاً.

ــ ما رأيك يا محمد!؟. تقول موجهة كلامها إلى زوجها الهادئ كعادته.

ــ جيدة. لدينا مواد عدد جيدة. لكننا مازلنا محتارين بموضوع الغلاف. ناقشت الأمر مع هانيبال ونحن متفقان أننا لا نستطيع إصدار غلاف حيادي في هذا الجو المتوتر الذي ينسحب على الجميع. سوف نحاول التركيز كمجلة نسائية على قضية المرأة والحرب، ولدينا تحقيق جاهز مخرج عن المرأة اللبنانية والحرب، لكنه يصلح برأيي كموضوع مساند لموضوع الغلاف الذي يجب أن يتناول موضوع الحرب وانعكاساتها على الأسرة العراقية، والأطفال العراقيين. الأحداث تسير بسرعة. منذ أيام أطلق العراق صواريخ سكود على تل أبيب، وإسرائيل تهدد بدخول الحرب، والحكومات العربية المتحالفة مع أمريكا ترجوها أن تهدّئ إسرائيل خوفاً من انفجار الشارع العربي.. لا أعرف ما الذي سنركز عليه اليوم ويفاجئنا بتغيره ونحن نطبع العدد. أعتقد أن علينا إيجاد موضوع إنساني فلم يعد ممكناً التنبؤ بشيء وإن كان واضحاً أمامنا. يصمت محمد وتنظر إلي عائشة. أغمغم في البداية ثم أسترسل.

ــ أعتقد أن الأمر هو كما أوضحه محمد لكن لاستكمال الصورة أكثر أعتقد أن هناك شراسة في القصف تستغل أي حركة يقوم بها العراق لزيادة التدمير، وليس صحيحاً أن العراق لم يتأثر. الإعلام الأمريكي وخلفه الإعلام العالمي يعملان كمسحوق غسيل لتنظيف دم هذه الجريمة. سوف تكون هناك انعكاسات على الشعب العراقي وعلى المرأة العراقية،

والأطفال العراقيين.. أعتقد أنه يمكننا المراهنة خلافاً لما يقوله الطرفان على أن هناك تدميراً سيعيد العراق إلى القرن التاسع عشر فعلاً كما صرّح الأمريكيون. يمكننا استخدام موضوعات مساندة أخرى مثل موضوع استفتاء المثقفين حول الحرب. لدينا مقابلة مع ميشيل بوتييه عن وقوف المثقفين الأوروبيين ضد الحرب وضعت لها عنوان: " لأننا لسنا كلاباً ". لا أعرف إن كان أعجبك.

أقول لعائشة التي تهز رأسها وتبتسم.

ـ نعم إنه مناسب. أعتقد أنكما محقان. من سيعد موضوع القصف والإعلام؟.. تقول وتنظر إلي ويضحك محمد.

ـ تكفيني افتتاحية العدد.. يقول. ويسقط في يدي. يرن جرس التلفون. ترفع عائشة السماعة.

ـ مكالمة لك هاني من فرنسا. أين تحب أن تتلقاها. تقول وتبتسم. خذها من مكتبك.

أقوم على مكتبي مسرعاً. وتقول لي عائشة:

ـ سلم لي على نورا. اسألها عن رسومات قصة العدد.

أرفع السماعة بسرعة. أشير لروزا بيدي. شكراً. تضع روزا السماعة وتبتسم.

ـ أهلاً نورا. كيفك. كيف طارق. متى تأتين.. أقول قبل أن تلتقط أنفاسها.

ـ لماذا تريدني أن آتي.. تقول ضاحكة، وأضحك.

ـ أنت قلت لي أنك حصلت على عمل هنا.. أقول مدارياً انسكابي.

ـ نعم. لكن لماذا تريدني أن آتي.. تقول حاشرة إياي في الزاوية.

ـ هل قلت أنني أريد أن تأتي.. لقد سألتك فقط متى تأتين.

ـ يعني أنك لا تريدني أن آتي.

ـــ الله أكبر. ماذا تريديني أن أفعل. حسناً أنا أريدك أن تأتي لأنني أحتاجك. وسأصرخ. أنا أحتاجك نورا أحتاجك.. أقول بصوت عالٍ، وتضحك روزا. تقوم من مقعدها مسرعة، وتغلق باب مكتبي المفتوح لتكتم صوتي الذي ملأ المجلة.

ـــ تفضلي. المجلة كلها تسمعني. وهم يخرجون من مكاتبهم ويحيونني. هل أنت مبسوطة.. أقول وتضحك.

ـــ ما الذي قال لك أنني مبسوطة.

ـــ يعني مبسوطة.. أقول وتصمت. يسود الصمت بيننا يبدو أننا تمادينا قليلاً. أخشى أن أفقدها.

ـــ نورا. أين أنت.

ـــ نعم هاني أنا معك معك.. تقول.

ـــ مشتاق لك. وسأموت إذا لم تأتي.. أقول وتصمت.

ـــ أنت لا تشجعني بهذا على المجيء إلى قبرص. أنت تعلم. ربما سيتأخر حضوري إلى الربيع. مشاكلي مع يوسف لم تحلّ. إنه في عمّان الآن، وأخبرني أنه مصرّ على أخذ طارق كشرط للطلاق. لكننا اتفقنا على تأجيل هذا الأمر. أخبرته أنني أريد السفر إلى قبرص للعمل، ولكنه عارض نقل ابنه من باريس. إنه ينوي اللحاق بي إلى هنا إن أتيت. تقول وأفكر بيوسف. كيف استطاع أن يفقدها. كيف خانها. أعلم أنه يحبها حتى الموت، وسيفعل أي شيء لاسترجاعها. نحن الرجال أغبياء حقيقة. لكننا لا نستطيع أن نكون غير ذلك، والنساء يحببننا على هذه الصورة لكي يمتلكن الحرية التي سلبناهن. هل تتساق نورا إلى منطق النساء نفسه. هذه المرأة تعتز بحريتها وكيانها، إنها رسّامة وتعلم أنها مميزة. تحب الرجال المميزين، وقد انخرطت حتى الخطر بعالمنا. أعلم أنها تحب يوسف. وقد وضعته أمام خيارات صعبة على رجل. سوف لن أشك أنها هي التي

دفعته بتصرفاتها للبحث عن حضن امرأة أخرى رغم أنها مستعدة أن تقتله على ذلك. ياللنساء ويالنا نحن الرجال. أي مأزق وضعنا أنفسنا فيه بهزيمتهن. وأنا، أنا الشقي بين جميع الرجال. لقد أحببت فتاة طفولتي، ورتبت الحياة لنا أن تكون لآخر. أعلم أنها تحبني، لكنني لا أستطيع تحديد ماهية هذا الحب. أفكر بيوسف. إنه رجل مميز وأحترمه، غير أني أحب المرأة التي يحب، وما ذنبي أنا، لم لا يكون هو الدخيل، فهي فتاة طفولتي.

ــ حسناً نورا. اهدئي. سنجد حلاً. كيف هي أحوالكم في باريس.

ــ الجميع قلقون هاني. لقد بدأ الفرنسيون بطرد بعض الذين وقفوا ضد الحرب، والأحوال المعيشية تتردّى. الكل متضايق وقلق على المستقبل.

ــ وأنت نورا. أنت. هل تحتاجين إلى شيء؟

ــ شكراً هاني. أحوالي جيدة ويوسف لا يقصّر من هذه الناحية..

ــ حسناً نورا. عائشة هنا تسلّم عليك. وتسأل عن الرسومات.

ــ لقد سلّمتها لسامح البارحة وأعتقد أنه أرسلها لكم. بالمناسبة هاني وضع سامح المادي سيء. أنت تعلم ذلك. لقد رفض العمل في الصحافة الخليجية ووقف ضد الحرب. ليس لديه دخل سوى دخل مراسلاته لجريدة القدس، ودخلكم. لكنه لم يستلم منكم شيئاً منذ مدة. تقول وتعتصر قلبي. ماذا جرى لعائشة!. كيف يتصرف هؤلاء المثقفون!.

ــ سأخبر عائشة بذلك. وسأتابع إرسال النقود بنفسي. أعتقد أن عائشة تشكو من التمويل كما أخبرني نصير. أنظر باتجاه روزا المتشاغلة بالضرب على آلتها الكاتبة. إنها تسخر من ثقتي بعائشة، وقد حاولت أن تحذرني مراراً دون أن تتورط بذلك.

ــ ماذا هاني. أين أنت.

ــ أنا معك نورا. سأدبر هذا الأمر.

ــ حسناً هاني إن هذا هو المهم الآن. سلم لي على الجميع.

أودع نورا، وأفكر بسامح. صديقي الجميل، الصحفي الذي لم يبخل على صديق بمساعدة، ولا على مجلة جادة متطورة بتحقيق. ماذا علي أن أفعل. أفكر أن الأمر يحتاج إلى بعض السياسة. أقرر أن أخبر محمد اليوم بوضع سامح أمام نصير بكل براءة، ولا أعتقد أنه سيتردد مع عائشة بإرسال النقود. أنا أعلم أن محمد وعائشة إنسانان جيدان وقد قال لي نصير الذي يعرف أحوالهما أنهما يعانيان من انقطاع التمويل، وليس هناك أي مورد من الإعلان، وأنهما وعداه خيراً مع مشروع مشاركته بطبع الكتب.. أعتدل على الكرسي. أضع يدي على المكتب وأطبق كفّيَ راحة لراحة واضعاً سبابتهما على فمي في حركة تأمل كما راهب. أنظر إلى روزا ساهماً وتنظر إلي ثم تزيح نظراتها عني إلى آلتها الكاتبة. أفكر بأنها خمّنت ما أريد القيام به. أغمض عيني. أغرق في لون أسود. أضغط بشفتي على أصابعي قليلاً وينقلب الأسود إلى لون البرتقال. يتكاثف اللون ويتبدد، يتبدد ليتجلّى أمامي وجه نورا. وجه شجرة المشمش إياه المنمّش بتويجات بيضاء. وجه شجرتي التي تحيطني بحنانها حتى التلاشي.

أشرب كأس الحليب بسرعة. أضع الكأس على طاولة المطبخ المستطيلة البيضاء. إنها كبيرة بالنسبة إليه. أنظر إلى ركوة القهوة في المجلى. أنظر إلى الساعة. ليس هناك وقت. لو كنت غسلتها في المساء، ولكن لا بأس. سأحتسي قهوتي في المكتب. إنها الثامنة إلا عشر دقائق. بطني تمغصني قليلاً. لقد شربت الحليب بسرعة. هيا. أنظر إلى المفتاح في الباب من الداخل. علي أن لا أنساه. أفتح الباب وأنظر إلى النافذة المشرقة بالشمس. إنه يوم مشرق. ولكن لماذا تستطيل الصالة هكذا. إنها كبيرة وباردة. الأثاث صغير عليها. كيف أكسوها بما يدفئ. أخرج وأغلق الباب خلفي. ياإلهي، قليلاً. أضع رجلي على الباب كي أمنع انطباقه ولكن دون جدوى. لقد نسيت المفتاح معلقاً في قفله من الداخل. ثلاثة باوند أخرى. سوف يجني الإطفاء ثروة من ذاكرتي المثقوبة. أضحك. علي أن أسرع. المصعد في الطابق التاسع. ستكون رحلة طويلة. أهبط الدرج بسرعة. إنه طابق واحد لا أكثر. تستقبلني الشمس في الشارع. إنها دافئة لكنني أشعر بالبرد. الطريق ليست طويلة. علي أن أسرع. أزهار البيوت المطلة من أسوارها تغريني بالتوقف وقطف زهرة. لا وقت، ولكن.. زهرة. زهرتان على الأقل. أقطف ثلاث زهرات. سوف أدفئ مزهريتي بالأصفر هذا اليوم. الثامنة وخمس دقائق. أنا على الوقت تقريباً أمام البناء. ألمح مدير شؤون الموظفين الذي أدعوه رجل الجليد في نهاية الشارع. إنه متأخر عن الموظفين. ألوح له بيدي. أنت شاطر في إصدار قرارات الالتزام بوقت الدوام ولكنك تتأخر. كان علي أن أتأخر لأشعره بخيبة كوني خارج سلطة قراراته. لكن ماذا أفعل. ليس لدي الوقت. أطلب المصعد.

يهبط ضوؤه أمامي. لن أنتظر الرجل المحنط. يا إلهي. إن رائحتها في الداخل. هذا أول دفء. سأنتظر قليلاً قبل أن أضغط الزر. مزيداً من

رائحة الدفء، ولكنها تتسرب، والرجل الجليدي قادم. لا أريد اختلاط رائحته برائحتها. سأتنفسها خالصة بذاتها. أضغط زر المصعد. أسحب الرائحة معي. أدخل المجلة. إنه صوت مفتاحها. سأمر بجانبها مباشرة. صباح الخير. تجيبني مشرقة صباح الخير. أشم وأشكرها على الدفء. تستغرب ذلك ثم تضحك. تدخل مكتبها. أراقبها خفية لكنها تعرف أنني أراقبها. تنشغل بترتيب مكتبها محمرة الوجه من مراقبتي. تتجه إلى آلتها الكاتبة. تزيل غطاءها عنها، ثم تتجه إلى الفاكس. تأخذ الأوراق المرسلة وتقرأ. تنظر خفية باتجاهي عبر الزجاج. أرفع أزهاري من على المكتب. أضعها في المزهرية. أنظر باتجاه الفتاة التي تشعرني قصداً أنها تراني. أحييها بيدي. أنا أيضاً أراك. وتضحك.

"مهرجان الخليج. أسهم نارية وجثث". هذا هو عنوان الغلاف. معرض أسلحة أميركي في اللحم العراقي الحي. أقول لعائشة وأنا أضع العنوان أمامها. لكن أين الموضوع. تسألني عائشة. إنه هنا في الرأس أقول لها.

لا أعرف إلا أنني أمتلك صورة الرئيس الأميركي يجمع مساعديه. "أون تايم". يصب كأساً ويجلس. على الوقت بالضبط يرفع الريموت كونترول ويفتح التلفزيون على قناة السي أن أن. ويبدأ البث. أسهم نارية تتطاير في سماء بغداد. يقول المذيع. لم أر في حياتي مثل هذا المشهد. هذا بهيج. بهيج لكنه يعني ضعف القنبلة الذرية التي ألقيت فوق هيروشيما ولا قتيل. العراقيون لم يعلنوا عن أي قتيل. إنها الحرب النظيفة بالأسلحة الأكثر دقة ونظافة. بوش يخلع قفازاته البيضاء وينظر إلى مساعديه بابتسامة عريضة. ما رأيكم. هذا الذي برأسي الآن. هل تشعرين بالبرد. إنها دافئة، تقول لي عائشة. الصالون لدي بارد. إنه كبير. أفكر أن أفرش الأرضية. هل تريدين شيئاً الآن. علي أن أخرج باكراً لاستدعاء الإطفاء كي يفتحوا لي الباب. المفتاح مرة أخرى؟ تسألني عائشة وهي تضحك. لماذا لا تترك

المفتاح لدى الإطفاء وتنهي المشكلة. إنهم جيرانك. كنت فعلت ولكن المفتاح هذه المرة في الباب من الداخل.

ـ كيف تبقين على عطر الورد فواحاً في مكتبك؟!.. أقول لروزا التي تنظر إلي من خلف مكتبها متوقعة مني هذا ومبدية استغرابها في الوقت نفسه.

ـ لم آت لأستدفئ بالعطر فقط. أحتاج إلى دليل في التسوق. اليوم سبت وقلت أنك لست مشغولة بعد الظهر. إذا لم تكوني مشغولة.

ـ لماذا لا تطلب من حسان. إنه صديقك الآن. انظر قبل أن يغادر مكتبه.. تقول روزا بتهكم. وأنظر إليها محاولاً سبر داخلها.

ـ حسناً أشكرك على النصيحة.. أقول وأنا أخرج.

ـ انتظر. إنني أمزح. تقول روزا. الساعة الثالثة عند كشك التلفون في الكانيكا.

أغرق مستمتعاً في زحام أسواق ليماسول.

ـ هل تحبين الزحام؟.

ـ أحياناً.

ـ أنا أحب زحام الأسواق الشعبية. أحب الاحتكاك بالبشر. أقول لروزا التي تضحك وهي تكشفني مختلساً النظر إلى أجساد السائحات الممشوقة المدوّخة.

ـ خاصة البشر الشقر!.. تقول ضاحكة. وأضحك.

ـ إنه مهرجان حقيقي. لكنني ما زلت أشعر بالبرد. لقد أتعبتك معي. آسف لأن ذوقي صعب.

ـ لا عليك. المهم أن تجد طلبك. دعنا ندخل هنا. تلك أنواع أخرى من البسط الشعبية. ما رأيك. أتأمل البسط. البائع يتحفز بانتظار إشارتي.

أتخيل مدى انسجام البسط مع الأثاث. مع لون الجدران. مع أرضية صالون البيت الواسع البارد، ولا أصل إلى حل.

ــ هل لديك أنواعاً أخرى. أقصد ألواناً أخرى. زخارف أخرى. أسأل البائع الذي يقابلني بلا، هذا هو الموجود. تتأملني روزا وأنا أتلمس البساط.

ــ إنه لن يدفئ صالوني بهذا اللون. لقد أتعبتك. أقول لها معتذراً. سأتوقف عن البحث. دعيني أكفّر عن ذنبي بدعوتك إلى فنجان قهوة. هل تعرفين مقهى هنا.

تنظر إلي روزا. تشكرني.

ــ لاداعي لذلك. أنا أريدك فقط أن تحصل على طلبك. تقول وأرجوها أن تقبل.

ــ حسناً هناك مقهى قريب.. تقول روزا، وندخل إلى المقهى.

ــ أنت صعب الإرضاء فعلاً. لولم أعرف أنك تعرف ما تريد لقلت أنك متردد.. تقول روزا متأملة إياي وأنا أحتسي قهوتي.

ــ أنا أعرف ما أريد!؟ هل تظنين ذلك حقاً!؟

ــ نعم. ويعجبني أخذك للقرار. أذكر عندما جلست إلى مكتبك أول مرة ولاحظت أن الأقلام التي كانت على المكتب هي نفسها الأقلام التي استعملها سابقك، قمت من مكتبك وسفحتها أمامي قائلاً بأدب أرجو أن تضعي على المكتب أقلاماً جديدة كلياً. تقول وأنظر إليها بدهشة. نعم. قلتُ في البداية أنك صاحب بوزات، لكني تأكدت من صدقك عندما اختلفت مع عماد.

ــ هل هذا يعني أنني أعرف ما أريد!؟.. أقول وأتأمل وجهها المحرج من نظراتي. نعم أنا أعرف ما أريد أحياناً. لكن صدقيني روزا. أنا لم أنصب فخاً لإحضارك إلى هنا. كنت أبحث فعلاً عما يدفئ صالوني،

واعتمدت على ذوقك. أقول لها وتنظر إلي محرجة. أدرك حماقة اعترافي.

ــ ليس هذا اعترافاً يقال لفتاة فأرجو أن تعذريني.. أقول.

ــ لا عليك، أنا أفهم هذا وأقدره، لو كنت عرفت أنك تنصب لي فخاً لما خرجت معك. تقول وتضحك. لكن هذا يزعجني قليلاً. نعم لماذا لا تنصب فخاً؟.. تقول وتتورد بالضحك، وأضحك من قلبي أضحك.

ــ أخشى أن لا تخرجي معي عندها.

ــ وما أدراك؟.. تقول ضاحكة ثم توقف المزاح. لا عليك. أنا راشدة، لكنك الوحيد الذي خرجت معه من المجلة. دعني أوضح لك. أعلم أننا راشدان لكن من في المجلة ليسوا كذلك. قد تقول أننا في ليماسول، في بلد حر، لكن صدقني إن كلاً منا يحمل قريته في داخله، ولهذا تراني حذرة. تقول وأنظر إليها أن تكمل.

ــ لن تستاء إذا طلبت منك أن لا نخرج معاً. لا تسئ فهمي. لقد خرجت معك لأنني أحسست بضرورة ذلك، أحسست بحاجة صديق إلى من يرافقه. أنا أعزك كصديق، وإن كنت سورياً!!.. تقول جملتها الأخيرة مداعبة لي وتضحك. سوف أدعوك لزيارتنا في البيت، وسوف أعرّفك على أمي وأختي.

أضحك مرتاحاً. أحس بالدفء. إن هذا المكان دافئ. إنه مكان جميل. أقول ذلك لروزا. هادئ وجميل. أتأمل المكان. أتملى صورة الطاولات الموزعة ببساطة. أتملى ألوان الشراشف الكارو بالأبيض والأزرق مع الكراسي البيضاء التي تشيع في المكان دفء جوّ يوناني بحري خالص. أين كان هذا غائباً. لمَ لم أكتشف كل هذا في جميع صولاتي وجولاتي في بارات ليماسول. لمَ لم أكتشف دفء هذه الجنة. يا لهذه المرأة التي تمنحني

دفأها وصداقتها. أحتسي قهوتي باطمئنان. وأنظر إلى لطخة الأحمر الجميل على فنجان روزا بحيادية.

ــ لم تقل لي. لماذا اخترت بيتاً واسعاً للسكن. استوديو كان يكفيك ما دمت وحيداً. تقول وأنظر إليها. أفكر قليلاً. أحس بالارتياح أن أصارحها بأحلامي.

ــ لقد فكرت فيه على أنه بيت عائلة. لقد فكرت بالزواج.

ــ من نورا؟.

ــ نعم. وفكرت بهذا البيت أن يكون جنتنا الصغيرة. هذه غرفة نومنا وهذه غرفة ابنها طارق الذي سيكون ابني. لقد فكرت أن أستقر مع المرأة التي أحس بالدفء بين يديها. ليتك تعرفينها. الدفء الذي يشع مني أحياناً يشع عندما أفكر فيها، لقد مررت بما جعل حياتي قارة من الجليد، ودفؤها وحده هو من بقي يرافقني. لقد ملأتُ البيت بأحلام دفئها، بحنان وجودها، بضحكات ابنها. رائحة المطبخ، لن تصدّقي أنني أشم فيها رائحتها رغم أنني لا أطبخ. السرير. ياإلهي. لقد أحضرت معي من باريس لحافاً أخضر بلون الفستق الذي أحس أنه لونها. لقد اخترت أنعم ما وجدت في باريس كي أحس بوجودها قربي عندما أنام. لكنني لا أعرف ما الذي تغيّر. منذ فترة أحس بالبرودة. الصالون بالذات بدا لي كبيراً وبارداً. لم أعد أحس بالأمان، ولهذا تريني أبحث عن بساط شعبي لفرش الأرضية دون أن أهتدي إلى ما يشعرني بالدفء. أقول لروزا وأحس أنني أتمادى بتدفق عواطفي أمامها. هل يحق لي ذلك.

ــ هل يزعجك حديثي عن خصوصياتي.. أقول لها معتذراً.

ــ بالعكس. إنما لم تقل لي.. هل هي سورية... مثلك؟.. تقول مداعبة.

ــ بالمعنى السيء أم الجيد؟.. أقول مجارياً إياها في دعابتها.

ــ بالمعنيين.. تقول ضاحكة وتتابع.. أنت تعلم. لقد عانيت تجربة سيئة مع السوريين.

ــ أعرف أن من تعنين ساعدوكم. أنتم أحضرتم الوحش إلى بيوتكم!؟ أو أنتم فرحتم بإحضار الأمريكيين للوحش إلى بيوتكم!؟

ــ هذا ما بدا في البداية، لكن الوحش هدم بيوتنا على رؤوسنا!؟ تقول حزينة وغارقة في الذكرى.

ــ أنا آسف روزا.. أنت تعلمين أن شعبنا ليس له دخل بذلك.

ــ عندما يتهدم بيتك على رأسك لا تعود تميز بين جيد وعاطل.. لقد هدمت مدافعكم بيتنا. ولولم نختبئ أنا وأمي تحت السرير لمتنا.

ــ أنا آسف روزا.. لكنها ليست مدافعنا. إنها مدافع النظام الذي تعاملت معه عصابات طوائفكم. وأنت نفسك تعرفين ذلك وتتصرفين على أساس ذلك. معظم أصدقائك هم سوريون.

ــ من قال ذلك!؟

ــ لا أعرف! لكنك تدافعين عن حسان، وأعتبرك صديقتي.

ــ أنت تتوهم.. تقول ضاحكة ومداعبة ومؤكدة ذلك، وتتابع.. إنما لم تقل لي كيف التقيت بنورا!؟.. تقول وتعيدني إلى شرودي. أسترجع وجه الفتاة الصغيرة المذعورة هرباً وبيدها مجلاتي.

ــ إنها صديقة طفولتي. ابنة صديقة أمي التي تعرّفتْ عليها قبل أن أولد، في مدينة الرقة القريبة من مدينتنا. كانت أمي المغرمة بالحكايا والأساطير تزور أحد أولياء الله في الرقة واسمه أويس القرني عندما تأخر حملها بي، وشعرتْ بالتعب فراجعت الطبيب. وكان والد نورا. هم في الأصل ليسوا من الرقة. كانوا من مدينة حماة، والتقى الغرباء بالغرباء ونشأت صداقة متينة بين أمها وأمي... مع مرور الزمن أصبحت نورا صديقة خالتي التي تكبرها بسنتين، وكانت هي وخالتي تتآمران علي، وتسرقان مجلاتي...

توفيت خالتي صبية في حادث أليم، وعاد أهل نورا إلى حماة. تفرقنا، ومضى الزمن... في الجامعة كنت مجنوناً وأعلنت في شطحة من شطحات جنوني أنني مرتحل لأتزوج مصممة غلاف رأيت غلافها صدفة دون أعرفها، ولم أكن أعلم أنها هي نفسها نورا. التقيت بها، وعلمت أنها من أعلنتُ عنها لكنها كانت قد تزوجت.. ومضى الزمن... التقيت بها بعد ذلك في باريس. كانت علاقتها بزوجها على وشك الانتهاء، فقررت أن أعود إلى حياة فتاة طفولتي.

ـ واو.. إنها أشبه بفيلم هندي. تقول وأضحك.

ـ لو اطلعت على التفاصيل الأسطورية لهذا الفيلم ستصابين بالدهشة. أنا أعمل على تسجيل أحداث وتطورات وعقد هذه العلاقة كرواية. وربما ستكونين أحد أبطالها. كتبت ووضعت الكثير من المخططات لبنيتها، لكنني أشعر بتجمد أحاسيسي. ليماسول بدأت تجمدني بالقلق.

ـ أنا أيضاً أحس أن ليماسول لم تعد كما كانت من قبل. أحس أنها أقل دفئاً من قبل.. لا أريد ان أحبطك، لكنني أحس أن تركك لباريس كان خطأ فادحاً. كان عليك أن تحتمل. لا أريد أن أحبطك لكنني أخشى أنك لن تجد البساط الذي تبحث عنه.

أنظر إلى نصير. جيئة وذهاباً يروح في الصالة متابعاً صوت فريدة الشوباشي المقاتل من إذاعة مونتي كارلو. الحرب البرية بدأت بعد أن أنهك القصف بغداد. الجيش الجمهوري العراقي الذي أوصل الإعلام الغربي قوته إلى الأسطورة يتراجع. البنتاغون يضرب ستاراً من الصمت على العمليات. لا أحد يعرف ما يحدث، ولا أحد يستطيع إحصاء عدد القتلى من الجانبين. أتأمل نصير ملفوفاً مثل اسطوانة بالروب ديشامبر الكارو. جميع الحلبيين يتشابهون في الشكل!.. أقول في نفسي دون أن أضحك هذه المرة. أتأمل لحيته الطويلة وشعره المنكوش من الخلف. تنظر أحلام إليه منتظرة أن يعقب على ما يحدث، أن يريحها بتعليق. أقرأ ما تفكر فيه. ها هي حربك البرية التي كنت تنتظرها لكي يلقن العراقيون أميركا الدرس قد بدأت، ولكن على أي أساس. يحس نصير بنا جميعاً ننظر إليه.

ــ لن يستطيع الأمريكان تحقيق انتصار في الحرب البرية. أعتقد أنهم يخافون من تكلفة القتلى. وأعتقد أنهم سيتوصلون إلى تسوية مع صدام. يقول مستمراً في تحليله الهادئ المطمئن. وتنفجر أحلام.

ــ يكفي نصير لقد فلقتني بتحليلاتك. أرجو منك أن تصمت، تصمت. تقول منفجرة بالبكاء وهي تغادر الصالة.

ينظر إلي نصير مغتصباً ابتسامة. أنظر إليه متأثراً من خيبة أحلام.

ــ سوف أضع آراء محلليك العسكريين في مؤخراتهم.. أقول له منفجراً بالغيظ. عليك أن تعود إلى الواقع. زوجتك آمنت حتى الموت بتفاؤلك الساذج: "لن تقع الحرب. الأمريكان يخشون من عدّ الجثث. لن يستمر القصف. هناك رأي عام عالمي. الحرب البرية سوف تجبر الأمريكان على التراجع. الحرب البرية وقعت. سوف تطلب أمريكا تسوية مع

العراق"!! أفق لنفسك يا نصير، وارحم زوجتك. ثمة من يقول أنهم دفنوا أكثر من مائتي ألف جندي عراقي معظمهم أحياء لا حول لهم ولا قوة بعد هذا القصف في الصحراء. لم يعد هناك جيش ليقاتل بعد هذا القصف.

ينظر نصير إلي مستغرباً. ويجلس أمامي على الكنبة المفردة. يتناول كأس الفودكا. يشرب قليلاً. يغصب نفسه على الابتسام.

ـ الشعراء والنساء يفكرون بقلوبهم. عليك أن ترى واقع القوى على الأرض.. يقول لي. وأفكر أنه لا فائدة ترجى. كيف أوضح له سذاجة تفاؤله. أحس أنه يدافع عن نفسه بهذا التفاؤل كي لا ينهار. أفهم فجأة طريقته في المقاومة. أتعاطف معه، ولكن هناك بشراً آخرين يؤذيهم هذا الأسلوب. كيف أتصرف مع نصير.

ـ اسمع يا نصير. كلنا نتألم بشكل أو بآخر. كلنا مصدومون ومفجوعون. أنا لا ألومك على طريقتك في مقاومة الانهيار ولكن علينا أن نكون واقعيين كي لا تنقلب المقاومة إلى تحطم للذات أمام مواجهة الحقيقة. أنا شاعر. نعم لكني أيضاً إعلامي وأفهم اتجاهات خطاب فريدة الشوباشي. أنا لا أعتبره تفاؤلاً ساذجاً. لكني أعتقد أنها تفهم الحقيقة، وهي توجه خطاب تماسك إلى الذات. تستنفر عناصر المقاومة في الذات من خلال مقابلاتها مع المحللين العسكريين. لكن أن تحوّل هذا أنت إلى عنتريات، فتلك مصيبة. انظر إلى رد فعل زوجتك على إيمانها بتحليلاتك. أقول وأنظر إليه راجياً أن يتفهم. يشيح بنظره عني ويسترخي على الكنبة.

ـ هل تريدني أن أتركك الآن. أقول له.

ـ لا لا . دع الأمر طبيعياً وقد يساعد وجودك أحلام. يقول. حسناً، لنشرب نخب مقاوماتنا.

ملكـــوت

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة. أسمع صوت هدير مألوف. أسمع صوت هدير نهري وأراه. أراه قادماً بهديره في اتجاهي. أنظر إليه من مكاني المعتاد على الجسر. أنظر إلى مياهه الهدارة حول عمود البازلت الأسود تحتي كما هاوية تتحرك وتدعوني للولوج.. جرّني في هديرك الصاخب يا فرات. اسحبني إلى دفء حضنك. خذني إلى حضنك الهادئ يا فرات، هنيهة لا تنتظر بعدها. الفضني بعدها إلى ضفافك. بعثرني في بساتين ضفافك. أعدني إلى دفء ضفافك. أعدني إلى صنارة الولد الوحيد الذي كنته. إلى ديدان صيده المتداخلة في متاهات طميك. ديدان صيده التي تربك يديه أبداً خشية من أن تتقطع الدودة وهو يسحبها من الطين فيحزن. أعدني إلى بحيرة سمكاته الصغيرة التي أعدّها لها كي لا تموت بعيدة عنك سمكاته. أعدني إلى الولد الذي يزلزل جسدي الآن محاولاً رغم مقاومة جسدي لصخب ضحكاته الخروج. أعدني إلى الولد الشقي الذي لا أصدّق في كل مرة يخرج فيها من جثتي أنه أنت أيها الفرات الذي جئتك كعادتي أو كما تطلب أنت عادة محمّلاً بالتعب.

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. إنها هزيمة كاملة. أفكر أن علي أن أبدأ روايتي. أحس أن الوقت قد حان لكتابة روايتي. ألقي ما جمعت من معلومات وذكريات ومخططات خلف ظهري. أجلس على الطاولة أمام البحر. أطلب زجاجة بيرة. أصب البيرة وألاحق رغوتها وهي تتصاعد.

أفرد أوراقي أمامي. أحدق في الصفحة البيضاء أمامي. من أين أبدأ وأين أنتهي. أستعيد المحور البنيوي الذي وضعته لروايتي في أن تكون نصاً مفتوحاً متدفقاً يكسر حواجز الزمن ليكشف علاقة تشابك اليومي بالميثيولوجي، الواقع بالحلم كي أبلور حياة شباب جيلي في لحظة حساسة من تاريخ بلدي، نصاً أشرك فيه قارئي بجراحات ما تشظى من حلمنا الأممي الكبير الذي يطيب لي أن أدعوه حلمي الأمومي الصغير، في محاولة مستورة لترميم النفس عبر الحلم. لقد رصدتُ أحلامي وتأكدتُ من أفكار باشلار وغالب هلسا حول المكان وأفكاري بأن الإنسان يلجأ في الحوادث الكبرى التي تهدد كيانه إلى حضن الأم. إنها هزيمة كاملة. لقد تأكد لي لجوء "متعب الهذال" في "تيه عبد الرحمن منيف" إلى حضن الصحراء أم العرب وغيابه فيه بعد تدمير الأمريكان لوادي العيون، ولقد أرسلني تدمير الأمريكان لبغداد في منفاي إلى حضن أمي. لقد ألقى بي طفلاً شممت رائحة أنفاسه في حديقة أمي.. ولكن من أين أبدأ وأين أنتهي. أستعيد الجملة الأولى التي لا أعرف متى تشكلت ولماذا جاءت على هذه الصورة وأبدأ برشقها على الصفحة البيضاء أمامي: "ها أنا مرة أخرى بين السماء والأرض، مرة أخرى أحلّق وحيداً في هاوية أفق مفتوح على عذاب تساؤلاتي"...

قلت لمعاذ إنني أريد أن أرى فرات الرقة وحيداً، وقال محاولاً التخفيف عني: ابق معنا، إن فرات الدير هو فرات الرقة نفسه، وفكرت. كيف أتجاوز هذا الإحراج ولا أزعج أهله.. هذا أول أيام العيد ولا أريد أن أكون ضيفاً ثقيلاً.

ــ أريد الاختلاء بنفسي قليلاً.. قلت وفهمني معاذ.

ــ هل تعرف الطريق إليه؟.. قال ضاحكاً.

ـــ لن أستطيع تضييعه.

أجبرتني أخت معاذ الصغيرة على تناول لقمة كعك مع الشاي. أحسست أنها تتعاطف مع حزني المغلف بمرحي، وزاد لطفها حسن حظي أن تقاليد الضيافة تمنعها عن سؤالي لماذا أقضي أول أيام العيد بينهم بعيداً عن أهلي...

الفرات نفسه، في كل مكان هو نفسه.. قال معاذ، ولكن قل لي أنت يا فرات هل أنت نفسك، وهل أنا نفسي.. عائلة معاذ المتماسكة تشعرني بضياعي.. فمعاذ يتيم الأب، لكن أمه وأخواته يعوضون هذا بتماسكهم، وأنا لدي أم وأب عصفت بحبهما رياح كبرياء خاوية جعلتني أقضي أول أيام العيد خارج دفء بيتي. ما الذي حدث لي أيها الفرات الذي أنت نفسك. قل لي.

رأيت وأنا واقف على الجسر فوق شاطئك ولداً وحيداً يرمي بصنارته في هذا اليوم. ياإلهي. ولدٌ وحيد صغير يرمي بصنارته وكأنما يرمي بأحزاني في بئر قاعك.

تركت الجسر. اتجهت إلى الولد وسلمت.

ـــ هل تبيعني الصنارة أيها الولد؟.. قلت.

ـــ أؤجرها لك فقط.. قال وهو يتملّاني بنظراته. وقبلت مبتسماً.

ـــ أعود بعد ساعتين. الديدان في الأعلى حول الشجرة.. قال الولد.

صعدت إلى الأعلى. تناولت عوداً صلباً لأنبش به الطين حول الشجرة. الرائحة نفسها. يا إلهي. رائحة طميك. نبشت كي تغمرني الرائحة.

لملمت ديداني ووضعتها مع طميها في تنكة الولد ونزلت. جلست فوق الصخرة. سحبت دودة من الوحل. ستنقطع الدودة. أزحت الوحل حولها فخرجت عارية دونما حماية. هذه هي الحياة أيتها الكائنة، ولكنني أعتذر منك كما علّمني أبي.. قلت للدودة وأنا أشكها في الشص وتتلوّى. ألقيت

بالصنارة بعيداً في قلب النهر. الضربة جيدة. سحبت خيطي كي تستقر الفلينة في الماء الهادئ وجلست أراقب. راقبت الفلينة الطافية على قلب الصمت.. الفلينة مركبة فضاء تمخر قلب الصمت بصمت، تمضي في الأسود والأسود يتكاثف، يتكاثف مثل سحاب يركض، يأخذني في دوامة صمتي، والفلينة مركبة فضاء تمخر قلب الصمت بصمت والأسود يتكاثف، هي ذي نقطة موتي، يلتمع البرق برأسي، أنهض من جثة هذا الجالس فوق الصخرة وأرى نفسي، ولداً يجلس فوق الصخرة، يرقب أن تخرج من قلب الصمت السمكة...

قال لي معاذ وهو يجلس بجانبي. أخيراً وجدتك. لم أستطع تركك وحيداً في همومك. هل آن الأوان أن تقول لي لماذا تجنبت أهلك في هذا العيد.

نظرت إلى معاذ. تأملت صفاء عينيه وأحسست بالصفاء.

ــ إنها أمي.. قلت له بهدوء وأنا أنظر إلى النهر، وصمتَ متأملاً النهر وتاركاً لي راحة أن أستمر في الحديث.. لقد علمت أنها هي من دمّر منذ ثلاث سنوات أول حب لي. قالت لي أختي بالأمس ونحن نستعيد ضاحكين شقاوات علاقاتي مع الفتيات في مراهقتي أن أمي هي التي ذهبت إلى بيت أهل هيام دون علمي وطلبت منهم أن يمسكوا ابنتهم عني. وذهلت من فعلة أمي. اصفر وجهي وتوقفت أنفاسي. أحست أختي أنها تورطت بإخباري. كانت تعتقد أنني نسيت وتجاوزت ما حدث، وكنت كذلك.. كنت قد نسيت أو لم أعد أتساءل عن سبب اختفاء هيام المفاجئ عني، لم أعد أتساءل عن سبب تزويج أهلها الغريب لها على هذه الصورة السريعة، لكن يبدو أنني لم أحتمل أن تقوم أمي بهذا، لم أستطع استيعاب كيف تستطيع من أعرف أنها وقفت حياتها لمواجهة ظلم الذكورية أن تظلم فتاة مثل هيام وأن تظلمني. ظهرت لي صور مشوشة عن خلافاتها مع والدي فوقفت أمامها،

قلت لها إنني لن أسمح لها أن تدمّر حياتي كما دمرت حياة أبي، وأصابها الخرس. أحسست أن قلبها توقف وأنني أقتلها. كنت سأتراجع وأعتذر لها لكن كبريائي منعني، وما كان مني إلا أن أغادر لألتقي بك كي لا يطحنني حزني.

ـ ولم تفكر بما يطحنها الآن.. أعتذر هاني عن قسوتي. لا أريد أن أزيد ألمك لكن ربما أرادت والدتك حمايتك. لقد أخبرتَني أنك خضت معركة بالسكاكين مع شباب حارة البنت الذين أرادوا منعك عن المرور بالحارة لتحيتها. أنت تعلم خوف قلب الأم. ثم إن عليك أن تشكر أمك في النهاية.. فحب الجارة أو بنت الحارة غالباً ما يحجّر الإنسان عن تجربة ما هو أبعد.. قال معاذ ضاحكاً بطريقته الساخرة الممتعة.

ـ لم أفكر بما حدث أنه يمكن أن يكون على هذه البساطة. فكرت تحت تأثير غضبي فقط بمحاولات أمي لمنع أي فتاة من اللقاء بي وكأنها غريمتها، وتصرفت على هذا الأساس. لقد شوش تفكيري سيل من صور وذكريات عما حدث من تدمير لعلاقتها بوالدي.

ـ لكننا لن نعرف من كان سبب التدمير، ولن نتحول إلى جلادين، خاصة بالنسبة لأمهاتنا، وأنت بالذات من اخترت خط الانخراط في حركات تحرر المرأة لهذا السبب كما أعتقد.. قال معاذ ونظرت إليه حزيناً ومبدياً أسفي على تسرّعي.

ـ هل تريد القيام معي إلى البيت. قال عارضاً علي انتشالي من وحدتي.

ـ أعتقد أن علي أن أنتظر قليلاً لتصفية أفكاري. يمكنك الذهاب وسأتبعك بعد أن أعيد للولد صنارته.

نظرت إلى الفلينة الطافية على قلب الصمت. إنها تهتز، تتذبذب مختلجة بسرعة قبل أن تغرق وتطفو. أبديت استعدادي. قلت الطرف الآخر

سيسحبها مرة ثانية. شعرت بالتوتر. الفلينة تهتز، تختلج وتغيب في الماء. علي أن أتصرف. سحبت الخيط سلاً كما علمني أبي لكي لا يقطع الشص فم السمكة، وهاهي ذي سمكتي خارج الماء. إنها صغيرة. أمسكتها وخلّصت فمها من الشص دون أن تتأذى. نظرت حولي إلى بحيرة سمك الولد.. لقد جفت من الماء ولم أنتبه. أفرغت التنكة من وحل الديدان بيدي الحرة، وملأتها بالماء. وضعت فيها سمكتي قبل أن تموت. رأيتها تتحرك في الماء وابتسمت مطمئناً. شككت دودة ثانية في الصنارة. وألقيتها بعيداً. سحبت الخيط لتستقر الفلينة في المياه الهادئة وجلست أراقب. راقبت الفلينة الطافية على قلب الصمت.. الفلينة مركبة فضاء تمخر قلب الصمت بصمت. تمضي في الأسود والأسود يتكاثف. يتكاثف مثل سحاب يركض. يأخذني في دوّامة صمتي، والفلينة مركبة فضاء تمخر قلب الصمت بصمت والأسود يتكاثف، هي ذي نقطة موتي، كون آخر يتلاشى. يبرق آن يموت برأسي، أنهض من جثة هذا الجالس فوق الصخرة وأرى نفسي، ولداً يجلس فوق الصخرة، يرقب أن تخرج من قلب الصمت السمكة...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة. أسمع صوت هدير مألوف. أسمع صوت هدير نهري وأراه. أراه قادماً بهديره في اتجاهي. أنظر إليه من مكاني المعتاد على الجسر. أنظر إلى مياهه الهدارة حول عمود البازلت الأسود تحتي كما هاوية تتحرك وتدعوني للولوج.

ــ كيف هي صنارتك الجديدة؟.. قال أبي وهو يجلس بجانبي على الشاطئ بعد أن نزل الجرف.

ــ إنها جيدة. أشكرك ولكني لم أصطد شيئاً.. قلت.

ــ دعنا نرى. ماذا وضعت طعماً في الصنارة؟.. قال وسحبت صنارتي وأريته الطعم. لقد كان متآكلاً.

ــ إنها عجينة أعطتني إياها أمي.. قلت وضحك أبي بمودة.

ــ إنها جيدة.. قال. ولكنها تحتاج إلى مهارة كبيرة لتثبيتها وغش السمكات بها. دعنا نجرب شيئاً أسهل، مثل هذا.. نظرت إلى كتلة الوحل بيديه. قسمها فبانت بين نسيجها ديدان الأرض.

ــ انظر. نسحب واحدة ونشكها في الشص، إذا كانت كبيرة نقطعها كي تبتلع السمكة الشص معها. جرّب.

أخذت كتلة من الوحل. سحبت دودة وتركتها خشية من أن تتقطع. لاحظ هذا أبي. قال لي: فتت حولها الوحل. نعم هكذا.

ألقيت بصنارتي وجلسنا ننتظر.

ــ هذا أقرب للسلامة من صيد الغزال. هل أعجبك الغزال الذي أحضرته لك؟.. قال أبي وشعرت بالسعادة.

ــ نعم، لكني مازلت أخشى الاقتراب منه. مازال نفوراً ولا يأمن أحداً سوى أمي. . إنه يتبعها أينما ذهبت ويشمشمها.. قلت وضحك والدي.

ــ يشمشمها؟! نعم إن أمك تألفها الحيوانات وتأمن لها.. قال وران بيننا الصمت. كان هناك ما يجب قوله ونحن نهرب منه إلى مراقبة الفلينة فوق الماء. شعرت أن أبي حزين.

ــ انظر يا هاني، لا أريدك أن تظن أنني كنت قاسياً مع أمك، أنت تعرفني. أنا أحبكما.

لم أقل شيئاً. كان هناك الكثير مما لا يمكن قوله، لكنها المرة الأولى التي يصارحني فيها أبي وكأنه صديقي. كان هناك ما يثقل على قلبه فعلاً، وحالته وصلت إلى ما أخافني.

ــ أنت لا تظن أن لأبيك يداً في موت خالتك!؟.. قال أبي ودمعت عيناي، تذكرت المشهد الذي لم يستطع كلانا التخلص منه.. فبعد أن ظننت أنني استعدت ضحكات أمي التي حجّرها موت خالتي مع قدوم الربيع، دخل أبي غرفة أمي. كانت أمي كما كنت أراها من مخبأي خلف الستارة ترتب الشراشف في فتحة الجدار المقابلة لي، بثوبها الأبيض الخفيف الذي تناغم مع سريان روح الربيع بداخلها. كنت أراقبها سعيداً واقترب أبي منها بهدوء. أحست أمي بالرجل الذي يقترب منها ونظرت إليه بمواربة وتوجس دون أن تنظر إليه. أمسك بها من كتفيها محاولاً ضمها، لكنها تملصت من يديه بعنف، ووقفت مواجهة إياه.

ــ أنت ووالدي قتلتما قدسية. قالت أمي موجهة إليه اتهامها كما طلقة في الصدر، وأصيب أبي بالوجوم. قال لها بحزن.

ــ اتق الله يا نوّارة. أختك قتلت نفسها. تسرّعت بالتصرف. ما كان أحد ليجبرها، وأنا لم أفعل شيئاً أكثر من أنني طلبتها لأخي من أبيك.

ــ كنت تعرف أنها لا تريد أخاك المعقد.

ــ معقّد لحاله. لكنه لم يفعل شيئاً سوى أنه أراد أن يتزوجها.

ــ وأنت طلبت يدها له. طلبت يد أختي لمطلاق يضرب زوجته.

ــ اتق الله يا نوّارة. كان هذا قدراً وأنا أتألم على قدسية ربما أكثر منك حتى.. قال أبي بانكسار ونفثت أمي حقدها سماً في وجهه.

ــ قدر!؟ وتجرؤ أن تقول هذا. لقد قلت لك أن لا تفعل ولم تطع.

ــ أطيع!.. قال والدي منتفضاً وقد مس كبرياؤه. أطيع!! أنا خروف بيدك ؟!

ـ وأصغر من خروف الذي لا يعرف كيف يتصرف.. قالت أمي بتحدّ

وجمدت أنا في مكاني وأنا أرى وجه أبي المتحجر من الغضب، ولم أستطع سوى الخروج من مخبأي عندما أمسك بيدها ورفع يده ليضربها كما ظننت، وفوجئ أبي بي.

ـ اترك أمي.. قلت ونظرنا إلى بعضنا دون أن أزيح نظراتي عن عينيه. تلك هي المرة الأولى التي أواجه فيها أبي.

انكسرت نظرة أبي عني. نظر إلى أمي ثم نظر إليّ وضحك بقهر. ترك ساعدها وخرج.

ضمتني أمي إلى صدرها وهي تبكي.

ـ لا تخف. لا تخف. قالت لي بحنان لكنني خفت من قسوتها وهي تقول: لا تخف راح يشوف، يشوف.

دمعت عيناي وحاولت أن أخفيهما بمراقبة الفلينة الطافية فوق قلب الصمت، ولاحظ هذا أبي.

ـ لست ألومك على ما فعلت. أنا أيضاً أريدك أن تدافع دائماً عن أمك، حتى مني. لا تزعل، لكن صدقني، ليس لي دخل بموت خالتك. أنا أخطأت إن كنت تريدني أن أعترف لك بهذا. لقد أخطأت بطلب يدها لأخي، لكنها تسرعت. كنت سأقف إلى جانبها لو أصرت على الرفض. لكن الأحداث تسارعت. هي لم تعلن عن شيء والأمر حدث بسرعة لم أكن أتوقعها. أنا نفسي لا أفهم كيف حدث هذا.

دمعت عيناي وأنا أتأمل في الماء وجه خالتي قدسية وهي على فراش الموت. لم تكن ميتة. كان وجهها يضوع بالندى ولم يستطع الموت أن يمسه. لقد احتفظت لي خالتي بسحر ابتسامتها. سحر تعبير وجهها وهي تنظر مأخوذة باتجاه "الحية" في العين. سحر تعبير وجهها الذي قبّلته أمي

وهي تضع عقد "الحية" الذهبي على جيدها، وتقول دامعة العينين: أردته أن يكون في عرسك.

دمعت عيناي وأنا أتأمل في الماء وجه خالتي. كيف حدث هذا!! أيها الفرات الذي دون قلب؟! ما الذي فجّر قلب أمي الهادئ الحنون بركان قسوة، ورمى بأبي العاصف محبطاً في ثياب الدراويش، وألقى بالخليط العجيب الذي هو أنا دون أن أستطيع الهجوع لحظة واحدة في الأراضي الغريبة.

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة...

أرى سيارة أبي. إنها سيارة أبي، نقطة سوداء في مدى البادية الطليق. نقطة سوداء تشق جسد البادية الرحب الذي حدد خلفيته جبل الرحبة بقلعته المهدمة. نقطة سوداء تتعالى منها كلما كبرت باقترابها أصوات الفتيات المشتعلات بالغناء في خلفية السيارة المغلقة... أصوات الفتيات التي أدندن معها:

علروزانا علروزنا. كل الحلا فيها

وش عملت الروزانا. الله يجازيها...

أصوات الفتيات التي أستطيع أن أسمع بينها واضحاً صوت خالتي قدسية العذب وهي تقود المجموعة:

يارايحين على حلب. معكم حبيبي راح

كلمن حبيبه معه وأنا حبيبي راح

يامحملين العنب تحت العنب تفاح...

تتعالى أصوات الغناء. لأرى أبي يكسر وجوم الصمت بحركة عنيفة مرفقة بلعنة يغلق بها راديو السيارة.

ـ لا يستطيع أحد أن يأخذ حقاً أو باطلاً من هذه الشعارات.. قال أبي.

ـ وما دخلك أنت!؟ لم أعرف عنك اهتماماً بالسياسة.. قالت أمي ضاحكة واستمرت تردد الغناء مع الفتيات القادم صوتهن من الخلف.

ـ عدم مشاركتي لا يعني أنني لا أهتم.

ـ تراك فقط تردد كلام ابن أخيك عبد الله.

ـ أنا لا أثق بالعسكر. أعرفهم. أعرف نتائج انقلاباتهم. ثم ما به كلام عبد الله. يكفي كلامه صدقاً أنهم عزلوه... قال أبي.

ـ أنا لا أعني عبد الله وإنما أعنيك أنت. أنت وقفت على الحياد.

ـ أنا غير محايد لكنني لا أثق بالبعثيين. لقد أحالوا أنبل ضباط الجيش إلى البيوت أو السجون. لو كان هناك طرف ثالث لوقفت معه.

ـ ولكن الناس شاركت في انقلاب آذار!؟.

ـ شاركت!؟. الناس لم تشارك. أرادت فقط أن تتخلص من حكم الانفصال، والبعثيون غشوهم ببعض الشعارات كما غشوا جميع القوى الوطنية.

ـ وأنت لم يستطيعوا غشك!!.. قالت أمي مناكدة إياه. ونظرت أنا إلى وجه أبي الذي لم يغضب. لم يكن أبي يغضب من انتقادات أمي ويضحك.

ـ انظري يانوارة. أنا أكثر اهتماماً بالسياسة من الجميع. قولي لي من من هؤلاء الشيوعيين والقوميين جرؤ أن يجعل العصمة بيد امرأته.

ـ أنت تأخذ الأمر "شغل زكرتيه" لكنك كنت مجبراً. وما كنت تزوجتك لو لم تفعل.

ـ والله كنت ستفعلين لولم أتدارك أنا الأمر وأقبل بشرطك.

ـ ها. عدت إلى تناقضاتك. تريد أن تقنعني أنك من أراد هذا. من يقدر على الرجال.

ـ النسوان.. قال أبي ضاحكاً وضحكت أمي، وغرزت أنا رأسي أكثر في صدرها.

ـ بالله اسمع، صوت قدسية.. قالت أمي مسحورة بسماع صوت أختها العذب. صارت صبية بسرعة.. قالت أمي ومرت بذاكرتي صورة وجه خالتي وهي تغني برقتها الآسرة:

يا محملين العنب، تحت العنب تفاح

كل من حبيبو معو وأنا حبيبي راح.

ـ بالمناسبة أريد أن أحدثك بأمر يخصها.. قال أبي مثيراً فضول أمي التي تعتبر قدسية مثل ابنتها واستمر أبي. أخي عبد الستار طلب مني أن أحدّث والدك بشأنها.

ـ بشأنها؟! ماذا يعني؟

ـ أخطبها له.

ـ عبد الستار؟ لم يمض على طلاقه شهران. من يتزوجه!؟ أنت تعرف أنه كان يضرب زوجته. ثم أنه كبير في السن.

ـ الكثيرات يقبلن به، لكنه حط عينه على قدسية. قال أبي وشعرت بدقات قلب أمي تتسارع، وخفت على خالتي.

ـ لكن قدسية صغيرة على الزواج.. قالت أمي.

ـ من هذه الناحية، لا، صار عمرها أربعة عشر سنة.

ـ ولو!! ثم إنها لا تريد عبد الستار.. قالت أمي حاسمة الأمر. وصمت أبي قليلاً، لكنه لم ييأس.

ـ وما يدريك أنها لا تريده.

ـ قلت لك. لا أحد يقبل بعبد الستار. كأنك تريدها له!؟

ـ لا . أنا محايد في هذا. هو طلب مني أن أقول لوالدك فقط.

ـ وقبلت!؟.

ـ لا تفهميني خطأ. قدسية مثل ابنتي وأنا أريد مصلحتها مثلك. لكن أخي أحرجني ووعدته أن أوصل رغبته إلى أبيك.

ـ دعه هو يطلبها بنفسه. أنت تعلم أن أبي يحبك. وسيعتبر هذا طلباً طالما تحدثت فيه. وأنت تعرف ظلم أبي. قد يوافق.. قالت أمي وهي تشعر بتهديد ما يحدث، وصمت أبي قليلاً وهو يحس بالإحراج.

ـ سأقول له فقط أن عبد الستار يريدها دون أن أطلبها له.

ـ وأنا أريدك أن لا تقول له شيئاً.

ـ تريديني! تريديني! ماذا أيضاً. أنا لست خروفاً بيدك. قال أبي محرجاً ومغتاظاً كي يخرج من مأزقه، وصمتت أمي لكن قلبها تحت رأسي كان يدق بسرعة، وتحركت أنا كي أخفف من حدة الجو. اعتدلت وتحركت إلى جانب أبي، ومددت يدي إلى المقود دون أن أصل إليه. رفعني أبي وأجلسني بحضنه.

ـ أنت في التاسعة. لقد كبرت. ستسوق كما وعدتك، لكن لا تدر المقود هكذا. دع يدك تحس به فقط وأنا أحركه.

وصلنا إلى العين. نزلت أنا أولاً قافزاً من السيارة ثم درت ببطء حول نفسي مأخوذاً وأنا أتأمل المكان.. هاهي ذي "عين علي". بقعة حمراء في مدى اخضرار الروح. لطخة لون لم أعرف ولم أتساءل أبداً كيف انبثقت هنا بالضبط وسط عراء البادية كواحة تموج بالخضرة، كانزياح غريب عن مألوفية الأشياء، كانسجام غريب يبزغ هكذا فجأة ليفرض انسجامه الخاص. سلمت مثل بقية الناس دون أن أفكر بتبرير للقدرة التي أرسلتها أو أفكر بتأويل لقوة تجسدها في البشر الذين يأتون للتبارك بمائها

والاستشفاء. إنها عين علي، عين الإمام التي تجسّد ظهوره الحربي لهزيمة راكبة الجمل، لكني منذ أن تجلّت أمامي سيدة النبع بجرّتها المعشبة وهي تصب الماء أمام حارستها أضفتُ عليها سحرَ أن تكون عين أمي. عين حضن تشرّدي الأبدي في الأرض التي تلد أبناءها بالألم.

دخلت "ماما" إلى العين من طرفها المفتوح. رفعت ثوبها قليلاً عندما لامس قدميها الماء فأحسست أنا باستسلامها له.

أخذ الماء يعرّي ساقيها ويغمرهما بدفئه مع توغلهما فيه، وعندما وصل إلى منتهاهما تركت "ماما" ثوبها المنهك بين يديه ليستحيل هو الآخر ماء.

نظرت "ماما" إلى جدار العين بثبات. كنا مندهشين وخائفين أنا وخالتي ومجموعة الرحلة، وكان بابا وحيداً ينزّل الأغراض من السيارة بعيداً عنا.

اقتربت "ماما" من الجدار دون أن تزيح نظراتها عنها. كانت "الحية" رابضة عليه بتوجس تحول إلى ما يشبه الاستكانة مع نظرات "ماما" الثابتة واقترابها.. خضراء مرقطة ومنداة بين رذاذ الماء المتطاير في الضوء، متماهية في الألوان العشبية لجدار العين، ثابتة ومغلفة بجلال الرهبة.

كشفت "ماما" في ما يشبه الغياب بحركة بطيئة بطيئة لا تنتهي عن نهديها الأبيضين المستديرين الغائبين في النور والرذاذ.. نهديها الذين اتجها مكابرين ومأخوذين في اتجاه الحية واستحالا أمامي في ما يشبه الحلم إلى الأخضر المعشب للحظة واحدة قطعتها أقدام خالتي التي تجرني بيدها متوغلة ومستسلمة بين يدي الماء.

أخذت "ماما" بيدها حفنة وصبت الماء على النهدين اللذين بدآ بالاستكانة دون أن تحرك نظراتها عن "الحية" التي استدارت مطأطئة رأسها وزاحفة في تفاصيل الجدار.. قالت "ماما":

ـــ اقتربا أكثر ولا تخافا.

نظرت باندهاش إلى خالتي قدسية. كانت مأخوذة هي الأخرى أمام هذا الكائن الغريب المتماهي بذاته، ولا أعرف متى انحسر القميص عن نهديها الصغيرين المحمولين في محفة النور، المشرئبين في اتجاهه حيث يزحف ويغيب.. قالت "ماما" بهدوء:

ــ إنها حارسة العين. لا تؤذوها كي لا تؤذيكم.

نظرت فوقي، وفوجئت بعيني بابا تراقبان المشهد باندهاش وإعجاب، لكنه اندهاش أقرب إلى الذعر، قطعته أصوات المجموعة وهي تنزل بصخب إلى الماء..

الماء.. دوّرت الماء بيدي في حوض الاستحمام المستدير. صنعت دوامة حولي. إن غرفة أمي دافئة وأليفة مثل العين. أحسست بيدي أمي تمرران الصابون على جسدي وأنا ألعب بالدوامة التي أصنعها حولي.

ــ هيا قف الآن.. قالت أمي، ووقفت. مرت يدها الأليفة على بطني وأرادت أن تنزل إلى الأسفل. خفت.

ــ الليفة جديدة. إنها تشوكني هنا.. قلت وسمعت ضحكة أمي الصافية الرنانة.

ــ لا تخف. يجب أن تتنظف.. قالت أمي وصبت يدها الماء على جسدي. كان الماء دافئاً وأليفاً. برقت في رأسي صورة "حية" العين على الجدار وهي تطأطئ رأسها وتغيب خلل رذاذ الماء المتطاير في الضوء.

ــ هل للحية صغار أستطيع اللعب معها يا "ماما".

ــ نعم للحية صغار لكن لدغة الحية قاتلة. احذر أن تلعب مع الحيات.

ــ وهل تشبه الحية صغارها يا "ماما".

ــ نعم لكنهن بحجم أصغر.

ـ هل يشبه صغير الحية حمامتي يا "ماما".. قلت بتردد وخجل. وفوجئت "ماما" بسؤالي. نظرت إلي مستغربة.

ـ هل تريد اللعب مع "الحية"؟.. قالت "ماما" فجأة وخفتُ.

ـ سأدعك تلعب معها الآن إذا لم تخف.. قالت "ماما" وخفتُ، لكني قلت مدافعاً عن شجاعتي.

ـ أنا لا أخاف.

ـ حسناً. تمالك نفسك. سوف أمد يدي خلفي وستراها بيدي.. قالت "ماما"، ومدّت يدها فرأيت الحية. أصبت بالدهشة والذعر وأنا أرى عينيها. كانت حية العين نفسها الخضراء المرقطة المتماهية بألوان العين.

نظرت بتوجس وأنا أمسك بيدي أطراف الحوض في عينيها، وتحركت الحية مع يد "ماما" ببطء في اتجاهي. خفت وجاءني صوت "ماما" هادئاً مطمئناً: لا تخف. انظر. وأخذت الحية باتجاهها. مرّرتها زاحفة ومحيطة برقبتها، ومدّت الحية رأسها ناظرة إلي بألفة ورغبة في اللعب.

ـ الآن ستنزل معك لتلعب في الحوض.. قالت "ماما". ونزلت الحية منسلّة تحت رغوة الصابون وصانعة دوامة محيطة بي. اقشعرّ جسدي وأنا أراها تصعد ظهري غير أن يد "ماما" سارعت بالمرور على كتفي وشعرت بالأمان. ضحكت بخوف ونظرت بمواربة وأنا أحس بها تظهر من خلف كتفي، لكنني شعرت بالأمان وأنا أرى رأسها يظهر مترافقاً مع يد "ماما". وضعت يدي على رأسها فاستكانت. مسّدتُ بيدي عليها فانسلّت إلى الحوض لتصنع دوامة حولي تحت رغوة الصابون... أيّ أمان هذا الذي انبثق من قلب الرهبة محمولاً على يد "ماما" !!.. ضحكت، وأحسست بفم "ماما" يطبع قبلة حنان على كتفي من الخلف خلل البخار وأنا أرى كائن الرهبة الجليل يدور ويصنع دواماته حولي...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. أي هناءة كانت؟! أي هناءة تبددت؟! أي هناءة كانت تنبثق من قلب هذا الجمال. من قلب هذه الرهبة؟! هل يفسّر هذا قولي لمعاذ إنني أريد لموتي أن يكون عاصفاً. مرة واحدة. طعنة واحدة. بقرني ثور هائج يتقدم ببطء. ببطء يتقدم. يواجه المدى المفتوح لصدري. يركض. يلتمع البرق بصدري. ضربة واحدة. طعنة واحدة، وأقسى ما يكون...

لماذا ترتبط الهناءة معي دائماً بالهول!! ولماذا يرتبط الهول دائماً بالجمال!! لماذا يرتبط الجمال داخلي بالهناءة!؟ أيها الفرات الجميل الهادئ حتى الهول.. لماذا ؟!...

أفقت من نومي مذهولاً في بيت معاذ. ارتد رأسي إلى المخدة الناعمة، وهدأت أفكر بحلمي. لقد كنت أطير وحيداً بطائرة أحتلّ كامل مقدمتها وتكشف أمامي قبة كون أزرق بالكامل يغلفني. طائرة تطير وكأنها أنا بلا صوت في الأزرق السماوي الذي لا ينتهي...

شعرت بالأمان في حضن هذا الفضاء اللامتناهي الذي ما أن اكتمل فيه أماني حتى تلاشت الطائرة واستحلت أنا طائراً بأجنحة ضخمة تحلق في الأزرق. وحيداً أحلّق في الأزرق... لحظات وبانت الأرض أمامي في الأسفل. سهول لا تحدّ من الأخضر. كون لا متناه أخضر تتبدى فيه أمامي نقطة سوداء وحيدة في كون أخضر... شعرت بالغبطة وبدأت أقترب منها حيث تكبر أمامي وتعدو لتتبدى حصاناً أسود يركض وحيداً في الكون الأخضر. كان حصاناً أسود ووحيداً يعدو في الأخضر، وكنت أنا طائراً وحيداً لا أعرف لوني وأطير فوقه...

كانت مطاردة صامتة وأحسست أنه شعر بي. بدأ يزيد من عدوه وأنا أزيد من سرعة طيراني. اقتربت منه كثيراً وأحسست بحرارة أنفاسه نافرة

ومعبرة عن ضيقه. كان يرمقني بنظرة شرسة مواربة، ولكن لم يكن من مهرب لكلينا. كنا أسيرين في هذا الأزرق اللامتناهي، ولم يكن من مهرب لكلينا: لا مهرب لكلينا.. قلت وقاربت ملامسته. كان الجذب معذباً ولكن لم يكن من مهرب. لا مست ظهر حصاني فانفتح وجه الأفق أمامنا. برتقالياً كاملاً كما النار... التصقت به وشدني فالتحمت به... كانت لحظة عذاب ومتعة لا توصف. التحمت به وشدني بعذاب ومتعة لا توصف. شدني واستحلت إليه، إليه استحلت، حصاناً أسود ووحيداً يعدو مغتبطاً في الأخضر باتجاه أفق مشتعل بالنار...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة...

دخلت حظيرة الجياد في بيت جدي. تجاوزت العجوز المرعب الجالس بدعة على كرسيه وهو يدخن أركيلته ويتأمل حماماته البيضاء وهي تهدل خلف بعضها وتفرش ذيولها كما المراوح وتطير قليلاً لتقلب قلبة أو اثنتين في الهواء وتحط وتهدل...

أيّ انسجام!؟.. قلت في نفسي وسلّمت عليه. كان جدي يحبني ولم أكن أخافه. كانت صورة الرجل المرعب الذي سمعت أمي مرة تقول أنه ذبح أقوى رجل في البلد كما يذبح خروفاً لأنه تحرّش بزوجة أخيه تتلاشى دائماً لتحل مكانها صورة جدّي الوديع كلما رأيته جالساً ينثر الحب لحماماته البيضاوات القلاّبات الوديعات. تجاوزت جدي بصمت ولم أقف كعادتي لمراقبة الحمامات.

دخلت حظيرة الجياد. كنت فرحاً للدرجة التي لا يمكن احتمالها، وأردت إشراك خالتي بفرحي، لكنه سرّ وعدت أمي أن لا أبوح به.

يا إلهي كم كان هذا رائعاً، أن تمسك الهول الذي يأتيك على شكل حية بكفيك وتراه ينحني أمامك ويستكين. مجبراً يستكين أمامك. أردت أن أشرك خالتي بمجدي، لكنه سرّ لا أستطيع البوح به وقلت، لا بأس سوف أجعلها تحس به فقط.

لمعت صورة خالتي في بقعة الضوء التي ألقيتها عليها من فرجة الباب، ونفر الحصان الذي كان مستكيناً في التصاق وجهه بصدرها.

هدّأت خالتي الحصان الأسود النافر ذي الغرة البيضاء. مسّدت بكفها على صفحة أنفه ومسّدت باليد الأخرى على رقبته فاستكان.

ـــ إنه لا يحبني.. قلت لها وتقدمت منهما.

ـــ بالعكس. إنه يحب من أحب. لكنه يغار منك قليلاً، أنت تشاكسه.

تقدمت منهما ووقفت مذهولاً بروعة هذا الانسجام الذي تفجره بقلبي رائحة الحظيرة النظيفة المختلطة برائحة التبن والعلف. بدت قدسية حزينة وهي تمسّد وجه الحصان وبدا هو حزيناً كذلك.

طبطبت بيدها على رقبته فانزاح عنها وبدأ يدور.

ـــ جئتَ بوقتك.. قالت خالتي وأخرجت من صدرها رسالة.. هل تحفظ سرّنا كالعادة وتوصلها إلى صالح دون أن يراك أحد؟ قالت خالتي وقلقت عليها. سألتها ماذا حدث ولم تجبني.

ـــ سأقول لك بوقتها. اذهب بسرعة الآن. أمك قادمة.

تجاوزتُ أمي دون أن أقف، لكنها لاحظت اندساس الرسالة في جيبي. لم توقفني ولم تسألني كعادتها إلى أين أنا ذاهب. أحسست أنها تعرف.

اتجه الحصان إلى أمي منذ أن رآها، ولم تخذل هي غبطته. مسّدت على صفحة أنفه ورقبته.

ـ كيف حاله معك!؟.. قالت أمي.

ـ طوّعته أخيراً، إنه لا يقرب غيري الآن.

ـ وأبوك!؟.. سألت أمي ومسّدت قدسية بيديها على الحصان الذي أصبح محاطاً بأمي وخالتي. كيف لا أحسده. ابتسمت قدسية وقالت باعتزاز.

ـ أبي!؟ أنت تعرفين. إنه يستكين له خوفاً منه. بينما يستكين لي حباً بي.

ـ انظري ماذا أحضرت لك.. قالت أمي مخرجة من جيبها عقداً من ذهب. أمسكت خالتي العقد بيدها مذهولة وذعرت من الدهشة.

ـ يا إلهي. ما أجمله. حية من ذهب. إنها تشبه حية العين. كم كنت أخاف الحية قبل لقائها.

ـ وجدته في سوق الصاغة. ذهب قديم لم يأبه به أحد. إنه لك. سألبسك إياه في يوم عرسك.. قالت أمي وذعرت خالتي.

ـ عرسي !؟.. قالت وطمأنتها أمي.

ـ لا تخافي يا قدسية. عرسك من الرجل الذي تختارين. اطمئني. أنا أعرف.

أطرقت خالتي برأسها خجلة.

ـ أين ذهب هاني الآن!؟.. قالت أمي. ربما علي أن أخبرك قبل أن يفاجئوك.

ـ أعرف يا نوارة. اليوم قالت لي أمي أن عبد الستار طلب يدي.

ـ ماذا!؟. قالت أمي قلقة واستمرت قدسية.

ـ عمي حمّاد كان عندنا البارحة واختلى بأبي.. قالت وبدا الضيق على وجه أمي.

ـ قلت له أن لا يفعل. دمدمت بينها وبين نفسها، وطمأنت أختها.

ــ لا تخافي. لا أحد يستطيع إجبارك.. قالت أمي وأجابتها أختها بأسى.

ــ أخشى أن أسقط في أيديهم. أنت تعرفين أبي.

ــ لا تهتمي. إنه يحبك في النهاية.

ــ أنا أخاف منه.

ــ لا تخشي منه. هو من جهة لا يحب أن يعارضه أحد، لكنه يحترم ويقدّر عزة النفس. ثم إنه يحبك. أنا لست قلقة من أبيك ولكن يقلقني موقف صالح. لماذا لا يتحرك ويخطبك!؟.

ــ يقول أنه خائف من مواجهة أبي بسبب فقره، وأهله رافضون وخائفون من أهلي.. قالت خالتي وقلقت أمي من تردد صالح. إنهم في النهاية سيتساءلون عن سبب رفض قدسية، لكنها طمأنتها. ضحكت وطلبت منها أن ترتدي العقد. وضعت أمي العقد في جيد خالتي.

ــ كم هو جميل عليك!؟ سألبسك إياه في عرسك.

ــ أخشى أنني لن أرى يوم عرسي.. قالت قدسية بأسى من يواجه الذبح. ونفر الحصان ناثراً التبن بقدميه...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد...

دفعت يد جدي الخشنة الثقيلة باب حظيرة الجياد، وأطلق الباب أنينه المعتاد. انسفح الضوء على وجه الصبية ذات العينين الواسعتين الحزينتين، وغطاها ظل الرجل الهائل الذي يتقدم بخطواته الثقيلة. جفل الحصان من نظرة الرجل إليه أن يبتعد، وابتعد عن وعاء التبن بيد الصبية، وأخذ يدور على نفسه. لقد جاءت لحظة المواجهة القاسية.

ـ انظري في عينيّ مباشرة. لا تزيغي بنظراتك.. قال جدي وانصاعت قدسية لأمره بهدوء.

"أنتَ طلبت ذلك". قالت له عيناها. ونظرتْ بعينيها الحزينتين في عينيه ولم ترفعهما.

شعر جدي بالحرج. تكسّرت قسوته أمام الصخرة التي من ماء في عيني ابنته. أراد أن يزيح نظراته عنها لكن القاسي الذي ذبح إنساناً دون أن يرف له جفن لم يتعود التراجع. استعاد حجرية قلبه مستعيناً بصوته الثقيل وعكازه المرفوع.

ـ انظري إلي. قصة اختيار أختك لن تتكرر. ستتزوجين عبد الستار. وكتب الكتاب الخميس القادم. هذا نهائي، ولا أريدك أن تردّي.. قال ذلك واستدار بسرعة كي لا يهزم أمام حيادية عينيها. نظر إلى جدتي المنتظرة بترقب في الخارج.

ـ نظرات هذه البنت ستقتلني. أقنعيها أنت وإلا لن يكون خيراً.. قال جدي مقاوماً الطاحون الذي يهرس قلبه...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد...

ألقى القمر بضوئه على صفحة خدّ الصبية التي اتجهت متخفية بظلال الأشجار إلى سور البستان/ لن تفضحني الآن.. قالت قدسية موجهة نظراتها نحو القمر الذي استدعى بعض الغيمات لتغطية وجهه. وقفت تحت السور منتظرة بقلق. أصخت السمع ونقلت نظراتها في المكان. لا

أحد. ضربت براحتها على السور ضربة، ضربتان وأطل الفتى المتخفي في الجهة المقابلة.

ـ هذا أنت صالح.. قالت ومدّت يدها التي احتضنتها يده ممتصة توترها اللاهث.

ـ ماذا حدث!؟ أنت ترتجفين.. قال لها.

تسارعت الأمور يا صالح. أصبحت خائفة. لقد حدد أبي موعد كتب الكتاب مع الخطبة يوم الخميس، وهو يعني ذلك. إنها ثلاثة أيام يا صالح. عليك أن تتحرك.. قالت قدسية وأصيب صالح بالوجوم.

ـ ماذا فعلتَ مع أهلك ؟.. سألته قدسية.

ـ إنهم غير مستعدين لتكاليف الزواج، وخائفون من غضب أبيك.. قال بأسى.

ـ وأنت!؟.. قالت قدسية وكأنها تريد أن تحسم أمر ما يقلقها.

ـ أنا لا أعرف. قدسية. أبوك مخيف. وليس بيدي شيء الآن.. قال. وسحبت قدسية يدها من يده. نظرت إليه نظرة عتب تحولت إلى نظرة حنان. غطت رأسها الذي انكشف واستدارت. صامتة استدارت. صامتة مشت دون أن تدري إلى أين. كانت قدسية صامتة ومكسورة. لم تأبه بالرجل الذي ناداها باسمها. لم تأبه بقبضة يده التي نزلت فوق الحائط بقوة، ولا بانهياره مسنداً ظهره على الحائط يبكي. لم تأبه بشيء. لم يعد يخصها شيء. صامتة مشت إلى حظيرة الجياد. صامتة مشت ومكسورة. صامتة أغلقت خلفها الباب.

انتفضتُ من نومي صارخاً: "ماما لقد هرب الحصان. لقد قطع حبله وهرب".

ضمتني أمي إلى صدرها ممسدة على جبيني وشعري مرددة اسم الله:

"لا تخف. لا تخف. إنه منام".. قالت وأنا لم أستطع الهروب من رؤياي. قلت وأنا لا أزال ألهث: "لقد رأيته. كان يدور في الحظيرة وينثر التبن بقدميه. شد الحبل برقبته وقطعه. كنت موجوداً وحاولت أن أمسك برسنه لكنني خفت. كانت عيناه جمرتين. جمرتين ماما، ويخرج منهما شرر النار. أمسكت بالرسن لكنه رفع قائمتيه الأماميتين وهو يصهل مبتعداً عني. سحب الحبل من يدي ونفر وابتعد. كان هائجاً ماما ومرعباً ولم أستطع الإمساك به. لم أستطع الإمساك به".

ـ اهدأ الآن. إنه منام. خير إن شاء الله خير. إنه منام. منام فقط.. قالت أمي مكررة كلمة منام وكأنها تريد أن تطرد حقيقة تخافها.

هدأت قليلاً تحت تربيت يديها لكنني أحسست بقلق الكفين اللتين تربتان علي، ولم أستطع النوم.

حجبت غيمات نيسان المتناثرة وجه القمر. وخرست الضفادع ولا أدري لماذا عن النقيق. مشت قدسية صامتة باتجاه الحصان الذي كان ينتظر. كان وجهها حيادياً. لا حزن، لا فرح، لا دموع. فقط كانت عيناها بحيرتان صامتتان، وكان وجه الحصان حزيناً. مسّدت بيديها على صفحة أنفه واقترب هو منها أكثر يشمشمها.

ـ ها نحن مرة أخرى وحيدان أنا وأنت.. قالت قدسية له، واستكان هو بيديها. استكان الحصان بين يدي خالتي، ولا أعرف كم من السنوات استكان، ولا كم من السنوات سيستكين، لكنني أعرف أن جدي استيقظ عند الفجر ومضى إلى ساحة الدار الواسعة المفتوحة على البستان. مشى وئيداً نحو الحنفية. فتحها. رفع أكمام قميصه. تمتم باسم الله وبدأ الوضوء.

انصب الماء على اليدين الحجريتين الهائلتين، وانكشف وجه الموجودات.

كان الفجر ندياً ومنعشاً أكثر في البستان الذي تقع في طرفه البعيد حظيرة الجياد. ندياً ومنعشاً كان الفجر ودعا الفتاة التي قبّلت صفحة خدّ حصانها قبلتها الأخيرة إلى استنشاق دفئه.

فتحت قدسية الباب وظهرت. تملّت بعينيها وجه الحياة التي بدأت تستفيق حولها في غبش الفجر. فتحت يديها واستنشقت الفجر. كاملاً استنشقت الفجر والفجر أعطاها نفسه، تغلغل في خلاياها حتى الغرق. ربما أخطأ الفجر في استسلامه لها على هذه الصورة. ربما كان عليه أن لا يتغلغل إلى هذا الحد، لكن ما حدث حدث.

ألقت قدسية نظرة أخيرة وكاملة على البستان. أخذت البستان كاملاً في عينيها من بين غبش الفجر ودخلت.

نظرت إلى الفانوس المشتعل وهي تمضي إلى وتد الحصان. فكت الحبل عن الوتد: هيّا. هيّا.. قالت وهي تضرب الحصان الذي نفر. قاوم الحصان وأراد البقاء، لكنها أعادت الكرّة. ضربته بيدها الناعمة على كفله: هيّا. هيّا. صاحت به، وانطلق يعدو بجنون.

دخل الساحة. مرّ بجانب جدي الذي كان يرشق الماء على وجهه. صهل بجنون وأخذ يدور في الساحة وفهم جدي الأمر. قال بوجوم: لا. لا. صاح بكل كيانه: لا. وانطلق يعدو باتجاه الحظيرة. انطلق يعدو محاولاً الإمساك بقَدَر يجري ولا يتوقف. انطلق يعدو باتجاه الحظيرة التي بدأت تنفر منها النار.

اقتحم الباب ودخل. كان ثمة ما يتوهج بين الدخان. التقط أكياس الخيش المرمية في الزاوية وهجم باتجاه النار. لف ابنته التي ارتمت على الأرض وغطاها بالأكياس. كان جسدها يقاوم النار ويختلج. انطفأت النار. هدّأ ابنته بصوته. أنا هنا قدسية. اهدئي. يا ابنتي أنا هنا. اهدئي.

هدأ وجهها، وأصيب هو بالوجوم. لقد سكن الألم. إن هذا مخيف. كانت عيناه دامعتان وهو يطمئنها: انظري إلي. سأحملك إلى المستشفى. قاومي قدر ما تستطيعين. سأنقذك. أرجوك. لا تستسلمي أبداً. من أجلي قدسية. من أجلي يا ابنتي.

وضع كفه على جبهتها: اطمئني. اطمئني ، والصبية نظرت إليه. قالت له: "أنا آسفة يا أبي. أنا آسفة على ما فعلت".

ــ اهدئي الآن، وسأجلب نقالة.. نظر حوله. لم يكن هناك لوح خشب. اتجه إلى باب الحظيرة. أمسك به وهزّه. كان الباب ثقيلاً. زأر مثل أسد جريح. تنفس بعمق، وانتزع الباب الذي هوى وهوى فوق الباب. صرخ بجدّتي التي قدمت تلهث أن تحضر بطانية تمدها عليه...

فتحت أمي الباب وخرجت راكضة دون أن تلتفت إلى أحد. وصلها الصهيل المتألم من بيت جدي القريب واضحاً دون لبس، وتبعناها أنا وأبي. رأيناها منحنية تمسّد جبين أختها مشجعة إياها، ورأينا جدي وجدتي يهيئان النقالة. اتجه أبي لمساعدة جدي واتجهت جدتي إلى ابنتها. حمل الرجلان خالتي على النقالة وصرخت جدتي من الألم. نظر إليها جدي بحزم فأخرسها. كانت تعرف ما تعني نظرته. كانت الوحيدة التي تعرف ما تعني نظرته...

وقفنا على باب الغرفة في المستشفى. امتلأ الممر بالأقارب. لم يستطع أحد الدخول إلى الغرفة. لقد أمر جدي الجميع أن لا يفعل عندما دخل.

أمسك جدي يد ابنته التي هدأت على السرير الأبيض. قال لها:

كنت تعرفين أنني سألين ولن أجبرك. قالت له: نعم، وأنا آسفة يا أبي، أنا آسفة.

ــ أنا الذي يعتذر منك يا ابنتي. أنا الذي يعتذر.. قال لها وهو يبكي.

ـــ لا أريد أن أراك تبكي يا أبي. أحبك أن تظل قوياً كما أنت.. قالت.

ـــ حسناً يا ابنتي. حسناً. من تريدين أن يأتي لرؤيتك.

ـــ أمي ونوارة فقط يا أبي. وهاني يا أبي هاني.

ـــ حسنا. حسناً اهدئي. سأحضرهم.. قال وقبّل يدها.

دفعت أمي الباب دون أن تنتظره ووقفت. قال لها: ادخلي أنت وأمك وهاني فقط. نوارة قولي لها أن تعيش. أرجوك.

خرجت أنا بعد أن قبلت خدّ خالتي وقبلتني. قالت لي أمي أن أخرج لكي لا أرهقها أكثر. وقفت مع أبي وجدي في الممرّ ووصلتنا الصرخة. شقت صرخة الويل جسد الغرفة. أطلقت جدتي صرخة الويل، واتجه الجميع إلى الغرفة ما عدا جدي. بقي واقفاً واجماً. تعرّق. ثم شحب وجهه. أمسك بيده اليسرى ساعده الأيمن. كان يبدو متألماً ويقاوم الألم. انحنى قليلاً. قاوم. قاوم بكبرياء الرجل الذي عليه لكنه أخيراً استسلم. أنّ بصوت مخنوق وانهار دون حراك...

ركض الممرضون لإسعاف جدي، وأنا نظرت إلى الرجل الواقف في نهاية الممر. كان صالح واقفاً بوجوم. نظرت إليه ونظر إلي. ركضت نحوه. وصلت إليه وضربته. بيدي الاثنتين ضربته. وصلت يداي إلى بطنه. ضربته وضربته ووقف هو دون أن يتحرك. وقف دون أن يتحرك، وعندما شعر أنني تعبت أمسك برأسي يواسيني. أشحت عنه. واتجه هو إلى الزاوية وأخذ يبكي...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة...

سقط جدّي. سقط الهائل الذي كنت أظنه عصياً على السقوط طريح فراشه. سقط الهائل الذي أثار استغرابي سقوطه ولم أصدقه حتى الوقت الذي ردت فيه جدتي على تساؤلي وهي تغطيني بقولها: جدك. نعم لقد ذبح أقوى رجل في البلد. ذبح البيك كما قالت لك أمك. ذبحه مثل خروف كما قالت، لكن الأمر ليس على هذه الصورة بالضبط. جدك الذي رأيته يخيف الجميع أتى إلي بعد قتله للرجل. كان واجماً وحزيناً. مددت له يدي ووضع رأسه في حضني وبكى. بكى كما لم يبك أحد في حياته. أجهش ببكاء مرّ. لقد كان جدك رجلاً قاسياً لكنه كان رجلاً رقيقاً في الوقت نفسه. جدك كان رقيقاً لكن قضايا الشرف لا ترحم.

سقط جدي. ثقل نطقه. التوى وجهه قليلاً وتوقفت يده اليمنى الضخمة المخيفة ورجله اليسرى التي كانت ثابتة مثل جذع شجرة عن الحركة...

ضربتُ الكرة برجلي على الجدار، وأعدت الركل مراراً. مراراً أخذت أعيد ضرب الكرة على الجدار دون هدف.

خرجت أمي من البيت صباحاً بثياب الحزن السوداء. رابطة ومغطية شعرها بعصابة سوداء. رافلة بعباءة الحزن الديرية السوداء، وتركتُ كرتي وتبعتها.

دخلت أمي بيت جدي. كانت النسوة متحلقات يضربن بأكفهن على الصدور في ساحة البيت حول "الندّابة" التي بدأت تضرب صفحة صدرها المعرّاة بعنف وهي تنشد نشيد أبد الحزن على إيقاع "المعادة". إيقاع حزن الديريات الذي يشبه ضربات صنجات قدر منفلت لا يرى.

تأملتْ أمي حلقة الندب. تأملت النساء المحلولات الشعر، المندلعات الصدر وهن يلطمن على الصدور ويخمشن الخدود بقسوة: "ها. ها. ها. خذ أيها الجسد حقك من العقوبة. خذ حقك من العقوبة وعاقب هذا العالم".

طلبتْ أمي المقص، وناولوها إياه. نظرت النساء إليها بحزن، وصرخن صرخات الويل.. تلك هما جديلتا نوارة. أجمل جديلتين معروفتين لهن، وأجمل مرجوحتين لقلبي الطفل. شعر أمي المنسفح وهي تمشطه أمامي حتى الينابيع. جديلتا أمي اللتين طالما لففتهما حول جيدها وأنا أدور وألعب. جديلتا أمي اللتين أسلمتا نفسيهما ليديها الحزينتين القاسيتين اللتين تحركتا بضربة واحدة جزتهما دون اعتذار.

صرخت النساء صرخات الويل. وهلهلت النساء هلهلات الفرح التي تطلق في موت الصبايا لزفّهن كعروسات لإله الموت.. تلك هما جديلتا نوارة. مثار حسد جميع نساء الحي. جديلتا نوارة اللتين دوختا رجال الحي قبل أن تسلما نفسيهما بمكابرة التعالي على القهر ليدي الرجل الذي هو أبي. جديلتا أمي اللتين حجبتا نفسيهما عن العالم وعني.

دخلت أمي غرفة خالتي المسجاة. خرجت مغسّلة الموت ودخلت أمي الغرفة. كانت الغرفة هادئة وانقطع صوت الندب. كان كل شيء عادياً وبسيطاً، لكن الصمت ألقى عليه ثوب الجلال. كان كل شيء عادياً.. الستائر الأربع التي تغطي خزائن الجدران الأربع مسدلة وثقيلة. الديوانة التي على شكل مثلث رابضة في مكانها وتحيط بطرفيها الفراش الممدود على الأرض بحركة حماية، والنور تحول في الزوايا إلى ظلال هاربة من بقعة الضوء الوحيدة التي سمحت بها النافذة المقابلة للفراش والتي أضاءت وجه الأميرة النائمة أمامي.

كانت خالتي نائمة!! هل هذا هو الموت!؟ قدسية احتفظت بجمالها. كانت نائمة فقط، ووجهها الذي لم تستطع النار أن تطاله كان يضوع بالندى،

ويحتفظ لي بسحر تعبير انجذابها نفسه الذي جذبني إليها أمام " الحية " في العين.

تقدمت " ماما ". تأملت ملياً وجه شقيقتها. أخرجت من جيبها عقداً من ذهب كان عقد الحية، ووضعته في جيد خالتي: كنت سأضعه في جيدك يوم عرسك.. قالت. وانحنت عليها. قبلتها من جبينها وبكت.

مددت يداي بالرزمة التي تحملان إلى أمي. انتبهت إلي غير مصدقة وحزينة ومتألمة. كابرت حزنها وأخذت المجلات من يدي ووضعتها بجانب خالتي النائمة أمامي.

_ أريد أن تأخذها معها جميعها.. قلت أنا ونظرتْ هي إلي بحنان فاختنقتُ بدمعي الذي استعصى على الخروج وأنا أتذكر ركلي لباب الغرفة التي اختبأت فيها قدسية وصديقتها نورا كي تقرآ مجلاتي التي منعت الجميع من لمسها.. اختنقت بالدمع وأنا أرى الفتاتين الناظرتين بذعر من محاولات كسري للباب والضاحكتين على فشلي وقهري. اختنقت بالدمع وأنا أقول لأمي: هل ستسامحني خالتي على منعها من قراءتها. اختنقت بالدمع وضمتني أمي إلى صدرها متألمة من مكابرة انكسارها وهي تجبر انكساري.

_ هي لم تزعل منك أصلاً على منعها كي تسامحك، لكنك فعلت خيراً بإحضارها. سوف تعينها مجلاتك في رحلتها.. قالت أمي وضمتني بقوة وأجهشت ببكاء مرّ...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة...

خفَتَ صوت المطر ومزاريب الأسطحة وأنا أغلق باب غرفة أمي وأدخل بهدوء، وأقف في مربع العتبة قليلاً لأستعيد أنفاس دفء الغرفة التي لفحت وجهي.

خلعت معطفي المبلل وعلقته خلف الباب. نفختُ أنفاسي بيديّ الصغيرتين المتيبستين من البرد، وانحنيت لخلع جزمتي التي أثقلها الوحل. خطوت فوق السجادة ورميت حقيبة المدرسة في الركن. تناولت المنشفة وبدأت بتجفيف وجهي وشعري. أزحت المنشفة عن وجهي ولفحتْ أنفي رائحة يبيس الباذنجان في الماء الساخن مترافقة مع صوت أمي الحزين المكسّر في عتابا الحزن. غرقت في تلونات صوت أمي الذي يغني:

"**ياعين يامهملة. ياقلب ياقاسي. ماراعك الموت وناسٍ فارقت ناسِ**". فتحت حقيبتي وأخذت كتابي ودفتري إلى زاوية الغرفة. وضعتهما على طاولتي الصغيرة وجلست أراقب أمي بثيابها السوداء وبدون جديلتين، تعد الطعام وتردد عتابا الحزن: "**لولا محمد ما حدت حوادي. ولانبت عشب الربيع بوادي. أجت الغزالة تشتكي قالت يا محمد ولادي. قاللها ولادك اليوم لاميٍّ ولا زادِ**"... دمعتْ عيناي، وقمت وجلست قربها واستمر الصوت العذب الممزق يغني: "**إحنا الحمامات قلنا قطّني ماننصاد. قدّر علينا الإله وصادنا الصياد. ياحسن ياخو الحسين قوم امنع الجلاد. والعمر محدود لاينقص ولا ينزاد**"...

توقف صوت أمي، وعلا قليلاً صوت مزاريب الأسطحة المتقطع المعلن أن السماء تصفّي ما بداخلها من بقايا الماء... وضعت رأسي في حجر أمي، وحركتْ هي خصلات شعري الأمامية بأصابعها.

ــ ما أحلى الهدوء بعد المطر، ولكن انتبه. لا تنم. ستصل خالتك أمينة من الرقة بين لحظة وأخرى. أوصيتها أن تحضر نورا معها.

خفق قلبي، ورفعت رأسي: لصة المجلات!؟ قلت وابتسمت أمي ابتسامة مرّت مثل ومضة برق في سماء سوداء وتلاشت.

ــ نعم. لكن عاملها جيداً. إنها ما تبقى لنا من رائحة خالتك، وكانت أمها ستحجبها عنا كي لا تفتق جروح الحزن لكنني رجوتها أن تحضرها معها...

جاءت نورا مع أمها. ضمتها أمي بشوق وشمتها وقبلتها وهي دامعة العينين لكن دون أن تظهر ذلك للفتاة، وجاء دوري للسلام. مددت يدي متردداً ومدّت هي يدها ببرود. صفعتني بسؤالها: كيفك؟ كيف حال مجلاتك!؟ وانكفأت على نفسي مغادراً إلى غرفة أخرى لأطلق سراح دمعي السجين. بكيت بصمت، طويلاً دون أن يلحظني أحد. بكيت على إيقاع مطر السماء البطيء وجف دمعي على نفس إيقاع نشيجها وهي تصفّي ما تبقى من قطرات.

تغدينا سوياً ولم نتبادل الحديث أنا ونورا بينما انشغلت أمي وأمها بحديث الحزن.. بقينا ننظر إلى بعضنا بين لحظات الطعام.

رجت خالتي أمينة أمي أن تكسر إضرابها عن الحديث مع الآخرين..

ــ الكل حزين، لكنك تقتلين نفسك بهذا الصمت. أنت تحيريني. وكأنك تريدين عقاب الجميع بمعاقبة نفسك.. قالت الصديقة وفطنت أنا إلى ما ترمي إليه.. أمي لا تتحدث مع أحد وبخاصة والدي الذي تتجنب المكان الذي يحل فيه بالصمت أو بالرحيل، وحزنت أكثر عندما تذكرت أنها تتجنب النظر إليه هو بالذات الذي يتصرف وكأنه يكفّر عن ذنب ما باحترام تصرّفها واهتمامه الشديد بإحضار كل ما نحتاجه بالتفصيل دون أن يسألها ماذا تريد، إضافة إلى سؤاله الدائم لي عما نحتاج.

شعرت بالحزن على أبي الذي يعاقب على هذا الشكل عندما أدركت أن الكلام عن العقاب يعنيه هو بالذات ودارت بنفسي التساؤلات.

قالت أمي لنورا وهي تودعها:

ــ أعلم أنك لم تستمتعي بوقتك جيداً. كان هاني سيجلب لك مجلاته لكنه أهداها للمرحومة وأودعها معها القبــ... قالت وتوقفت مكابرة أن تشرق بفيض الدمع.

نظرت إلي نورا واجمة، وتبدّل التعبير العدواني تجاهي في عينيها إلى نظرة وادعة أقرب إلى الاعتذار. مدّت لي يدها وأحسست أنها أكثر حرارة من يد استقبالها فشددت عليها قليلاً واحتفظت بها أكثر في يدي، ومرّ علينا الشتاء.

بارداً مرّ شتاء هذا العام. بارداً ومطيراً لكن برده كان يتكسّر ويستحيل إلى دفء مع استعادتي لكف الفتاة التي تركت دفأها في يدي ورحلت.

لقد محا دفؤها جليد الذنب القاتل الذي كان يلاحقني ويشطر نومي بسكين لم تكن ترحم.

اختفى حلم الضياع الذي كان يمزّقني حيث أجد نفسي وسط الخلاء المجهول الذي لا يحدّ دون حماية وأبحث عن شيء لا أعرفه. حلم الضياع الذي كان يلقي بي في حجر أمي الذي يهدّئني ويمحوه. اختفى السؤال الذي كان يقلق أمي علي حيث أركض وأختبئ في حجرها وأنا أبكي وأقول لها: لا أعرف ما الذي أبحث عنه في هذا الحلم. اختفى الحلم المقلق المرعب وحلّ محله حلم سكينة ظهرت لي فيه قدسية وأجابتني على سؤالي عن مكانها بقولها وهي تبتسم إنها مع الملائكة بجانب الله. اختفى قلقي وحل محله حلم يقظة جميل أمزج فيه دفء حجر أمي العابق بالحكايا مع دفء كف الفتاة الذي تركته في يدي ورحلت.

دافئاً مرّ الشتاء ومرّ معه قلقي على جدي الذي يجلس صامتاً أبداً خلف النافذة ويراقب نشيج السماء بمطرها الهادئ وهي تغسل الأرض وتطهرها من أوزار الإنسان.

دافئاً مرّ الشتاء ومرّ معه قلقي على أمي وهي تعاقب العالم بهذا الصمت الملغّز والمحيّر وهذا الصوت الدافئ الذي يكسر زجاج الدنيا بصمتٍ ويعود في الوقت نفسه ليجبر هذا الانكسار.

دافئاً مرّ الشتاء ومرّ معه قلقي على أبي وهو يكابر عذابه بوضع القريب البعيد ويحوم قلقاً على امرأته دون أن يجرؤ على كسر صمتها ولو مرة واحدة.

دافئاً مرّ الشتاء بمزجي إيقاع عنفه المفاجئ وهو يرشق بغضب سمائه البيوت والبشر ويعود ليمسح بإيقاع سكينة شمسه البيوت والبشر، مع إيقاع دفء كف الفتاة التي تركت دفأها في يدي ورحلت.

دافئاً مرّ الشتاء ولكن مروره الدافئ أوقع بي دون أن أدري... لقد تسرّب الدفء داخل عظامي دون أن أدري ليسقي عشبة صغيرة بدأت تنمو بداخل قلبي الطفل دون أن أدري وتدعى الحنين...

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة...

جلست في الحظيرة بين الدجاجات أتأمل صيصاني وهي تتنافس على التقاط الحبيبات المجروشة التي نثرتها لها أمي. انفرد صوص أصفر اللون ومشى بتهادٍ ثم ما لبث أن ركض رقشاً بعد أن خطف حبيبة تحت

تهديد منقار صوص آخر كان متجهاً لالتقاطها. ضحكتُ ولكنني شعرت بالقلق في هذا الانسجام عندما عددت صيصاني وهي تتجمع على وعاء الماء الذي وضعته أمي أمامها ووجدت أنها تنقص واحداً. عددت صيصاني: واحد، اثنان، ثلاثة/ أربعة، فقط..

ـ لقد كانوا خمسة بالأمس.. قلت لأمي، فانتبهت لي. جالت بعينيها في أرجاء الحظيرة قلقة من الهدوء الذي خيم فجأة ووصلت بعينيها إلى أعلى الجدار. تأملت الشق فيه وانتقلت بعينيها لتمسح موجودات المكان الأخضر الندي خلل رذاذ ضوء الشمس الذي ينصب بغزارة وهدوء. مسحتْ عيناها شجرة التوت المخضرة الأوراق، والسورَ الذي تسلّقت عليه الأغصان المورقة المتدافعة بتزاحم نحو الضوء، وأشجارَ الورد النابتة بعبثية وإهمال دون تقليم. مسحتْ معلف الخراف الذي عاثت به الفوضى، وقنَّ الدجاج الذي أنهكه الإهمال، والماءَ الأخضر الذي غطّى بقعاً من الأرض المعشبة هنا والجرداء هناك. مسحتْ موجودات المكان المهمل الغارق بتكاسل في هدأة النور.

ـ لقد جاء الربيع دون أن نحس به.. قالت ومدت يدها إلي. أمسكتُ بيدها ونظرتُ حيث عاد نظرها للثبات إلى الشق في أعلى الجدار وأصبت بالرعب فشدت بيدها على يدي مطمأنة إياي.. لقد كانت هناك. الحية كانت هناك. الحية حية العين نفسها الخضراء المرقّطة المتماهية الألوان بطحالب جدار الحظيرة. الحية التي مدّت رأسها ورفعته محيية لتسمّرني في مكاني بجلال الرهبة.

ـ إنها حارسة البيت. احذر أن تؤذيها كي لا تؤذيك.. قالت "ماما" بهدوء دون أن تزيح نظراتها عن كائن الرهبة الجليل الذي طأطأ رأسه بهدوء منسحباً في تفاصيل شق الجدار.

أقف متأملاً البحر على الشاطئ. العتمة هاوية تبتلع المدى. أنظر إلى خيط القمر تغطيه سحابات شاردة داكنة. أصرخ في هذا الليل أن يكتمل. أقول: ليكتمل السواد. أنظر موج البحر يزحف هداراً لينسفح تحت قدمي ويتسلل بهديره الصاخب إلى قلبي. أنظر في وجه العتمة. أسمع صوت هدير مألوف. أسمع صوت هدير نهري وأراه. أراه قادماً بهديره في اتجاهي. أنظر إليه من مكاني المعتاد على الجسر. أنظر إلى مياهه الهدارة حول عمود البازلت الأسود تحتي كما هاوية تتحرك وتدعوني للولوج.

ـ قلتَ لي أن الغزال أعجبك. هل تريد أن أعلمك صيد الغزال؟.. قال أبي وهو يضع يده على كتفي وأحسست بالسعادة والزهو.

ـ نعم. علّمني كيف أسوق الموتوسيكل وكيف أطلق النار.. قلت وشعرت به يتراجع بعد أن أحس بفداحة عرضه.

ـ تطلق النار!؟ نعم، لكن عندما تكبر. أنت تعلم. عليك أن تتقن الصيد بالصنارة، وأن تكبر قليلاً لأن الضرب بالنار خطر.. قال أبي ثم حاول تغيير الحديث.

ـ قلتَ لي أن الغزال أعجب أمك أيضاً! هل تعتقد أنها مازالت غاضبة.. قال وتداعت إلى ذاكرتي صورة أمي وهي تضمني وتقول غاضبة ومتحدية: راح يشوف. يشوف.. وهربتُ من تساؤلات عينيه إلى مراقبة الفلينة الطافية على قلب الصمت.. الفلينة مركبة فضاء تمخر قلب الصمت بصمت، تلقي بي في حضن حديقة أمي.

أجلس في مكتبي. أعيد شريط ما دونت من روايتي. أحس أنني ضائع في تشابكات خطوط بنية بالغة الصعوبة. أفكر أن علي أن أفككها وأتحدث هكذا ببساطة كما تتحدث جدتي، ولكن هيهات. لقد سلكتُ درباً أشبه بدرب الصدّ لاردّ كما تقول أمي، وعليّ أن أبتكر حلول توغلي في هذا الطريق. أهرب من تعقيد أفكاري إلى عملي. أتناول تحقيق ردود المثقفين حول الحرب. أحدث نفسي أنني أحتاج لبعض الردود من أجل استكمال العدد. أتصل بروزا. أطلب مقالي من الصف، وتحضر لي روزا مقالي. تضعه أمامي. أنظر الخط الأحمر الذي وضعته روزا تحت اسمي. أنظر إليها.

ــ هل أعجبك المقال؟.. أقول لها.

ــ لماذا تجازف هكذا الآن. انظر إلى وضعك. إنه الأسوأ بينهم. هل تظن نفسك المسيح. كلهم سيتراجعون وسترى بنفسك ذلك.. تقول وأنظر إليها. أشكرها.

ــ أنت حريصة علي. ها. هل يهمك أمري؟.. أقول ممازحاً إياها. تضحك بقهر وتمضي.

ــ لم يعد يهمني أمر أحد.. تقول وتمضي.

ألملم أوراقي. أحس أن علي إنهاء تحرير الردود لتقديمها إلى عائشة. أنهي عملي. علي أن أسرع...

أضع المقالات أمام عائشة بعد أن أسلم على نصير والدكتور سعد. تطلب مني عائشة الجلوس.

ــ كنا نتحدث في الموضوع نفسه: ردود المثقفين على الحرب. لقد عاد الدكتور سعد من بيروت بربع الردود، والربع نفسه تشم فيه رائحة الحذر. إنه يقول أن المثقفين العرب عموماً جزء من الأزمة نفسها. المثقفون ليس

لديهم الأرضية الصلبة لاتخاذ مواقف خاصة بعد أن اتضح لهم النصر الأمريكي.

ـ لكن دكتور، نحن لم نطلب من المثقفين القتال. نحن صحافة، نسجل الموقف مهما كان لرصد حركة الواقع، وكشف حقيقة هذه الحركة.. أقول للدكتور سعد.

ـ أنا أفهم ذلك.. يقول لي، ولكن حديثي مع عائشة لم يتوقف عند ظاهرة حسابات المثقف. أنا أقول أن أحد أسباب النفس القصير لدى المثقف يكمن في عدم الثقة بالتاريخ وبالواقع، وبقوى التغيير، وأرجع ذلك إلى السنوات الطويلة من تغييب حرية المثقف وكتم الأنفاس، وكم الأفواه، وخنق الصوت، يقول وينظر إلى نصير الذي لا يترك فرصة عادة دون أن يدلي برأيه، غير أن نصير يظل صامتاً.

ـ أنا معك دكتور.. أقول، في أننا كمثقفين جزء من الأزمة ونحن نتاج تاريخ القمع، لكن يفترض أن جزءاً كبيراً منا وبسبب الثقافة نفسها يعون هذه الحقيقة وعليهم أن يحلّقوا فوق ردود الفعل. أي بأجنحة وعي الواقع وهذا ما حدث معنا. لدينا ردود كتّاب مثل خالدة سعيد وغيرها وقفوا ضد الحرب رغم ثقتهم بعدم جدوى وبؤس السلوك الحربي والإعلامي للنظام العراقي. ولدينا ردود وضعت قدميها على الضفتين مثل رد أدونيس. وهناك مثقفون لم نأخذ رأيهم أصلاً كانوا قد حسموا موقفهم بالقتال مع التحالف من خلال هجومهم الإعلامي على صدّام حسين مع الهجوم العسكري للتحالف.

ـ أنا أقول أن المثقفين هم الأكثر عرضة للانتهازية، ويعرفون أين يضعون أقدامهم.. يقول الدكتور سعد، وأوافقه جزئياً على رأيه.

تضحك عائشة. وألتفت إلى نصير.

ـ لم تسجّل لنا رأيك. أنت الأكثر حسماً للموقف ضد الحرب. أقول لنصير الذي تزعجني حياديته بعد كل هذا القتال.
ـ لقد انتهت الحرب. يقول لي. أنا ناشر كتب ولست كاتباً. أنا أقاتل على طريقتي. اتفقت مع عائشة على مهمة تشبه مهمة ردودكم، وتتعلق بمشروع ترجمة ونشر الكتب التي وقفت ضد الحرب.
ـ وأنت؟.. تسألني عائشة.
ـ لقد كتبت مقال الصفحة الأخيرة، كما لو أنني أقول للتحالف: حسناً يا أولاد الـــ.... هناك من لا يزال يقف ضدكم. أقول وأنظر إلى نصير الذي يضحك ببراءة وتزعجني حياديته.

أقف متأملاً البحر وحيداً على الشاطئ. أنظر في وجه العتمة. أدير رأسي بهدوء نحو حصى الشاطئ. أمشي بهدوء فوق حصى الشاطئ. خيط القمر يعود. ينير رأس الموجة التي تتقدم مني بهدوء. أمشي فوق حصى الشاطئ. أستعيد حوار لقاءات اليوم وألوم نفسي على موقفي من نصير. لماذا ألوم نصير، ولماذا أشكك بمواقفه؟. لقد أصبحت أكثر حساسية ولم أعد أستطيع تمالك نفسي، علي أن أنتبه إلى حالي. أفكر بموقف روزا. إنها تلومني على مقالي، وكأنها تعلم ما لا أعلم. هل علي أن أراجع موقفي. اللعنة. إنها هزيمة كاملة، والأكثر بؤساً هو سؤالي لنفسي هل علي أن أراجع موقفي...
أسترجع بذاكرتي صورة الرجل الهادئ في الزنزانة. ترى بماذا يفكّر الآن. بماذا يفكر رياض الترك الآن. هل يراجع قراره مثلما أفعل الآن أم أنه رماه خلفه نهائياً. لقد حدثني مرة عن تجربة سجن سابقة. قال إنه يطرد عن داخله كل ما يتعلق في الخارج كي لا يهز عزيمته. هل رمى الخارج خلفه نهائياً ورفع قبضته العارية في وجه الجدار. أسترجع شريط

ذاكرتي عن موقفه وهو ينظر إلى قرار انسحابه الذي أعدوه له. يقرؤه بهدوء. يعيده إليهم بهدوء. أفضل طريقتي في الموت. يقول لهم.

أقف متأملاً البحر وحيداً على الشاطئ. أنظر في وجه العتمة. أدير رأسي بهدوء نحو حصى الشاطئ. أمشي بهدوء فوق حصى الشاطئ. أطرد أفكاري حول قراري. أرى مسيح نيكوس كازانتزاكيس وهو يغرق بآلامه على الصليب: أعطني يدك أيها السيد. تقول له الفتاة. ينظر إليها السيد من آلام صلبه التي لا تطاق. آلام قاسية لا تطاق. آلام الجسد قاسية لا تطاق: لماذا لا تغيبين، لقد كدت أن أنسى آلام الجسد. يقول. أعطني يدك أيها السيد. تقول الفتاة. تلك هي يد أبيك يد الله. آلام الجسد لا تطاق. هل أنتِ متأكدة أنها ليست يد ما قبل الله. أعطني يدك أيها السيد. تقول له الفتاة، يدي ماء وعشب وبيت دافئ وحضن وزوجة وضحكات أبناء وأمك، يدي حضن أمك أيها السيد. وينظر السيد إلى الفتاة. إنها وادعة، صبية أليفة وادعة، إنها وجه لا يمكن أن يضمر الشر، وجه الخير هو هكذا. وجه الخلاص هو هكذا. ينزع السيد يده اليمنى من مسمار الصليب. ينزع السيد يده اليسرى من مسمار الصليب. يناول يده للفتاة وينزل: ما بال الناس ينظرون هكذا إلى الصليب. ما بال هؤلاء البشر المتحلقون حول الصليب. أنا لم أعد هناك. أنا في البيت حول موقد النار، محاطاً بدفء زوجة وضحكات أبناء، أنا لست على الصليب، أنا لست على الصليب، أنا لست على الصليب، يا إلهي. ينزع السيد يده مرعوباً من يد الفتاة. السيد على الصليب. دامياً يرفع رأسه بجهد اللحظات الأخيرة: أبي، يا أبي، لماذا تركتني يا أبي.

اللعنة. إنها هزيمة كاملة. يلمع في ذاكرتي وجه الفتاة الوديع تمد يدها إلى المسيح طالبة منه أن ينزل عن الصليب. المرأة هي الإلهة والخطيئة أقول. ولكن.. لماذا لا تكون روزا على حق. إنها ليست المرة الوحيدة التي أمارس فيها سلوك التيس في الزمن الخطأ. أفكر بمقالي. إنه جميل وساحر. أفكر بخط روزا الأحمر تحت اسمي. المرأة هي الإلهة والخطيئة. أفكر بروزا.. لقد توقفت عن النظر إلي. إنها لم تعد تنظر إلي. أحس أنني معاقب هذا اليوم، هل كان ضرورياً أن أوقّع باسمي على هذا المقال.. محمد لا يفعل ذلك في افتتاحية المجلة. "سوف تكون المطاردة عنيفة، وأقلها الحرمان من لقمة العيش"، قالت روزا وهي تلومني على وضع اسمي على مقال لا يزال يعلن أنه ضد حرب الأمريكان على العراق بعد انتصار الأمريكان. هل روزا على حق في ذلك. لماذا تلومني روزا. يبدو لي أن موقفها هو أبعد من مسألة المقال. إنها تخفي عني شيئاً، هي تعرف عائشة ومحمد أكثر مني، ويبدو أنها تعلم أسراراً تخفيها عني. لكن لماذا تخاف عليّ. إنها فتاة مسيحية مارونية، ومخطوبة.. صحيح لهذا الثقيل جورج، ولكنها تعرف أنني مرتبط بحب. لماذا أفكر بموقفها على هذه الصورة. وهل يعني خوف أي فتاة على رجل هو حب له. لماذا لا أعيد موقف روزا إلى روح الصداقة وحرص النساء الأمومي على من يصادقن من رجال دون أية شطحات مرضية ذكورية. أعرف أنني مشوش التفكير ولم أعد أعرف موضع قدميّ رغم أنني أبدي تماسكاً محسوداً عليه أمام الجميع. اللعنة على هذه الحرب. أفكر بنصير. إنه رفيقي، وليس علي أن أشكك بموقفه ففي النهاية سوف يكون موقفنا واحد، لكنه يقلقني بصفقته لطبع الكتب مع عائشة حيث أن النظام الليبي لن يكون بعيداً عن هذه الكتب. لقد تجنبني اليوم، ولم يأت إلى زيارة مكتبي كما يفعل بعد زيارته لمكتب عائشة. لقد نظرتْ إليّ روزا بتشفٍ وكأنها تريد

إثبات وجهة نظرها. ألم أقل لك. هذه الفتاة تعرف شيئاً وتخفيه عني. اللعنة على هذه الحرب.

أقف متأملاً البحر وحيداً على الشاطئ. أنظر في وجه العتمة. أدير رأسي بهدوء نحو حصى الشاطئ. أمشي بهدوء فوق حصى الشاطئ. خيط القمر يعود. ينير رأس الموجة التي تتقدم مني بهدوء. أمشي فوق حصى الشاطئ. هل كان قراراً صائباً، أم إعادة اعتبار وهمية للذات. مقاومةً أم شكلاً آخر للانهيار. خلاصاً أم وهم خلاص!؟.. أضرب حصى الشاطئ. أركل واحدة أخرى نحو البحر. خذ أنت أيضاً. أحس أنني وحيد، وحيد ومنبوذ، منبوذ وغير مرغوب فيه. أفكّر بريجيس دوبريه وبطله غير المرغوب فيه فرانك. إنه لم يعطنا رأيه في الحرب، ولكنه استقال من وظيفته كمستشار لميتران. كم أحس أنني وحيد، وحيد وغير مرغوب فيه. وحيد وأحس أن هذا هو زمن المنتحرين.

أقف أمام روزا التي تغلق حنجور سائل التصحيح وتنظر إلي. أسألها أن تطلب لي نورا في باريس وأحسّ بحرجها. كم تخاف من عائشة. أضحك، وأطلب منها الانتظار. أدخل مكتب عائشة. أقول لها أنني سأطلب مكالمة إلى باريس وتهز رأسها.

أشير إلى روزا بإبهامي علامة الموافقة وتضحك. أجلس في مكتبي منتظراً. أتشاغل بتقليب مجلة أمامي دون أن أحس بالصور. أراقب روزا وهي تضغط على الأزرار لطلب الخط. يرن تلفوني. أرفع السماعة بسرعة. يأتيني صوتها دافئاً متلهفاً وينطق اسمي. كم أحب أن أسمع اسمي في أنفاسها. أحس بأنفاسها الدافئة على الخط. أسألها كيف أحوالها وأحوال طارق، وتسألني أين كنت هارباً، ومع من في بافوس. لقد اتصلتْ في غيابي. أضحك وأقول لها: "لماذا لا تصدقين أنني كنت لوحدي".

أثبت لها أنني كنت لوحدي بالصراخ: وحياتك. وعيونك. وتقوم روزا ضاحكة لكتم صوتي عن الآخرين بإغلاق باب مكتبي.

ــ اسمعيني نورا. اتصلت لأخبرك أنني بدأت كتابة روايتي. ولقد طلب مني المخرج السينمائي هشام أن أكتب تجربة منفاي للعمل معاً على فيلم، وذهبت إلى بافوس لأنفرد بنفسي.

ــ وهل انفردت.. تقول وتتابع غامزة. بنفسك.

ــ نعم. لا شيء كان مغرياً صدقيني.

ــ وسائحات بافوس. عيونك لم تكن تهدأ في باريس.

ــ نعم لكن كان هناك من يعطل مخي عن الفعل.

ــ وما أدراني. أنتم الرجال لا يؤمن لكم.. تقول وأشعر بمرارتها المتسربة من خلال سخريتها. إنها لم تنس إساءة يوسف. لقد خانها كما يبدو وهي لا تريد الحديث مع أحد في هذا الأمر. لن تتقبل نورا أبداً حقيقة

أن رجلاً استطاع أن يخونها، ولن تغفر له نفسها المكابرة أبداً هذه الزلّة. كان الله في عونك أيها الرجل يوسف، فلا أحد يتمنى أن يكون في محلك. أحس بمرارتها وأغير الحديث.

ـــ المهم نورا. متى تأتين. لقد حل الربيع. أين الوعود!؟.. أقول وتتنهد، وتصمت.

ـــ يصعب علي القول هاني. يبدو أنني سأنتظر قليلاً في فرنسا. أخبرت يوسف بذلك ونحن على وشك حل مشاكلنا. لا تقلق. سوف آتي ولو للزيارة. بالمناسبة هاني. هل كلمت عائشة عن رواتب سامح. إنها تدفع له بالقطارة، ووضعه المادي سيء. تقول وأطمئنها بأنني فعلت، وسأحاول مجدداً. أقول لها وتدور في مخيلتي صورة عائشة التي شعرت بحرجها من تذكيري لها برواتب سامح.

ـــ هل تأكل جيداً؟.. تقول وأضحك.

ـــ كنت أتوقع سؤالك. ولهذا أنا أقوم بحملة تغذية، ولن يكون هناك هاني المعصعص بعد الآن.

ـــ يااااه.. مازلت تذكر!. لقد مضت أكثر من 25 سنة.. تقول وهي تستعيد ذكرى قتالاتنا ونحن طفلين.

ـــ نعم أذكر أن فتاة سميتها لصة المجلات أتحفتني بهذا اللقب، لكنني سأزيله فلا تخافي.. أقول وتضحك.

أعدّل وأنا جالس وضع الديك المنتصب بجانبي على ساعد المكتب. أنظر إلى عنقود الزهر الأصفر أمامي في المزهرية، أمد يدي بحذر من شوكاته لتعديل وضعه. أنظر إلى النافذة. اللون بدأ يميل إلى الداكن. أشعر بالحاجة إلى استنشاق الهواء. أقوم وأفتح النافذة. أملأ رئتي بهواء الربيع المنعش الممتزج بعطر ليمونة الجيران. لن تكف هذه الليمونة عن قتلي. أعب عطر الليمون ملء جسدي. يا إلهي سوف يقتلني هذا العطر. سأوصي أن أدفن في سرير من تويجات الليمون، وأن تزرع بجانب قبري شجرة ليمون. أحدث نفسي وأحس بالعينين الجميلتين اللتين تراقباني عبر الزجاج. أنظر باتجاه روزا. أنظر في عينيها اللتين تستحيلان ليمونتين صغيرتين تفتحهما محدقة بي. أين ذهبتَ!.. تقول لي عيناها. أزيح عيني بابتسامة اعتذار. لم أستطع المقاومة.. تقول لها عيناي.

أعود إلى مكتبي. أجلس وأطبق كفي كعادتي على بعضهما كما الراهب في صلاة. أضغط شفتي على إبهاميهما وأغيب في لون أصفر عابق برائحة الليمون. متى تأتي نورا!.. سوف لن أستطيع الانتظار. تدخل روزا إلى مكتبي. تضع الصفحات المخرجة أمامي بانزعاج. أستغرب تصرفها. تقول لي: تفضل. وأحدق في عينيها مستفهماً غير أنها تهرب بعينيها من عيني وتمضي. أتابع حركة جسدها الرشيق وهي تمشي وتجلس على مكتبها. إنها لا تنظر إلي لكنني أعرف أنها تراني. أقلّب الصفحات أمامي. أضع مقالي على رأس الصفحات لتصحيحه.

"أيتها المرأة المحاربة من المارينز". أقرأ مقالي بمتعة. إنه مذهل. أحس بالزهو، وانتبه إلى نفسي. أتذكر سخرية سامح المحببة إلي: "أنت الوحيد الذي يمدح كتابته بنفسه حتى قبل أن يكتبها". أضحك على عاداتي، أحس بالزهو غير أنني لا أحس بالراحة. تلمع في رأسي الفكرة. إن هذا هو ما

أزعج روزا. إنها لا توافق على لهجتي العنيفة في الكتابة ضد التحالف.. لقد قرأتْ مقالي حتماً قبل أن تحضره إلي. أنظر إليها موحياً أنني عرفت، وتنظر إلي بسخرية: "هل تستمتع بالبطولة".. تقول لي عيناها، وتدفعاني للغيظ والتفكير. لماذا تخاف علي هذه الفتاة. إن هناك حتماً ما تخفيه. أنظر إليها وأهز رأسي: سأريكِ.. تقول لها عيناي.

أعود لمتابعة عملي على الصفحات المتراكمة. أنظر إلى النافذة المفتوحة، وأعود للغرق في عملي. لقد خيم الهدوء على المكان. غادر الجميع المكان. أنظر إلى روزا الوحيدة الباقية خلف التلكس. أضع يدي خلف رأسي وأقوس ظهري إلى الخلف كي أنفض تعب اليوم. أقوم وأدخل مكتب روزا. أقف بجانبها وهي تنهي الكلمات. تحذرني من النظر إلى أسرار المجلة.

ـــ القضية أبعد من مجرد وهم للبطولة.. أقول وتنظر إلي. تقوم دون أن ترد علي. تدور في أرجاء المجلة للتأكد من عدم وجود أحد. تغلق باب غرفة الأرشيف، وتعود. تقف أمامي.

ـــ ماذا تسمي مقالك إذن.. تقول وتنظر متحدية في عيني.

ـــ أنا أكتب قناعاتي. أقول بتصميم.

ـــ في الزمن الخطأ.. تقول وتتجه إلى مكتبها، ترتب أغراضها للمغادرة. أتبعها وأقف بجانبها عن قرب بإلحاح أن تفضي لي بمخاوفها.

ـــ حسناً، لن أخفي عليك. هناك عدم رضا عن اتجاه المجلة من قبل الممولين الليبيين، وعائشة ومحمد محتاران ماذا يفعلان.. تقول وأنظر في عينيها.

ـــ وما موقعي أنا في كل ذلك!؟.

ـــ متى تكف عن هذا الاستهتار. أعتقد أنك ذكي كفاية لتدرك أنك الوحيد الذي سيكون له موقع في ذلك. سوف تكون مخطئاً إن فكرتَ أن عائشة لن

تبعدك عن المجلة من أجل تخفيف النفقات إن لم يكن لإرضاء الممولين الليبيين وطمأنتهم عن اتجاه المجلة.. تقول وأبتسم لها. أستفزها بالقول إنها فقط متحسسة من عائشة، وتغضب. تدير لي ظهرها وتتجه لأخذ حقيبتها كي تغادر. أمسك بكتفيها من الخلف. أحس بجمودها واستسلامها ليدي. أشم رائحة أنوثتها الأخاذة، وأندفع إلى إدارتها لمواجهتي. تنظر إلي باستسلام واستغراب. أضع كفي اليمنى بين خدها وعنقها. تميل برأسها على يدي محتجزة إياها بخدها المضغوط على عنقها. تصل سبابتي وإبهامي إلى حلمة أذنها. أداعبها بلطف. تغيب قليلاً وتستفيق من غيابها.

ــ لا أظن أن علينا التورط هاني. تقول لي بصوت ضعيف وأنظر في عينيها بحنان. أوافقها بحزن عيني. أرفع كفي عن خدها. تأخذ حقيبتها وتسألني بارتباك هل سأبقى، وأجيبها لا سوف نخرج سوياً. أتجه إلى مكتبي. أطفئ النور وأتبعها. أنظر إليها بين الفينة والفينة في المصعد. أحس بعينيها ترياني دون أن تنظرا إلي. يقف المصعد. أفتح لها الباب وأتبعها. نمشي سوياً في طريق بيتها.

ــ لماذا فعلت ذلك!؟.. تسألني بقدرة الأنوثة الواثقة.

ــ لست أدري روزا. أحياناً أفقد السيطرة على جسدي.. أقول وتصمت. أسألها إن كنت مديناً لها باعتذار، وتطمئنني.

ــ لا.. لم يحدث ما يوجب ذلك. أعتقد أنني يجب أن أفرح لكن أنت تعلم وضعي ووضعك. علينا أن نستمر كأصدقاء فقط. تقول وأجيبها بسرعة أنني مثلها أعتقد ذلك. نمشي صامتين. رجل وامرأة يشدّهما ما يفرقهما. رجل وامرأة يمشيان صامتين. ننحرف يساراً باتجاه بيتها. أقطف زهرة بنفسجية مدلاة من الشجرة على يساري. أقدمها لها.

ــ لن يضير صداقتنا تقديم زهرة. أليس كذلك!؟.

ــ بالعكس. أحب أن تقدم لي الزهور.. تقول وتضحك. تسألني عن أخبار نورا. أقول لها أنها جيدة.

ــ حسناً. أنا متحسسة من عائشة. أليس كذلك!؟ لم تقل لي لماذا. أخبرني؟ تقول غير تاركة مامرّ يمرّ بسلام، وأحاول التملص..

ــ ربما غيرة النساء المعتادة من بعضهن. أقول مازحاً.

ــ هل تحس أنني يمكن أن أغار من عائشة. لماذا لا تفهم أن الأمر لا يتعلق بعائشة، لماذا لا تريد أن تفهم أنك لا تعمل في مجلة صافية لتحرر المرأة بل في مؤسسة رأسمالية لها ممولون وشركاء لا يحسبون سوى حساب السوق، وأنا أرثي لعائشة وضعها بينهم.. تقول غاضبة من شكي بدوافعها.

ــ أنت تتعاملين مع الأمر بتطرّف. ليس هناك من مجلة صافية. والمجلة تبقى مجلة تحرر بكتّابها ومحرريها، وأنا أحاول الحفاظ على هذه السوية.. أقول مدافعاً عن المجلة.

ــ سنرى كم يطول حفاظك على هذه السوية.. تقول وأتصنع الغضب كي أغير الموضوع

ــ كم أنت تشاؤمية ونكدية.. أقول وتضحك بقليل من المرارة. نقف أمام بيتها.

ــ هل تحب الدخول!.. تقول وأحس أنها محرجة. أشكرها وأمد يدي ضاحكاً. أحتضن يدها وتضحك محمرة الوجه، قبل أن تمضي في الرواق.

زلازل المنفى

أمشي مسحوراً على شاطئ ليماسول. أفكر أن أستفيد من عطلة هذا الأسبوع الساحر في الكتابة، ولكن لأستمتع قليلاً بروعة بداية هذا الصيف. رصيف الشاطئ أمامي يعج بالسائحات اللواتي يتهادين بأعمدة من رخام إلهي مذاب، سيقان ممشوقة يلف نهاياتها ليظهرها أكثر مما يخفيها حرير الشورت الجارح.. أتأملهن وهنّ يتجهن لاحتلال مواقع تلوّح أجسادهن البيضاء بسمرة الشمس وتكوي جليد قلبي بعذاب ترددي وتساؤلاتي. تخطف روحي لمعة لون أبيض في حدّ نهاية درب الشمس. لون أبيض محزوز لسعته سياط وردية. أتأمل لسعة السوط وهي تسوط روحي متموجة في لعبة تجل واختفاء وتجلّ مرهق فوق حنايا صفحة تفاحة الفتاة التي تسير أمامي وتبتعد. أنظر صوب البحر على يساري. أحدق بالزبد الأبيض الذي يترامى بهدوء ودلع فوق الرمل ليتلاشى فيه. أمد نظري أبعد قليلاً لأغسل روحي في شريط الزمرد المتموج بهدوء ورغبة في احتضاني. أقف قليلاً لأموّج روحي فيه، لأغرقها فيه وأتساءل.. هل يكفي هذا العمق لأصل إليكِ.

أمدّ بصري إلى نهاية قوس الزمرّد. أتوقف في حدّ البحر الكحلي. أتوقف خوفاً من أن يشطر روحي ويذوّبها أحزاناً.. هذا يومٌ لله وللشمس وللأجساد المتناثرة على شاطئ دفء البشرية.. فلماذا أغرق روحي في هذا اللون الداكن. يا ألله. لوكنت هنا نورا، لو كنت هنا...

أسترجع شريط صوتها وهي تهدئني.. "لا تزعل هاني، هناك أمور تخص العائلة، سأنزل في بيت أخت يوسف بنيقوسيا، وسأزورك في ليماسول، فلا تقلق". يا ألله، لوكنت هنا الآن. أسبوع واحد. أسبوع وتكونين هنا لكن كيف الصبر.

يسرق نظري جسدٌ مشلوح فوق الرمل، باستسلام كامل لأصابع شمس المتوسط وهي تقمّره. أحدق بخجل في الرابية الناعمة النائمة باستسلام بين يدي الله. هذا يوم لله وللنعم المتناثرة على شاطئ رغبات الإنسان المطلقة بأجنحة النور.

أزيح نظري باتجاه الزبد الأبيض المترامي فوق الرمل ليتلاشى فيه وأمشي. أنظر صوب فتاتين ممدتين بنعومة فوق المناشف. يلفت نظري المايوه المحافظ الذي ترتديان، وقبعتيهما اللتين تغطيان وجهيهما. أحدّق بفضول ويخفق قلبي. تلك روزا وأختها اللطيفة لونا. أبتسم وأقترب. تحسّان بي قربهما وتعتدلان. ألاحظ خجل روزا من انكشافها أمامي بثياب البحر.

ــ جميل مايوه الراهبة الذي ترتدين.. أقول ضاحكاً لأبدد خجلها، لكن وجهها يحمرّ. أحس أنني ارتكبت خطيئة لكن ماذا فعلت!؟.. تضحك لونا، وتنتشلني من حرجي.

ــ كيف عرفت أن روزا كانت ستصبح راهبة؟.. تفاجئني لونا بقولها وأضحك.

ــ كل تصرفاتها تدل عليها. ليتك ترين تزمتها في المكتب.. أقول وتضحك لونا.

_ لا تسألني عن ذلك.. تقول وتضحك روزا لينفرج الجو الذي لمست اشتعاله خطأ. أجلس قربهما. نتحدث عن الطقس. تشير روزا بعينيها إلى شقراء تتهادى أمامنا.

ــ انظر كي لا تفوتك الفرصة.. تقول غامزة من نظراتي التي تعرف هي بغريزة الأنثى أنها لا تهدأ.

ــ هذا يوم لله.. أقول وتضحك الفتاتان.

تقوم لونا حاملة محفظتها لتقدم لنا ما نشرب، وأختار البيرة. يسود الصمت بيني وبين روزا.

ــ كم بقي لعيونك من فرصة الزوغان.

ــ أسبوع واحد وأترهبن.. أقول وتضحك روزا.

ــ أشك بقدرتك على ذلك. ماذا فعلتَ مع الشاعرة!؟.. تقول وتجمد دمائي. أضحك لأبدد إحراجي.

ــ قال لك حسّان أننا استقبلنا الشاعرة وكنا نحن الثلاثة معاً في بيتي.

ــ وكنتما اثنان قبل أن تدعوا حسان. تقول ساخرة لاكتشاف ما حدث وأضحك.

ــ حسناً. ماذا لو قلت لك أنه لم يحدث بيننا شيء! وأن احترامي الكبير لها وقف حائلاً بينها وبين تمرداتي.

ــ سوف أصدق هذا فقط لو شرحت لي ذلك، لأن مارأيته من استقبالك لها في المكتب ووضع رجلها على الأخرى بهذا الارتياح أمامك لا يشجعني على التصديق.. تقول ضاحكة، وأصمت.

ــ قل لي أولاً لماذا دعوت حسان!؟.. تقول متخابثة، وأضحك.

ــ هل يريحك قولي أنني دعوته خوفاً من أن أنساق لرغبات المتوحش الذي بداخلي.. أقول وتضحك روزا.

ــ أصبحت ملزماً أكثر بالشرح. تقول منتظرة شرحي.

ــ ثقتك المعدومة بالرجال تقول لك أنني فعلت أو حاولت أو فكرت بافتراس المرأة. أقول وتهز رأسها موافقة وساخرة ومنتظرة أن أكمل.

ــ حسناً.. سوف لن أخفي عليك أنني فكرت بها.

ــ ولم تحاول!!.. لقد كنتما معاً في شقتك الجميلة المريحة.

ــ قدمت لها كأساً من البراندي واستمعت إليها بشغف وهي تشتعل بإلقاء قصيدتها حول البحر. كنت مشتعلاً بالرغبة لضمها وهي على هذه الحالة

من انجذابها الصوفي، لكنني فكرت أنها ربما أرادت أن تسمعني شعرها لكي تضعه حائطاً بين جسدينا.

ــ وربما كان العكس.. تقول روزا ضاحكة.. ربما أرادت أن تشعل بينكما طقساً غريباً! لقاءاً استثنائياً معجوناً بالشعر، وأنك أضعت عليك فرصة لا تعوّض. هل أضعت الفرصة؟.. تسألني بخبث عابر.

ــ نعم.. لقد أضعتها. لكن هل تعتقدين أنها كانت تريد ذلك وفق معرفتك لبنات جنسك. أقول مجارياً إياها في عبثها.

ــ نعم! لكنك لم تقل كيف حال نورا.. تقول موجهة لكمتها القاضية لي، وأفكر بنورا. نعم. ماذا ستقول نورا لو عرفت أنني دعوت شاعرة إلى شقتي.

ــ هل ستستقر نورا في قبرص؟.. تسألني روزا محاولة مصافاتي. وأقول أننا لم نقرر شيئاً بعد، ولكني أنوي أن أطلب منها ذلك. ألاحظ علامات التفكير على وجه روزا، وأحس أنها تريد أن تقول شيئاً وتتردّد كعادتها.

تأتي لونا وتقدم لنا البيرة. أشكرها وأحتسي زجاجتي بمتعة مع استمتاعي بالنظر إلى السابحين والمستلقين بتناثر على الشاطئ تحت الشمس. هذا يوم لله وللنعم المتناثرة بأجنحة النور.. أقول.

أحتسي بيرتي ببطء وأنا أنظر بحيادية المطلق إلى جمال هذا الشاطئ الذي يتناثر فيه البشر مرفرفين بأجنحة الصمت تحت رذاذ شمس الله. تسترخي روزا وترتمي بظهرها على منشفتها فوق الرمل. ينسفح شعرها فتيلاً بجانب رأسها الذي يطلق تنهيدة استسلام. أسمع صوتها يأتيني متكسراً.

ـ لم تقل لي، ما سبب زيارة شرطة الهجرة لك؟.. تقول ويدخل صوت الشاطئ في مشهد صمتي. أنظر إلى ساقيها المسفوحين بعريهما الساطع

جنبي. أطيل النظر. أي شيطان يدفعني للنظر إلى ساقيها كي أهرب من هذا السؤال. تحس بموجات نظراتي وتعتدل. ترفع نظارتها الشمسية عن عينيها وتنظر إلي. أحدق في عينيها اللوزيتين.

ــ لن أسألك لماذا كنت ستدخلين الدير حتى لو طلبت مني ذلك؟.. أقول دون أن أدري ما الذي دفعني لقول ذلك. تتكفئ عيناها عن عيني. تعدّل المنشفة تحت ساقيها، وتعود للاسترخاء. ينسفح شعرها الأسود من جديد قتيلاً بجانب رأسها، وأعود للنظر إلى الشاطئ أمامي. يختفي صوت الشاطئ مع تلاشي صوت الموجة التي تنسفح متهالكة بجسدها على جسد الرمل.. هذا يوم لله وللموج المترامي دون سؤال فوق الرمل.. أقول.

ترتمي الأوراق المزدوجة الثلاث على مكتبي بلطف من يد عماد. شعور بالتعاطف من يده يدفعني لأن أكون لطيفاً. أرحب به. أشكره وأدعوه للجلوس. أحس بعيني روزا ترصدان حركاتي. أسأل عماد هل أعجبه مقال الغلاف الذي كتبته، ويجيبني بصراحة أنه لم يكوّن رأياً لكنه اهتم بإخراجه. أخفي شعوري بالاستياء وأسأله عن العناوين، هل تلائم الغلاف، ويجيبني: نعم، لكنها طويلة قليلاً. وأوافقه. أقول له إنني سأختزلها ضمن الاتجاه نفسه. أنظر إلى الصفحة الأولى التي أخرجها. إنها جميلة ومبتكرة لكنها غير مريحة. أدقق النظر في المقدمة الملفوفة حول الصورة وأكتشف السبب، هناك انقطاع في سلاسة القراءة يولّده طول المسافة للوصول إلى السطر التالي. أقدم الورقة لعماد.

ـ ألا تعتقد أن المقدمة مصممة للغة تقرأ من اليسار لا من اليمين؟.. أقول وينتبه هو إلى الخطأ الذي ارتكبه. يوافقني ويسترجع الأوراق مني لتعديلها.

ـ ما رأيك بالإخراج الجديد للعدد السابق؟.. يسألني وأجيبه أنه أعجبني، كما أعجبني أكثر استمرار الوحدة الإخراجية السابقة مع هذا العدد للحفاظ على هوية المجلة، لكن لدي ملاحظات على التنويع في عرض العمود ضمن الصفحة نفسها.

ـ ما به!؟.. يجيبني بسرعة وأفهم من لهجته أنه يريد مشاركتي بآرائه..

ـ أعتقد أن من الأفضل الإبقاء على عرض واحد للعمود في الصفحة خشية من إرباك عملية القراءة.. هذا رأيي والأمر متروك لك. أقول بلطف محاولاً الحفاظ على روحية عناقنا يوم قصف بغداد، ويصمت مفكراً.

ــ رأيك يدعو للتفكير. سوف أدرس الأمر أكثر.. يقول وينهض مرتاحاً لهذا الحوار، وتنظر روزا إلي بابتسامتها الملغومة، وأبتسم لها بدوري. أتذكر تعبيرها المضحك عني وعن عماد بأننا الديكان السوري واللبناني المتناقران ولا دجاجات. أفتح درج مكتبي. أنظر إلى الملف الذي أعددته والمتضمن أخطاء عماد وحسّان لاستخدامه ضدهما إذا ما فكرا بالإساءة إلي. أستاء من نفسي على إعدادي لهذا الملف. أشعر باحتقار لما فعلت. أشعر باحتقار لنفسي. تدخل روزا مكتبي. تضع المجلة التي طلبتها أمامي وتلفحني سحابة عطرٍ أخاذ.

ــ أشّرت على بعض الصور لإرفاقها بالموضوع المترجم.. تقول وأشكرها. تستدير نصف استدارة كي تخرج لكنها تتوقف وتقول:

ــ استراتيجية التطويع السعودية، ها.. تقول وأحس باستيائها من مقالي. أقرر إغاظتها أكثر. أسألها إن كان أعجبها.

ــ نعم، لكن سنرى ما تكون النتيجة.. تقول وأضحك.

ــ ليس أسوأ مما أنا فيه.. أقول وأنظر إلى ظهرها المشدود غائباً في سحابة العطر التي سفحها خروجها. ثمة ما يستلبني في هذه الفتاة ولا أستطيع مقاومته. أضغط زر الهاتف. ترفع السماعة وهي تنظر إلي بثقة من رفع أصابعي ووضعها على الزر.

ــ حسناً. تلقيت طعنة عطرك. لن تتركيني نازفاً هكذا.. أقول ويحمرّ وجهها عبر الزجاج.

ــ ما الذي تريده أكثر. تجيبني بلهجة تحدّ تقاوم بها عصف جملتي بروحها.

ــ طعنة ثانية تشفي الأولى.. أقول وتطعنني ضحكتها الصافية الرنانة مرة أخرى عبر السلك المتوهج...

أعدّل وضع الديك على ساعد المكتب. أتأمله وأسائل نفسي: ما الذي جعلني أختار ديكاً وأحضره من باريس لأضعه على مكتبي. أفكر بديك الصباح الذي يقطع الحكاية في لحظة تشويق تبعد سيف الجلاد عن عنق شهرزاد، إن هذا جدير بديكي. أقول مسروراً لهذا التفسير. أتشاغل بفك شريط التلفون وأحس بعيني روزا تراقباني. أنظر إلى روزا التي أحس بعينيها تراقباني دون أن تنظران إلي. أفكر بحديثها عن الشاعرة. أحس أنها تريد تذكيري بحماقتي معها!؟..أفكر بلطف عماد معي. أفتح درج مكتبي وأنظر إلى الملف. أعود إلى استيائي من نفسي. هل هذا أنا. هل وصل بي الخوف إلى أن أحمي نفسي بهذه الطريقة الجبانة. ماذا فعل بي هذا المنفى. لقد حولني إلى جبان أخرق. ما ذا فعل بي خوفي!؟.. أفكر بنورا. أحس بحاجتي لمكالمتها. أحس بالاختناق وأشعر بحاجتي لها. أنظر إلى روزا راجياً أن تستقبل مكالمة منها. أنظر إلى روزا التي ترفع سماعة التلفون. وتشير لي ضاحكة أن ألتقط المكالمة. لقد أتت نورا لانتشالي. أحس قبل أن أسمع صوتها بأنفاسها الدافئة تحيط بي وتشكل سحابة كاملة تحمي كياني. أقول لها إنها اتصلت في الوقت المناسب، وأخجل أن أقول لها إنني أحتاجها. أسألها عن موعد طائرتها، ويتجمد كل شيء أمامي. يتوقف الصوت وأعوم بين سحابات بيضاء من هلام. يأتيني صوتها، تسألني أين أنا، وأقول لها إنني لا أعرف. قولي لي أين أنا. أقول ذلك بهدوء مرّ وتعتذر. تقول إنها عشرون يوماً فقط، وتكون في قبرص. أنفجر بالغضب. أرفع صوتي راجياً منها أن لا تحدد موعداً لأنني لن أستطيع الاحتمال. أقول وأصمت. يسود الصمت بيننا.

ــ معك حق هاني. يبدو أنني ثخنتها بتغيير مواعيد قدومي. المهم هو كيف حالك؟.. تقول وأردد بمرارة.

ــ تسأليني عن حالي!. أنا بخير ومسرور لزيارة شرطة الهجرة وأتطلع بالشوق لزيارتهم التالية. أمضغ بمتعة ليمون لورانس داريل المرّ على رأي محمود. واليوم أنظر إلى نفسي ولا أصدق أن هذا هو أنا. لقد أعددت ملفاً بأخطاء عماد وحسان لاستخدامه ضدهما إذا ما ضايقاني. أحس أنني أفقد نفسي. أحس أن قبرص تقتلني.

ــ يكفي هذا هاني. ربما كان الحق علي لكن عليك أن تصبر قليلاً. أبو أحمد مريض، والمراقبة شديدة على حركة إعداد الجوازات. اصبر قليلاً، ولا ترتكب أية حماقة. ثق بنفسك، واصبر.

ــ ولماذا علي أن أصبر. هذا البلد يقتلني، وأصبحت أخشى من تصرفاتي. أحس أن كل ما أفعله حماقة في حماقة.. أقول وتطلب مني نورا أن أهدأ، تحس أنني أعاني، وتطلب مني أن أهدأ.. أقول لها حسناً. سأكون بخير وأن عليها أن تغلق السماعة الآن.. تقول لي:

ــ حسناً، لكن ابق الرجل الذي أحب. تقول وتغلق السماعة قبل أن أفيق على اعترافها المذهل لي.

أضع سماعة الهاتف. أجلس مذهولاً. تدور كلمات نورا مع دوران دمائي بداخلي. يهبط هدوء العالم على نفسي. أضم يديّ وأضعهما على شفتيّ في حركة صلاة كما الراهب. نورا تعترف لي بأنها تحبني. المرأة التي حلمت بها لآلاف من السنوات تقول لي أنني الرجل الذي تحب. نورا تقول لي أن أبقى الرجل الذي تحب. أغمض عيني على لا نهائية العالم الذي أحاطني بالهدوء. أقوم وأفتح نافذة مكتبي. أحس أن عليّ أن أشرع عالمي على هواء البحر. أملأ رئتي بهواء البحر المفعم برائحة ليمونة الجيران. كم أقدّر لكم هذا يا أيها الجيران. كم أنتم عظيمون وهائلون وضروريون لهذا العالم وأحبكم يا أيها الجيران. أنظر إلى روزا التي تراقبني، وأحس بحاجة لأن تشاركني هذه الهناءة. هناك امرأة قالت للتو

إنها تحبني. هناك امرأة طلبت مني للتو أن أبقى الرجل الذي تحب. هناك امرأة تغرق عيني بدمعي... أستدير قليلاً كي لا يرى أحد فيض الدمع في عيني. أتجه إلى مكتبي. أفتح درج مكتبي. أخرج ملف الأوراق الوثائقية الخاصة بأخطاء عماد وحسان. أمزّقها وأستدير باتجاه سلة المهملات على يساري. أمزقها أيضاً وأحشو السلة بها. أستدير وأرى روزا تراقبني دون أن تنظر باتجاهي. أشبك يديّ خلف رأسي ليتخلل الهواء صدري. أحس بهدوء روحي يعود إلى داخل جسدي. أنظر بحيادية إلى الفتاة التي بدأت بتوضيب حقيبتها. أتساءل عن الوقت.. لقد خيم الهدوء على المكاتب. تغادر روزا مكتبها وتدخل مكتبي. تسألني ضاحكة إن كنت أريد النوم هنا اليوم، لم يبق أحد في المجلة، وأمازحها بالرد نعم إذا بقي أحد معي. يحمرّ وجهها وتطلب مني المغادرة تحت تهديد إغلاق باب المجلة علي. أسألها ضاحكاً أن تجلس قليلاً لكي أوضب أوراقي. أقول لها إنها المرة الأولى التي تجلس فيها بمكتبي، وتجيبني ضاحكة أن مكتبي هو الوحيد الذي حظي بهذا الشرف. أحس أنها تريد التخفيف عني. أخبرها وأنا ألملم أوراقي أن نورا ستتأخر أيضاً في الحضور وتجيبني أن هذه المرأة تنال إعجابها على تأديبي.

ـ كما تنالين إعجابي على نكديتك.. أقول لها ضاحكاً ومتوقعاً منها التنكيد بعد مواساتها لي.

ـ طلبت عائشة من عماد أن يؤجل طبع العدد إلى ما بعد قدومها من ليبيا. تقول وتثير عش دبابير المخاوف التي أبعدتها طويلاً عن تفكيري.

ـ وتعتقدين بسوداويتك أن المجلة سوف تغلق. أقول ساخراً كي أطرد الدبابير التي بدأ أزيزها يطن داخل صدري.

ـ فكر كما تشاء، ولكن عليك تهيئة نفسك لتقبل هذه الفكرة.

ـ وماذا علي أن أفعل برأيك؟

ـ عماد نقل عائلته إلى بيروت تحسباً لأي طارئ بالعطالة.. تقول لي وتكشف أمامي جدية الخطر الذي أواجهه.

ـ وماذا تقترحين علي؟.. أسألها مازجاً الجد بالهزل.

ـ المشكلة أن جميع الصحف مشتراة من الخليجيين وأنت مازلت تنسف جسورك مع الخليج.

ـ وتنصحيني كالعادة أن لا أكتب تحقيقاً يمسّ الخليجيين.

ـ سوف تضطر في النهاية إلى هذا.. تقول وأحس بالإهانة. أنظر في عينيها لائماً، وتحس أنها تمادت. تحاول الاعتذار بسؤالي عن سبب زيارة موظفي الهجرة أكثر من مرة لي، وأحس أن روزا تفكر فعلاً بمصلحتي وإن كنت أخالفها آراءها. أصمت قليلاً. أنظر في عينيها الطيبتين. أشعر أنني أستطيع تخفيف ثقل الصخرة التي تطحن صدري. أقول لها بهدوء أنهم يطلبون مني تجديد جواز سفري الذي شارف على الانتهاء، وتحس هي أن هذا ليس كل شيء. تنظر إلي أن أتابع. تدفعني بحيرة اللوز في عينيها على الاعتراف لها.

ـ روزا. لا يعرف أحد هنا إلا نصير أنني "ملاحق سياسي" أي أن سفارتي لن تجدّد جواز سفري. أقول لها وتجمد بحيرة اللوز في عينيها قبل أن أرى بريق الدمع. تبعد عينيها عن عيني. تصمت قليلاً وتقول كأنها تحدث نفسها.

ـ يبدو أنكم كلكم هكذا. تقول وتقوم مستدركة انزلاق تصريحها الذي أربكني. تسألني أن نذهب، وأقوم متجهاً إليها. أمسك بكفّي كتفيها. تنظر في عيني. أضع كفي بين خدها وعنقها. تميل برأسها وتحتجز كفي. أحس بقوة حنان تدفعني إلى جذبها نحو صدري. أفتح يدي وأحتضنها بحنان. تسكن قليلاً في دفء احتضاني. نحس سوياً أنها أطالت السكن فتنتزع روحها من قيد احتضاني. ترجوني أن نذهب، وتستدير لمغادرة المكتب.

أتناول مفاتيحي، وأتبعها حزيناً. تقف أمام المصعد بينما أغلق الباب. نخرج صامتين. نخرج كائنين صامتين حلّت عليهما لعنة عزلة لا تفسّر. هل وجدت ارتياحي بالاعتراف لها بما يثقل حياتي. هل زدت ثقل صخرتي على صدري بهذا الاعتراف. ما الذي تفكر فيه الفتاة التي تمشي بجانبي صامتة ولا أعرف سوى أنها اهتمت حقيقة بي. ما الذي علي أن أقوله لها. ما الذي يفجر بداخلي رغبة الكلام كما ماء يتفجر من صخر، ولكن أين ماء الكلام!؟.. نمشي صامتين. نصل دون أن نحس بذلك إلى بيتها. تقف أمامي لكي أودعها. أحس أن علي أن أقول شيئاً، أي شيء. أسألها إن كنت أسيء التصرف معها، وتبتسم بمرارة.

ـ لا. ذكّرتني فقط برجل أحببته في بيروت. كان ملاحقاً مثلك، وعنيداً مثلك، وخذلني. تقول وتستدير للذهاب. أستوقفها بعيني. أقول لها روزا، وتنظر في عيني.

ـ نعم.. تقول وأطلب منها أن لا تتحدث لكنها تسترسل.

ـ نعم تركني وذهب ليقاتل، ويموت. تقول وتستدير. تقول وتتركني مشروخاً ببرق الدمع الصامت الذي قصفت عيناها به روحي قبل أن تستدير.

عالم ليماسول السفلي

آخذ كأس بيرتي من على البار. شكراً. أقول للساقية الإنكليزية الحيادية الابتسامة. أفكر بهذه الابتسامة العامة.. من يفهم الإنكليز! . أدخل صالة البلياردو. أجلس على الأريكة المريحة. أحتسي بيرتي وأراقب نصير.. متى ينتهي من اللعب. أفكر بابتسامته المطمئنة التي أصبحت تترفزني. أراقب وجهه المبتسم، عينه التي تنظر بمواربة إلى كرة البلياردو البعيدة وتتحسر للنظر إلى الكرة المتحفزة بخوف أمام عصاه، أراقب يده السمينة التي تمسك العصا برخاوة مبتدئ. أسمع ضحكته البريئة المعضوضة الخارجة بدفقات وكأنها تهرب من مكبس على الكرة التي طارت من فوق الطاولة إلى الأرض. لا شيء يثير اطمئنان نفسه!.. لقد أصبح هذا يثيرني. أنظر إلى محمد الذي أحضر الكرة البيضاء ضاحكاً وبدأ يركل الكرات بعصاه:

ـ يلزمك الكثير كي تتعلم.. يقول لنصير واضعاً عصاه فوق الطاولة. لقد خسر صاحبك. هل تريد أن تجرّب.. يقول لي محمد مطلقاً ضحكته القصيرة الوادعة. أشير له بيدي شاكراً وأرفع كأس بيرتي: "أريد أن أشرب فقط".. يتجه محمد إلى البار مع نصير، ينحرف عنه يميناً للجلوس أمام الساقية الإنكليزية الحيادية الابتسامة. أنظر إلى طاولة البلياردو الخالية. أحدق بالضوء المنصب فوقها من المصباح الذي يتلاشى أمامي موزعاً الظلال في زوايا المكان. أحتسي الجرعة الأخيرة من كأسي بسرعة. أقوم وأجلس إلى البار بجانب نصير. أطلب من الساقية كأساً آخر من البيرة. أرشف منه رشفة. أتناول سيجارة من علبته المرمية على البار:

ـ ها... بدأت تدخن.. يقول ويمد يده، يشعل لي سيجارتي. آخذ نفساً عميقاً، أقول له:

ـ اسمع يا نصير. زارني موظفان من دائرة الهجرة أيضاً اليوم في المكتب، أبلغاني بقرب انتهاء جواز سفري وأن عليّ تجديده، وقلقت. اتصلت بمحمود اليوم، سألته أن يكون صريحاً معي، هل يستطيع الحصول على جواز سفر لي، وقال إن الأمر صعب الآن.. الأوروبيون بدأوا يضايقون كل من وقف ضد الحرب. أعرف أن محمود يقاتل من أجل تدبير جواز سفر لي لكن الوقت ينفد والأمور لا تطمئنني.

ـ لماذا أنت خائف!؟ قلت لك إنني سأحضره لك بنفسي من عمان عندما يحين وقته.. يقول لي نصير واضعاً يده السمينة على كتفي بابتسامته المطمئنة، وأحتسي رشفة طويلة من بيرتي لكي أهدّئ نفسي.

ـ صدق محمود يخيفني، وثقتك المنتهاة بنفسك تخيفني أكثر. علينا أن نتحرك من الآن. الوقت ليس لصالحي.. أقول مبدياً شكّي.

ـ عليك أن لا تقلق. أعطني عشرة باوند كي أحاسب.. يقول وأضحك.

ـ لكنك صاحب الدعوة.

ـ أضفها إلى حسابك لدي.. يقول ضاحكاً وأناوله النقود.. أفكر أن الأمر بات مقلقاً أكثر فكل رصيدي الذي وفرته أقرضته لنصير، أفكر أنه آن الأوان لمطالبته به. إنه صامت منذ أربعة أشهر ويسحب مني، عليّ أن أطالبه، فلست مسؤولاً عن الفوضى المالية التي يثيرها أينما تحرّك.

ـ أين ستأخذنا اليوم. إنه يوم حريتي، ومحمد يقول إنك ملك الأندر غراوند.. يقول وأضحك من هذا المبكي.

ـ محمد يقول لك للتغطية على نفسه.. أقول له.. ولكن لم لا، الطريق معروف. أولاً سآخذك إلى "برينس أوف ويلز بب"، وسأضعك بجانب ذلك "الصبي ماكسين" لتحس بطعم وحدة الكون، ومن ثم إلى "الكيت كات"

لتشهد نثار أجساد حلمنا الاشتراكي مع فتيات المنظومة الاشتراكية المبددة على موسيقى الديسكو، ثم هناك مفاجأة يعدها لك محمد هي ورقة حريته من عائشة اليوم.. أقول ويضحك نصير من عرضي لبرنامج الجنون، ويقبل محمد خائباً من الإنكليزية الحيادية الابتسامة.

ــ يوم حريتي هو "يوم الرأس".. يقول محمد ضاحكاً وهو يجرنا للخروج، وأشاركه الضحك وأنا أتذكر وجه عائشة المستغرب عندما طلب منها السماح له بهذا اليوم بحجة المساهمة في زيادة وزني بأكلة رأس الخروف.

يوقف محمد السيارة في منتصف الشارع المؤدي إلى ساحة الشرف الوطني لقبرص. "هيا ترجّلا، وصلة مرح خفيفة قبل ليندا".. يقول محمد، ويقودنا إلى بار كئيب يشبه زاوية حجرة في مطهر دانتي.. أفكّر متى اكتشف محمد هذا المكان، وندخل بار التعب. طاولات وكراس غير متناسقة، أرضية وسخة، طاولة بار مشققة، زجاجات متفرقة في الخلفية مثل فم عجوز مهرهر لخمور رخيصة كئيبة. أشم رائحة تحلل. تقابلنا امرأة خمسينية تلطخ خديها أصباغ حمراء فاقعة رخيصة. يجلس محمد قبالتها ويقدمها لنا:

ــ انظرا!؟ أي جمال، إنها جولييت.. يقول ويقبّل يدها ممثلاً كما في مسرحية لشكسبير قبلة الجنتلمان. أي نعومة!!.. يقول ونضحك بخفاء، ويستمر محمد. انظرا، هذا الوجه، هذا الصدر. بيرة سنشرب البيرة. سوف لن تنسيا بيرتها أبداً.

ــ لقد عدتَ إذاً كما وعدت.. تسأله جولييت وأنظر ضاحكاً إلى نصير ثم إلى محمد الذي يجيبني محرجاً:

ــ حسناً أنا أجرب أحياناً اكتشاف بارات جديدة في الساحة.. يقول محمد وتبادر جولييت بفتح الحديث معه.

ــ هل جربت بقية البارات؟. إنهم مافيا كما قلت لك.. تقول.

ــ نعم، ولا يملكون الجمال الذي يشع هنا.. يجيبها محمد وينظر إلينا.

ــ هل رأيتما، جولييت، إنها جولييت. دعيني أمسك بيدك. أي نعومة.. يقول ونرقب المشهد ضاحكين.

ــ هل تريد أن تجرّب؟ يوجد في الخلف هنا غرفة.. تقول جولييت عارضة على محمد مضاجعتها ويفاجأ محمد بهذا العرض. ينظر إلينا مستنجداً. يقول لنا بالعربية أن نسرع باحتساء بيرتنا، ونسخر منه ونتباطأ مسترسلين في فخ المرح.

ــ لماذا لا تجرب جولييت.. يقول له نصير ضاحكاً.

ــ أرجوكما أنا عالق.. يقول محمد راجياً أن نسرع، وتقترب منه جولييت أكثر فاتحة صدارتها.

ــ لن يكلفك الكثير. عشرون باوند فقط. أقل من مافيا الملاهي.

ــ نعم إنها أقل، لكنني مشغول الآن، وسأعود من أجل هذا.. يقول محمد، ويحتسي ما تبقى من بيرته دفعة واحدة، ويحاول القيام للخروج غير أن جولييت تحتجزه بدلال.

ــ لن أجعلك تتأخر، لأجلك خمسة عشر باوند.. تقول ويستنجد بنا محمد، يحاول التخلص في توجيهها إليّ.

ــ انظري. هذا هو الأعزب بيننا، وسيرضيك أكثر.. يقول وتصرّ عليه جولييت بغريزة الصيادة.

ــ المتزوجون أحوج إلى ذلك. اسألني أنا.. تقول، ويدرك محمد أن علينا الفرار.

ــ قلت لك سأعود. أنا أعدك مرة أخرى، كم حسابك.. يقول لها.

ـ لا عليك، نستطيع أن نتأخر قليلاً.. يقول له نصير، ويشتمنا محمد بالعربية، فتدرك جولييت أنه مصمم على الخروج.

ـ حسناً أربعة بيرة. أربعون باوند.. تقول ويصعق محمد.

ـ ماذا!؟ ماذا شربنا!؟ إنها بيرة.

ـ نعم. مع ليدي 10 باوند للكأس.

ـ لكنه ليس ملهى، إنه بار. باوند ونصف للكأس. ستة باوند.

ـ أربعون باوند.

ـ يا إلهي، ما هذه العلقة.. ينظر إلينا محمد مستنجداً.

ـ ادفع لها، ليس كثيراً على جولييت.. أقول له ضاحكاً.

ـ الأمر ليس مزحة. ستشلّحني. تدخّلا.. يقول محمد، وأحاول الشرح لجولييت.

ـ أيتها السيدة...

ـ إنها أربعون باوند. سوف تدفعون أربعين باوند.. تقول صارخة ويدخل البار ثلاثة رجال كانوا ينتظرون هذه الإشارة للتدخل.

ـ ماذا هناك. لماذا لا تدفعون ما عليكم!؟.. يقول الرجل المعضّل.

ـ سوف ندفع، ولكن بالتعرفة الرسمية.. يقول محمد.

ـ نعم، عشرة باوند للكأس مع سيدة.. يجيبه الرجل مصمماً، وأفكر أننا علقنا فعلاً.

ـ إنها وصلة مرح حقيقية، أقول لنصير ضاحكاً وأتجه إلى الرجل.

ـ انظر أيها السيد. سوف ندفع ما علينا، كما في الملهى. أنت تعرف نظام الملهى، كأس السيدة جولييت عشرة باوند.

ـ من هي جولييت.. يقول الرجل.

ـ السيدة جولييت. أليست جولييت. أقول وينظر إليها الرجل.

ـ نعم. إنها جولييت.

ـ حسناً كأس السيدة جولييت عشرة باوند، وكؤوسنا واحد ونصف باوند للكأس، أربعة ونصف باوند، أي أن المجموع أربعة عشر باوند ونصف، ونصف باوند للمحل، خمسة عشر باوند، سوف يدفع لك الرجل خمسة عشر باوند.. أقول مقنعاً الرجل وينتفض محمد.

ـ لن أدفع سوى ستة باوند.

ـ أغلقو المحل.. يقول الرجل ويتحرك الرجلان لإغلاق المحل، وأوقفهما بإشارة من يدي.

ـ أرجوك يا محمد، هؤلاء مجرمون. وذاك الأعور مستعد أن يقتل أمه من أجل نصف باوند. إنها خمسة عشر باوند. أقول له وأتجه إلى الرجل.

ـ دعنا لا نختلف أيها السيد. العراك لن يفيد أحداً، ستحضر الشرطة، وأنت تعلم أننا على حق. سوف ندفع لك خمسة عشر باونداً فقط. ونذهب كأصدقاء.. أقول ويوافقني الرجل بهدوء.

ـ حسناً يا محمد، من أجل جولييت.. أقول له ويضحك، يسلّم المرأة خمسة عشر باوند، ضاحكاً.

ـ لماذا ياجولييت!؟ لقد كنا أصدقاء.

ـ أصدقاء!؟.. مافيا أنتم مافيا عرب.. تقول ويجر نصير محمد للخروج مع شتائم جولييت. أوباش، مافيا، أنتم مافيا.

ـ سوف أروي ما حدث لليندا.. أقول ويرمقني محمد بنظرة راجية أن لا أفعل، وتدرك ليندا أنه ارتكب حماقة. تنتظر إليه أن يحدثها بنفسه.

ـ لا شيء. وصلة مرح في بار كادت أن تكلفنا حياتنا.. يقول ضاحكاً، وتكتفي منه ليندا بذلك، إنها تعرف أنه سوف يحدثها عن ذلك في وقت آخر. تدخل صبي البار الشموس ماكسين. أنظر إليها معجباً بجسدها المثير

المحير بين الفتى والفتاة، ومدهوشاً بأنوثتها الطافرة وهي ترتدي الفستان لأول مرة منذ عرفتها في هذا البار.

ــ ماكسين بالفستان! أي إثارة سوف تضرب مخك!!.. يقول محمد موجهاً كلامه إليّ وهو يطلق ضحكته القصيرة العذبة، وأضحك. أتأمل ماكسين وهي ترفل بعذوبة الفتاة في رشاقة الصبي الذي كانته. أتأملها معجباً وهي تصب لنفسها البيرة، وتأتي لتستقر بيني وبين ريتشارد على البار في المكان الذي ركزت مخي عليه أن يظل خالياً وفعل.

ــ كيف حالك؟.. تسألني بتهذيب.

ــ أنا جيد. وأنت!؟ هناك تغيير مثير!.. أقول وتضحك.

ــ هل أعجبتك بالفستان؟ ليندا قالت لي إنني سأكون مثيرة به وفعلت.

ــ ليندا معها حق لكنك أحبطتني. وعدت صديقي نصير أن أريه الصبي الجميل، لكن يبدو أنني سأريه الصبي الأجمل. دعيني أعرّفك عليه. نصير صديقي الذي خذلته، ماكسين.

ــ "حسن صبي" الذي وعدت أن تريني إياه.. يقول ضاحكاً ومداعباً ماكسين التي تستغرب. أشرح لها ضاحكاً.

ــ "حسن صبي" هو التعبير الذي نطلقه في بلادنا على الفتاة البرية التي تتمرد على وضعها كفتاة وتلعب ألعاب الصبيان وتجاريهم في كل تصرف، وقد تتغلب عليهم، وبعضنا مثلي يحب هذا النوع من الفتيات.. أقول لها وتحسّ بالسعادة. أستمر في تعريف نصير على زبائن البار.. ريتشارد صديق ماكسين.. أقول ويضحك ريتشارد، يحييه ويطلب منّا أن نقبل كأس بيرة على حسابه. أوافق شاكراً إياه، وتصب ليندا البيرة. تسأل محمد عن شقاواته اليوم، ويهرب من الحديث سائلاً إياها أن تنظر إلى الانسجام بيني وبين ريتشارد هذا اليوم. تلتفت ليندا إليّ، تلاحظ دون غيرها حزني الذي يخفيه مرحي. تقول لي أن لا أفكر بما ينغّصني..

"أنت بين أصدقاء".. تقول لي، وأخبرها أنني بخير. أثبت لها ذلك بتلمسي ظهر ماكسين التي تلف عنقها متعبة.. "آآه أنا مرهقة هذا اليوم".. تقول ويبادر ريتشارد بالمساعدة، يضع يده على رقبتها يدلّكها بكفه من الأسفل. تقوّس ماكسين كتفيها مثل قطة. أبادر بنجدتها محاولاً إغاظة ريتشارد. أدلّك ظهرها بيدي اليسرى، أنزل إلى الأسفل قليلاً، وأدلّك ما فوق ردفيها الصغيرين. أحس بنبضهما المثير بين أصابعي.

ـ هاهم الإنكليز والعراقيون يتفقون. الروابي المذكّرة توحدهم. يقول محمد، وتضحك ليندا.

ـ يكفي. إنكما تربكاني.. تقول ماكسين هاربة من الإثارة، وأعيد يدي إلى كأسي. يضحك ريتشارد بصفاء.

ـ سأكون سعيداً بإنهاء الحرب بيننا يا هاني.. يقول ريتشارد. صدّقني أنا مثلك لا أحب مارغريت تاتشر. لقد أحضرت لك كتاباً لكيتس من مكتبتي. لا تستغرب، أنا موظف مطار لكنني أحب الشعر. تركته لك مع ليندا.. يقول وتناولني ليندا الكتاب. أشكر ريتشارد متأثراً. أقلّب كيتس. أقرأ مقطعاً من السيدة الجميلة القاسية:

"ماذا ألمّ بك أيها الفارس الحزين. حتى تهيم على وجهك وحيداً شاحباً.
لقد ذبل العشب وزال من البحيرة، الطيور انقطعت عن التغريد.
ماذا ألمّ بك أيها الفارس المدجج بالسلاح.
لقد رأيت ملوكاً وأمراء ومحاربين شاحبي الوجوه.
جميعهم كانوا في شحوب الموت. لقد سمعتهم يصيحون:
إن الجميلة التي لا تعرف الرحمة قد أوقعتك في إسارها"...

الجميلة التي لا تعرف الرحمة.. أردد الجملة وأغلق الكتاب. أنظر إلى

ماكسين متخيلاً إياها تجول على حصانها بسيف الفايكنج، عارية إلا من قطعة جلد لاتكاد تستر حوضها، وتحصد رؤوس الفرسان. أنظر إلى ليندا التي كانت تستمع مأسورة: "إنه جميل"!.. أنظر إلى نصير المنشغل بحديث تجاري مع محمد: "لن يضير الكتاب أن يكون ممنوعاً. الكتب الممنوعة دائماً مرغوبة" .. أنظر إلى كأسي الفارغ. أنظر إلى ليندا التي تأخذ كأسي بتفهم قبل أن أطلب منها ذلك، وتملؤه لي.. "بيرة، أليس كذلك"؟.. تقول بابتسامتها التي يملؤها الحنان.

يقودنا الساقي إلى الطاولة الاستراتيجية في منتصف المكان المفتوح على مسرح العرض في ملهى الكيت كات. نجلس في نصف دائرة مفتوحة على استعراض الفتيات الرومانيات اللواتي يرتدين ثياب الراهبات مع موسيقى أنيجما الشهيرة التي تبدأ بتراتيل كنسية تنفتح على إيقاع الديسكو، ويتبعها كشف مباغت عن الأجساد النابضة بحركات الفعل الجنسي، ودفقات الضوء على الأجساد.

ــ ما نوع الفتيات!؟.. يسألني نصير وأقول له إنهن رومانيات البيروسترويكا. أنظر إلى وجه نصير المأخوذ بالفتيات. أقرر أن أكون شيطاناً وأراقب انفعالاته، غير أن نصير يخفي انفعاله بابتسامة الدعة على وجهه. كم تعجبني إرادته، وكم سيعجبني تكسّرها أمام الجسد الذي يتلوى وينبض عبر حيوانية الجنس الخالص. أحتسي كأس الفودكا التي تلهب جسدي. تهبط علينا فجأة ثلاث فتيات ويتوزعن بيننا. نرحّب بهن.

ــ هل هذا جزء من الطقس!؟.. يسألني نصير، وأقول له ناظراً إلى محمد

ــ نعم، لكنه الجزء الذي ستحذفه الرقابة. ينظر محمد إلي.

ــ أنت لن تعارض هذه المرة.. يقول محمد محذراً إياي.. "لا مجال" تقول له عيناي، لكنه يهملني. يتحدث مع الفتاة. يمسك بيدها. تقترب الفتاة الثانية مني. أسألها عن اسمها.

ــ إيرينا

ــ اسمعي يا إيرينا، أنت فتاة جميلة ودودة، لكنني سأعتذر عن تقديم المشروب.

ــ لا عليك.. تقول لي بمودة، وتنظر إلى رفيقتيها. ينظر محمد إليّ بلوم. يترك يد الفتاة، ويضحك، يقول لها مشيراً إلي.

ــ هذا هو ملاكي الحارس الذي وضعته زوجتي على بوابة النعيم لمنعي من الدخول. إنهما يظنان نفسيهما راعيا الفضيلة. هي الرئيسة وهو نائبها، وأنا عليّ أن أمتثل. إنهما يجريان تحقيقاً صحفياً عن المهنة الأقدم في التاريخ، والبغاء المقدس. هي ترسله لكبحي عن التمتع، وهو يقوم بالتحقيق مستمتعاً بذلك. هل تشكين أنه لا يستمتع بلقائكن!؟ .. يقول محمد، وتضحك الفتاة، تحس أن عليها القيام. تعتذر مع رفيقتيها ويذهبن. ينظر محمد إليّ محرجاً مما نطق به، ويضحك نصير. يضع محمد يده على كتفي محاولاً إرضائي.

ــ أنت تعلم أن الأمر مزعج.. يقول لي ضاحكاً وأبادله الضحك.

ــ حسناً، أتقبل كل شيء وقد تكون محقاً، أنا أقدّر كرمك وحنانك الأمومي مع النساء لكني أكره أن تعتبرني من حرّاس الفضيلة.

ــ حسناً.. دعنا نناقش الأمر بصورة إجرائية. أنت تعلم أنهن يأخذن عمولة على الكأس، وتعوضهن هذه العمولة عن الأجر البائس الذي يرميه لهن أصحاب الملاهي. هنّ يقدمن لنا مشاعر تعوضنا عن نواقصنا، ونحن لا نخسر الكثير بتقديم كأس لهن.

ــ أنت لا تشك بأنني نَسَوي مثلك، فنحن نعمل معاً من أجل تحرر النساء، ولو توقف الأمر على كأس لهانت. وأنت تعلم أن الأمر يتطوّر وأن مهنتهن تتطلب منهن عدم الاكتفاء بكأس، وأنهن سيصلن إلى اللمس ثم الموعد.. إن أصحاب الملاهي يدفعونهن للدعارة. والكأس هو المقدمة.

ــ وما اعتراضك على البغاء المقدس. يقول محمد ضاحكاً بسخرية لإغاظتي.

يسألنا نادل مطعم الخروف الأجرد ماذا نطلب، ويقول له محمد أن يحضر كل رؤوس الحرية، ويحضر الساقي ما تبقى من رؤوس الخرفان.

ــ رأسان فقط. هل هذا كل ثمن حريتي اليوم!.. يقول محمد ساخطاً بمرح، ونرضى بهذا النصيب. يكمل نصير حديثه مع محمد حول الكتب التي ستطبع.

ــ يمكننا إدخال الكتب الأربعة حول حرب الخليج إلى ليبيا مع كتاب "المرأة الليبية"..، ولن تكون هناك مشكلة حتى لو تأخرت هذه الكتب. إنها ستبيع نفسها.. يقول نصير لمحمد وأغرق في حزني. يلاحظ محمد شرودي، ويسألني إن كان حديثنا اليوم بالمجلة هو ما يعكّر صفوي، وينظر إلي نصير مستفسراً.

ــ لقد طلبت من محمد وعائشة إنزال اسمي كمدير للتحرير في ترويسة المجلة، ولم يجيباني.. أقول ناظراً إلى محمد الذي يصمت.

ــ وهل هذا مهم!؟ يسألني نصير.

ــ نعم إنه مهم، كما أن من المهم لي أن أعرف كل ما يدور في المجلة.. أقول ويحضر النادل رأس الخروف الأول.

ــ كل يا رجل. كل، ليس هناك ما يستوجب الزعل.. يقول لي محمد بطيبة وهو يتحرك لتقطيع الرأس بيده، ويجيبه نصير هادئاً:

ــ أنا أتفهم ترددكما أنت وعائشة، فلا شيء واضح الآن، لكن هاني جزء من المجلة ويجب أن يعرف ما يدور.

ــ حسناً.. لست ضد إخبار هاني بما يحدث، ولكي أتخلص من هذا العبء أقول له أن الأمر يتعلق بتمويل المجلة. لا شيء واضح لدينا، وستسافر عائشة إلى ليبيا لحل الأمور، ومقابلة شركائنا.. يقول محمد ويتابع.. كلا، أنت ضيف الشرف اليوم، ولأنك لا تحب الخد ولا العين، تفضل، هذا اللسان لك.. يقول لي محمد بمودة، وأطلب صحناً وشوكة وسكيناً من النادل. أراقب أصابع نصير وهي تستخرج عين الخروف. أصابع نصير الغليظة الماهرة تنكش عين الخروف من الأسفل بالإبهام، وتستلم أصابعه الغليظة الأخرى العين، ترفعها إلى فمه، بينما تقتلع يد محمد الخد من وجه الخروف، وأشيح بوجهي.

ــ سوف تسدّان شهيتي بهذه الوحشية.. أقول ضاحكاً وأتناول اللسان بالشوكة والسكين. أضعه في صحني. أذر الملح والفلفل على اللسان بأناقة مضاعفة لإثارتهما. أقطع جزءاً من اللسان ويضحك نصير ساخراً مني.

ــ ما شاء الله، لا يلزمك سوى القفازات لاستخراج المخ. يا للجنتلمان. جرّب الخد وسترى، لن تسمن أبداً وأنت بهذه النفس.. يقول نصير وهو يتناول بأصابعه العين الأخرى للخروف.

سيدة الملكــوت

أنظر إلى ساعتي وأنا أتململ خلف المقود، أرجو أن لا يتأخر نصير. يخرج سراج. يسلم علي، يخبرني أن والده يتحدث بالتليفون وأصاب باليأس. كل شيء إلا هذا، سوف تنهال علي سهام أسئلة سراج من جهة، وسنتأخر في الوصول إلى المطار من جهة أخرى. أفكر بقطع سلك التليفون. يفاجئني نصير بالخروج وأتنفس الصعداء. أمازحه..

ــ كنت سأقطع سلك التليفون من الخارج لو لم تأت.. أقول له وأنا أنطلق بالسيارة قبل أن يغلق الباب. يرد علي أنه عمل حساباً لهذا لكنه يرجوني أن لا نكون ضحية لهفتي اليوم. أطمئنه أننا سنكون بأمان لأنني قطعاً سأرى نورا قبل أن أموت لكنني لا أضمن له طريق العودة.

ــ المشكلة أنني أعرف جنونك. لن أعود معك حتى تضمن سلامتي.. يقول وأضحك. أطمئنه وأنا أتجاوز السيارة المبطئة أمامي أننا لن نموت، وألعن طريقة القيادة الإنكليزية التي لم أتعودها بعد. ينبسط الطريق البحري الجميل الأخضر أمامنا. يقول نصير وهو يتطلع إلى ساعته إننا سنصل مبكرين إلى مطار لارنكا وهو يكره الانتظار. أفكر بالانتظار. كم انتظرت هذه اللحظة. كم انتظرت نورا. كم مرّ علي من مشاهد للحياة هنا تمنيتها أن تكون فيها. سوف أخبرها بهذا قبل أن أضمها حقيقة في كل مشهد جميل رأيته. أبطئ قليلا من سرعتي، ولكن ماذا لو أتت الطائرة مبكرة عن وقتها. يجب أن أسرع. يقطع نصير شريط تأملاتي.

ــ لم تسألني مع من كنت أتحدث في التليفون!؟.. يقول.

ــ هل يتعلق الأمر بي.. أقول مازحاً ويفاجئني.

ــ نعم. عائشة على وشك الانهيار. البارحة كانت لديّ. الأزعر محمد تمادى هذه المرة. صديقة ابنتها أخبرتها أنها رأته ماراً بسيارته في

ساحة "الكانيكا" مع عائشة، وأنها أعجبت بعائشة، يقول ويتوقف.

ـ تريدني أن أضرب بالرمل، ما المشكلة !؟ أقول ضاحكاً.

ـ المشكلة أنه في الوقت الذي رأتهما فيه كانت عائشة في البيت.. يقول متضايقاً ويسود بيننا الصمت.

ـ حسناً. ما الذي تريده مني عائشة!؟.. أسأله.

ـ هي لا تريد منك مباشرة. أنت تعلم كبرياء المرأة. تريدني أن أستفسر منك دون أن تعلم أنت من هي فتاة السيارة.. يقول وأحس بالإهانة. أسأله لماذا أنا بالذات، ويحس بانزعاجي من تصرف عائشة ويصحح الوضع.

ـ قبل كل شيء هاني. عائشة تثق بك، وتثق بخروج محمد معك في مشاوير السكر، وأنا أخبرتها بمبدأ عدم تقديمك مشروباً لفتيات البار ونحن معك. يقول ويضحك.

ـ أي أنني أقدم لهن مشروباً عندما أكون وحدي. أقول متصنعاً الانزعاج. ويضحك.

ـ لا تقلق. عائشة تصدق أنك ما تزال بكراً، لكنها تخجل من سؤالك. تكاد تنهار، وتفكر بالطلاق.. يقول وأفكر ببكارتي وبالمرة الأخيرة التي سهرت فيها مع محمد. إن الفتاة هي مغنية "العربة" السمراء التي استجابت لزهرته عندما ألقاها عليها وهي تغني. أفكر بالمغنية السمراء.. "لم يعد هناك مهرب".. قال محمد وهو يراها قادمة نحونا إلى البار. "علينا أن نقدم لها كأساً بعد ورطة الزهرة". تصنعت الرضوخ له. كنت سأدعوها إذا لم يفعل كي أبدد نفسي.. وجلست السمراء الطويلة الشعر بيننا على البار. أعطت وجهها لمحمد وانسكب شعرها شلال عطر في حضني. استدارت مقربة عنقها مني "هل يعجبك ذلك" !؟.. قالت ضاحكة وابتسمت لهذا الوضع. طلب مني أن أدخل في لعبة ترجمة بينه وبينها ووافقت. أخبرتها بذلك وضحكت. "هل أقترب أكثر لكي تكون الترجمة أمينة".. قالت

مشاركة إيانا مرحنا وأذهلتني. اقترب ظهرها مني أكثر مما يحتمل. تنفست عطر شعرها وكدت أغيب. حدّثها محمد كعادته بيديه واقتربت يده لملامسة صدرها وهي تضحك. أزاح شعرها عن عنقها. سألها بالعربية متقصداً من أين أتت بجمال هذا اللون، ونظرت بمواربة إلي أن أترجم وهي تضحك. أزحت شعرها قليلاً عن عنقها ولمست عنقها بظاهر يدي. وضحك محمد: "هذه هي الترجمة الأمينة لسؤاله عن لونك. أي شمس أهدتك إياه" قلت وضحكت سعيدة باللعبة. "هذا كلام شعراء" قالت، وضحك محمد. قلت لها "إن محمد شاعر فعلاً"، وضحك هو لها بعينيه الآسرتين. نظرت إليه وإلى كأس الفتاة الذي ملأته الساقية المتشاغلة عنا مرة ثانية. وقلت له بعيني أن لا يتمادى. لحظات مرح ويكفي..

ــ يمكنك أن تطمئن عائشة. إنها فتاة التقينا بها في ملهى العربة. كانت وصلة مرح بينها وبيننا ولم يحدث أي شيء، لكن حظ محمد التعيس جعله يراها بعد ذلك وهو مار بسيارته، وطلبت منه توصيلها إلى محل قرب تشرشل هوتيل. ولم يكن أكثر من ذلك. أنت تعرف أن محمد يموت في عائشة، وكل ما يفعله شقاوة طفل بعد يوم العمل.. أقول ويضحك.

ــ لقد ذكّرتني بحظ محمد السيء.. مرة مرّت عائشة في المساء أمام بار مكشوف بالصدفة. رأت من بعيد شاباً يرقص مع فتاة أجنبية، وخيل لها أنها تعرفه. اقتربتْ وكان محمد. لم يكن الأمر سوى أنه نزل لشرب كأس ودعته الفتاة للرقص، ولم تكن سوى لحظات بعدها ورأته عائشة...

ــ وماذا فعلت. قل لي؟.. أقول متشوقاً لردة فعل عائشة.

ــ لقد فقدت أعصابها. أبعدت الفتاة عنه، وضربته أمام الجميع..

ــ ضربته!؟ أقول ضاحكاً، ويضحك نصير.

ــ لقد كان الأمر محرجاً بالنسبة إليه. لقد تحمل الإهانة رغم أنه بريء. واعتذر منها. صالحته في النهاية، لكنها أصبحت تشك بدوافعه.

ـ الله يعينك يامحمد.. أقول متفكراً في وضعه المحرج.. أنت تعلم أنه بريء يانصير. ولم يكن الأمر سوى دعابة كنت أنا مشاركاً فيها. أخبر عائشة أن الأمر ليس أكثر من ذلك..

ـ أعتقد أنها بقرارة نفسها تعلم ذلك لكنه يحرجها عندما يصادفه سوء الحظ.. سوف أهدّئها وأشرح لها الأمر. يقول نصير مرتاحاً لموقف محمد.

أنظر في ساعتي، أفكر بنورا. كيف هي الآن. هل أعترف لها بشقاواتي. وهل ستغفر لي شقاواتي. أعرف أنها تريدني أن أعيش حياتي. لكنني أعرف أنها مثل عائشة تريد رجلها أيضا كما تريد. أفكر أننا سوف نصل مبكرين، وعلي أن أعاني مرارة انتظارها. يسألني نصير عن نورا، ما الذي ننوي فعله وأحتار في الإجابة.

ـ سأطلب منها الزواج. أقول ويصمت نصير. يفكر.

ـ وما مصير الولد. يسألني، ويدفعني للكآبة. أحاول أن أقول له أنني أمزح لكنني أستمر.

ـ هي لن تتخلى عنه لزوجها، وأنا معها في ذلك. أقول ويعود لإثارة كآبتي.

ـ هل أخذتم رأي الولد. يقول وأنظر إليه نظرة استغراب.

ـ أنا لم أطلب منها بعد. أقول وأفكر بالعقلية الباردة التي يحملها رأسه الأصلع. أحس أنه فقد بقايا فطريته بعد الحرب. أدخل حدود المطار وأتشاغل في البحث عن مواقف السيارات. أفكر أن علي أن لا أفكر هكذا وأن علي الاستمرار في الاعتماد على حواسي. ربما كان نصير محقا بسؤاله.. لكنني لا أعالج الأمور هكذا.

ـ الآن أريد رؤيتها فقط. أقول له. رؤيتها وليكن بعد ذلك ما يكون.

تنفتح البوابة. يخرج المسافرون وتنفتح موسيقى صخب اللقاء. تمسح عينيّ المسافرين الخارجين أمامي بعدسة اللهفة الواسعة. أقف من بعيد هادئاً ومغموراً بحرارة لقاءات البشر بأحلامهم. تصمت موسيقى الزحام ويتحرك المشهد أمامي بطيئاً. يتبدد الجمع كما غيمات تفتتها الريح، وتومض خلل الغيمات سحابة عمري. يتبدد الجمع كلياً لتظهر شجرة المشمش إياها، شجرتي كاملة ومزهرة بتويجات الربيع... نقف أمام بعضنا. ها هو ذا حلم انتظاري أخيراً أمامي. هو ذا حضن انتظاري أخيراً. هي ذي جنتي التي بلحظة حمق غادرتها. هي ذي نورا. نتأمل بعضنا دون أن نتحرك. تستقر عيناها في عيني. أرى في عينيها اللهفة لاحتضان الولد الذي ترك جنته وهرب. نبتسم لبعض. هانحن ذا أخيراً ويلمع في عينيها برق الدمع. يمطر قلبي باللهفة لكني أوقفه بقبضة كفي المزمومة لسحقه إذا تقدم. نقف أمام بعضنا مقاومين الحبل الذي يشدنا حتى التعب. أفكر أن على أحد ما أن يرحمنا ويتقدم لقطع هذا الحبل. أتنفس دون أن أتحرك الصعداء. تتقدم أخت يوسف لعناق نورا، وتطلق نورا قبضة ابنها موجهة إياها للركض واحتضاني. أرفع بيدي طارق. أتأمل عينيه وأضمه، أحمله وأتقدم. تسلم نورا على نصير، يلومان زمان التفريق بفرحة اللقاء. أتقدم حاملاً طارق. أمد يدي لاحتضان يدها. "أخيرا رأيتكم".. تقول وتقدمنا إلى أخت يوسف وزوجها.

ـــ هانيبال العابد، ابن خالتي. نصير جبيلي، صديقنا. تقول وتعتذر للعودة كي تحضر الحقائب وتعطيهم العنوان الصحيح لإقامتها. أتحرك للمساعدة. أخرج بطاقتي الصحفية. أريها للشرطي كي يسمح لي بالدخول معها. أخبره أنها تحتاج لمساعدتي وأن علي أن أعطي دائرة الهجرة عنواني لنزولها. يتفهم الشرطي موقفنا ويسمح لي بالدخول معها. أتجه إلى

موظف الجوازات، وتتجه هي لإحضار حقائبها. أنهي مهمتي بسرعة وأعود متقدماً نحوها. تبتسم لي. ها نحن ذا لوحدنا. أشعر بالرغبة في عناقها وتحس هي بدفء رغبتي. تفتح ذراعيها قليلاً وأدفن رأسي بين شلال شعرها وعنقها أحس بدفء ذراعيها تضماني وأستنشق رائحتها. أحتجزها بداخلي كلّية .. "يكفي هاني".. تقول بصوت متكسر وتخفي انفعالها بالضحك. "أخيراً أنت هنا. يا إلهي. كم انتظرت هذا".. تقول لها خلاياي المشتتة بدفء عطرها. ترخي ذراعيها عن كتفي ونبتعد قليلاً عن بعضنا. تتأملني عن قرب..

ـ لابأس بصحتك، دعنا لا نضيع الوقت، وصلت الحقائب.. تقول وتحاول إنزال الحقيبة من الشريط. أساعدها وأضع الحقائب على العربة. أشكر الشرطي الذي ابتسم لنا مرحباً.

ـ والآن يا جماعة تفضلوا معنا إلى نيقوسيا. تقول أخت يوسف الطويلة القوية بدعوة ودودة، ونشكرها. نمشي في اتجاه سيارتهم.

ـ حسناً هاني. سأكون لديكم في المجلة بعد أيام.. تقول نورا ويطلب طارق مني اصطحابه لصيد السمك من البحر كما وعدته.

نرفع أيدينا ملوحين لهم بالوداع، وألتقط نظرة عينيها العذبة الواعدة لي. أقول بعيني لعينيها إنني بانتظاركما فلا تتأخرا. أرجوهما بعيني أن لا يتأخرا. إن هذا كثير. تقول لها عيناي إن هذا كثير نورا...

أرتب وضع الديك على ساعد المكتب. أرتب وضع المقلمة وأوراقي. أقوم. أعدل وضع الكرسي الذي ستجلس عليه والطاولة الصغيرة أمامه. أين ستضع قهوتها. ربما وضعتها على المكتب بدلاً من الطاولة. أخلي مكاناً لقهوتها عليه. أقف وكأنني قادم لزيارة المكتب. أتأمله. وضع المزهرية جيد وعنقود الزهر البنفسجي هو ما تحبه. ماذا سأفعل أيضاً. أحس بعيني روزا تراقباني. أمسك باب مكتبها: "نورا ستأتي بعد قليل".. أقول لها، وتهنئني بسلامة وصولها ضاحكة من ارتباكي في استقبالها. أسألها عن رأيها في المكتب الآن وتقول أنه سيكون أجمل لو هدأت وجلست. أنظر إليها معاتباً وأعود للجلوس. أتشاغل بتقليب مجلة دون أن أعي فعلاً ما أقرأ. يرنّ جرس التليفون. تستدعيني عائشة. أجلس أمامها مع محمد. تبدو المرأة القوية مرهقة لكنها متماسكة. أفكر بنصير. لم أسأله ماذا قال لها. أتوخى الحذر. تسألني عن موضوع غلاف العدد.. "هل كونت فكرة عما يمكن أن يكون"؟.. تسألني وأستفيض بالشرح دون أن أدري لكي أهرب من موقف ما أعرف، أقول إن لدينا موضوعان الأول هو التحقيق عن تفاحة حواء وقد بلورت أسئلته بـــ: "من قدم التفاحة لمن/ الرجل أم المرأة"!؟.. وأعتقد أنه يصلح كموضوع للغلاف لأننا نثير فيه محرّماً لا تستطيع الصحافة الاقتراب منه، كما أننا سنكون محميين إلى حد ما لأن تحميل المرأة وحدها إثم تفاحة الخطيئة هو من الإسرائيليات وتحديداً في التوراة التي خاطب إلهها المرأة قائلا: "بالألم تلدين"، في حين حمّل الرسول محمد إثم الخطيئة للرجل والمرأة على حد سواء حين خاطبهما بصيغة المثنى وهي نقلة في تاريخ البشرية بالنسبة للمساواة بين الجنسين.

ـ نعم.. أعتقد أنه مناسب، والموضوع الثاني. تقول عائشة وأستجمع في ذاكرتي أبعاد الموضوع. أقول لها إن الموضوع هو استمرار لما بدأنا متابعته وأعني البرنامج الأميركي المتكامل لحرب الخليج.. نشرنا موضوعاً عن أول معرض للأسلحة من نوعه في اللحم العربي الحي، ونشرنا عبر مقابلاتنا مع المثقفين موضوعات حول وهم الديمقراطية الغربية وحول الإعلام الغربي المسيطَر عليه من قبل البنتاغون، وحول غش الأميركيين بقصة محو عقدة الفيتنام، وأعتقد أن هناك تفصيلات تجارية سياسية في البرنامج تدور بتروس الآلة الرأسمالية نفسها.. فبالقدر السياسي الذي تغذي فيه أميركا عقلية الحرب في العالم وخلق بؤر للتوتر تقوم الشركات المتعددة الجنسيات بدعم هذا التفصيل والربح التجاري من ورائه من خلال إقامة صناعة كاملة لأزياء الحرب.. الثياب المبرقعة، والأبواط العسكرية، والشعارات... إلخ، وقد بدأت مجلات التصوير كما في غلاف مجلة فوتو ومجلات الجنس ترويج هذه البضاعة عبر جسد المرأة.. وقد أوحت لي قصيدة لكيتس عن الجميلة التي لا تعرف الرحمة أن الغرب مهيأ لهذا من خلال إرثه الثقافي حول نساء فالكيري المحاربات، وحول الأمازونيات، وأعتقد أن موضوعاً مقارناً بين الرومانسية والاستعمار في زمن كيتس وبين وحشية الرأسمالية وخداعها للنساء في زمن بوش سوف يكون مهماً من خلال عرض ما أوصلوا إليه أساطير الفالكيريات والأمازونيات من خواء يقتصر على الجنس وإثارة الغرائز، لكن لندع ذلك الآن. أفكر أن موضوعاً عن أزياء ترويج الحرب يمكن أن يصلح للغلاف، خاصة وأننا عرضنا من قبل موضوعات رائعة كتبها سامح عن تاريخ الأزياء، ويمكن لهذا الموضوع أن يكون استمراراً لها.

ــ يعجبني الموضوع. لماذا لا تبدأ بكتابته الآن. تقول عائشة وأبلع ريقي.. لقد أوقعت نفسي. ليس من مهماتي الكتابة للمجلة دون مقابل وعائشة لا تدفع لي عما أكتب من تحقيقات لكن ماذا أفعل!؟.. ليس هناك مجال للرفض.. أنا مسؤول عن تطوير المجلة، والكتّاب لم يعودوا يلبونني بالشكل المطلوب بسبب الوضع المالي للمجلة. أهز رأسي علامة الموافقة. وأحس أن ببال عائشة موضوع يؤرقها ولا يريد أن يغيب.

ــ وموضوع المهنة الأقدم في التاريخ، منذ شهرين وأنتما تعملان على تحقيق حول البغاء، وقلت لي هاني إنك ستجري مقابلات مع فتيات "الشو".. هل هناك جديد حولهن.. تقول عائشة وأنظر إلى محمد الذي يضحك ببراءة طفل وهو ينظر إلى عائشة وأبتسم. أفكر بالمأزق الذي كنت قد وضعت نفسي فيه. ماذا تريد عائشة!؟ أحدّق في عينيها السوداوين اللتين تخفيان غموضهما بهذا السحر، وينكشف فجأة ودون مواربة للحظة ثم يغيب عالم أسرارها الدفينة لعيني. أعود للتحديق دون تفكير بفنجان قهوتي. تسحب عائشة نفساً عميقاً من سيجارتها منتظرة جوابي كي تبدد قلقها من انكشاف أعماق بحيرة عينيها السوداء لعيني.. الآن أعرف تماماً لماذا كلفتني عائشة بهذا الموضوع، أطيل التحديق بفنجان قهوتي. وأعود للتحديق في عينيها وأزيح نظراتي مرة ثانية إلى فنجان القهوة الفارغ. أقول إن موضوع التحقيق لم يكن بالسهولة التي تصورتها، إضافة إلى أنه مكلف بالنسبة لخبرتي بفتيات الاستعراض. أقول ذلك مشدداً على التكلفة وتصمت. أعرف الآن أنها لن تسألني عنه مرة ثانية في هذه الأوقات الحرجة للمجلة. أنظر في ساعتي. أقول لعائشة إنه موعد قدوم نورا، وتطلب مني رؤيتها إذا حضرت. أخرج من مكتب عائشة متجهاً إلى مكتبي. أشم رائحة دفئها قبل أن أراها. أقف أمامها وتنهض. أقبل خدها وأنا أحتضن دفء يدها بيدي. أبتعد قليلاً لآخذ صورتها كاملة بقميصها

الذي بلون أفق برتقالي مشتعل بالنار فوق تنورتها الطويلة المزهرة بالأخضر والبنفجسي الراقصين بإيقاع الأبيض. أحاول ضمها لكنني أتراجع أمام سهام بحيرة عينيها "هناك من يراقبنا".. تقول لي عيناها، وأكتفي بلمس ذراعيها والضغط عليهما قليلاً لأجلسها. أجلس أمامها. أسألها إن كنت تأخرت عليها وإن كانت شربت قهوتها وتقول لي وهي تنظر إلى روزا أن روزا قامت بالواجب. أغرق روحي في بحيرة عينيها المعشبتين.. "أخيراً أنت هنا". أحاول استيعابها كلية في عيني.

ــ مكتبك جميل. تقول لي وهي تتأمله. "الآن أصبح جميلاً".. أقول.

ــ يبدو الجو مريحاً. هل أنا مخطئة!؟.. تسألني.

ــ لا. أنت مصيبة لكن هناك ما ينقصه. أجيبها معبراً عن اشتياقي لها.

ــ أنت كما أنت.. تتطلب الدلال.

ــ ألا أستحقه!؟..

ــ آ .. تستحقه، ويستحق من يحبك هذه العقوبة.

ــ الممتعة .. لن تقولي أن العقوبة معي لا تترافق مع المتعة.. أقول.

ــ هي من ناحية كونها ممتعة ممتعة.. لكنها عقوبة.

ــ عدنا إلى الاستفزاز، وتعليقي بمتعة سخريتك.

ــ أمر جيد أن تبعث فيك سخريتي المتعة.. تقول وأنظر إليها. أفكر أنّ علي إنهاء أمور العمل في المجلة كي أتفرغ لها.. أصحبها إلى مكتب عائشة التي ترحب بها وتسألها عن باريس وعن وضع المثقفين في محنة الحرب، وتجيبها أن النظيفين منهم يعانون من عقوبات التحالف.

ــ بعضهم طردته الديمقراطية الفرنسية وبعضهم سوف يطرد نفسه بسبب صعوبات العمل وعدم مساعدة الآخرين لهم.. تقول لها، وأفهم أنها تريد تذكيرها بوضع سامح. تدخل روزا وتوقّع بعض الأوراق.. تسأل نورا عن باريس، تتبادلان المجاملات حول معرفتهما التلفونية. تقلب

عائشة الرسومات التي أعطتها إياها نورا لصفحات الطفل في العدد الجديد وتبدي إعجابها وتتفقان على تنفيذ قصة أخرى وأتابع أنا أعمال العدد مع حسّان.

ـ عائشة لطيفة إلا فيما يتعلق بالنقود.. تقول نورا ونحن نجلس في المطعم البحري المفتوح على الشاطىء. أبتسم لها كي تفهم ما كنت أعانيه في التذكير برواتب سامح. أقول لها إن عائشة تعاني من مشاكل في التمويل وأطمئنها إلى أن الأمور آخذة في التحسن. نطلب البيرة واللحم المشوي الذي خبرت جودته في هذا المطعم. تتأمل نورا البحر الذي استكان أمامها.

ـ تعجبني بساطة الحياة هنا. يعجبني هذا الشاطىء المتروك على سجيته. هذا الطقس يدفعني إلى كره باريس ومشاكلها. القال والقيل فيها. تقول منبسطة الروح والجسد وأتأمل عينيها اللتين استقر في حضن هدوئهما البحر الهادىء الجميل. أفكر أنه لم يكن أليفاً وهادئاً هكذا من قبل.

ـ ما الذي فعلت له كي يستكين هكذا في عينيك. أقول لها وأنا أتأمل البحر الذي لا أعرف أين خبأ أمواجه.

ـ لم أكن أحب بحراً بدون أمواجه من قبل، لكن يبدو أنني بحاجة إلى الهدوء بعد صخب باريس.. تقول وأحس أنها مجروحة من المدينة التي غادرتها. أفكّر أن علي القيام بتفريغ حزنها عبر الكلام. أسألها عن محمود وعائلته. كيف هو مع كمال والآخرين، وتحاول هي الهرب من الحديث.

ـ لا أعرف إن كنت أريد الهرب من الحديث عنهما أم العكس.. لكن أعتقد أنك يجب أن تعلم.. تقول وتستثير فضولي. أنظر إليها أن تكمل. تخبرني بأسى أن كبرياء كمال وضيق نفسه أنهيا صداقة عمره مع محمود، والقصة مربكة ولا تحكى.. أنظر إليها أن تكمل.

ـ أنت تعرف إميل، المحرر الأدبي في مجلة (الصوت)، لقد رفض كمال أن يعطيه التعويض المطلوب لإقالته من العمل عندما توقفت المجلة، وحجته أنه ليس لديه عقد ينص على هذا إضافة إلى أن المجلة خسرت وعلى الجميع أن يتحمل الخسارة.

احتج إميل وأراد رفع دعوى على المجلة، ومرّت الدعوى بشهادة محمود. أراد محمود أن يتملص من الإحراج بين الاثنين لكن لم يكن من مفرّ، فشهادته هي التي ستحدد كسب إميل أو خسارته. قال كمال لمحمود إن صداقتهما ستكون هي الثمن إذا شهد ضده لصالح إميل. ولم يكن أمام محمود من خيار. صمت في البداية ونظر بعيني كمال نظرة وداع الصداقة الحزينة.. "سوف لن أعتز بصداقة تبنى على ظلم الآخرين".. قال لي محمود وهو يخبرني بقراره الذي قاله لكمال دون أن يضيف حرفاً آخر.. قال هذا لصديق عمره، وانفصلا.. تقول وأشعر بالأسى لما آلت إليه حال صداقاتنا. أفكر بما حدث لي مع كمال، وأفكر بكمال وأحزن!!.. إن هذا مخيف يا إلهي. كم هذا مخيف.. أنظر إلى نورا. أحاول الالتجاء إلى عينيها بالقدر الذي تحاول عيناها الالتجاء لعيني. أمسك بكفّي راحتها، أضغط عليها أن لا تقلق. تدمع عيناها.

ـ كيف وصلنا إلى هذا!؟.. تقول، وأضغط على يدها. أحتضن يدها بين يدي. تكابر حزنها وخذلانها.

ـ يمكننا التفكير بموقف محمود الإيجابي أيضاً.. أقول محاولاً حمايتها من هواجسها، وأتذكر أن هذا كان قاسياً على محمود. لقد كان موقفه الإنساني يعني فقدانه صداقة عمره. تنتبه نورا وكأنها التقطت ما أفكر فيه.

ــ لم تحدثني عن وضعك أنت. كنت يائساً في آخر تلفون بيننا.. تقول وأطمئنها أنني مازلت بخير، ومازلت ألتزم بالموعد حتى لو كنت أعرف أن الآخر سيتأخر أو يتخلف. أقول ضاحكاً.

ــ أنا أتأخر عن مواعيدي بطبعي، وليس رداً على عدم التزام الآخرين. تقول غاضبة من لمزي.

ــ لم أقترب من سيرة تأخرك.. أقول ضاحكاً.

ــ سيرة. جعلتها سيرة. انظر. مازلت مصرة على أن الرجل يجب أن ينتظر المرأة.. تقول مدافعة عن فلسفتها النسوية.

ــ وأنا فعلت ذلك طيلة عمري.. أقول وأنظر في عينيها.

ــ ونساؤك السابقات، اللواتي ربحت رهانات صيدك لهن، واللواتي أحببتهن، تقول متقصدة إغاظتي للوصول إلى ما تريد.

ــ بالنسبة للطرائد اكتشفت أنني كنت الفريسة لا الصياد، وبالنسبة لمن أحببت.. أعتقد أنني أصبت مرة بوهم الحب، واكتشفت أنني كنت أنتظر امرأة أخرى.. أقول وأرتشف بيرتي. يضع النادل الطعام على المائدة. تلمح نورا أنها يجب أن لا تتأخر وأحس بالخذلان.

ــ كم البحر هادئ. أصبح هذا يغيظني.. أقول لها وتشرح لي أن طارق لا يستطيع النوم إطلاقاً إلا بجانبها.

ــ كنت أكره باريس.. أقول لها وتضحك متذكرة معاناتي من عدم قدرتها على السهر معي.

ــ هل أوصاه أبوه بهذا. أسألها متصنعاً الغيظ.

ــ لا أعتقد. كان هو نفسه يعاني. تقول بسعادة مشوبة بحزنها الدفين. أقترح عليها أن تتأخر قليلاً وأوصلها بنفسي إلى نيقوسيا. توافقني مشترطة أخذها في جولة للأماكن التي أتردد عليها بصدق، وأحاول التملص بسؤالها إن كان هذا الشرط كي لا أقترح عليها زيارة بيتي.

ـ هذا وذاك.. تقول لي، وأعرف أنها لن تتراجع.
أوقع على قسيمة استئجار السيارة. أعطي المؤجر شيكاً بقيمة خمس وأربعين باونداً عن ثلاثة أيام. يسلّمني المفتاح ويطلب مني التأكد من كمية البنزين لإعادتها إليه بالكمية نفسها.

ـ الآن لدينا سيارة.. أقول وأنا أدير محركها.

ـ الحياة بسيطة هنا. كل شيء يجري بسهولة.. تقول.

ـ نعم. وفجأة تجدين نفسك وسط الشلال.. أقول ضاحكاً، وأشرح لها طبيعة الارتهان الذي يعاني منه القبارصة للبنوك، وكيف أنها سترى سيارتان وثلاثة أمام "الهاوس"، لكنها ملك للبنك على الأغلب، وما يرحمهم هو بقاء الوضع المتردي لبيروت على ما هو عليه. لقد استفادت قبرص من تدمير بيروت دون أن يعلم القبارصة القرويون بذلك، وكأنها هبة من السماء.. أقول لها، هبة تحمل بداخلها ما تحمل.

ـ أين ستأخذني أولاً؟.. تسألني.

ـ حسناً. بطبيعة الحال بيتي هو أول مكان أتردد إليه.. أقول وتضحك.

ـ هذا أعرفه، لا تحاول. المكان الثاني.

ـ هل تخافين مني؟.. أقول متضايقاً.

ـ لا. أنت تعلم أننا ناضجان كفاية على اتخاذ قرار بهذا الشأن.

ـ نورا. أنا أشتاقك.

ـ وأنا هاني. لكن أنت تعلم أننا لا نستطيع. دع الأمور تجري لحالها.

ـ كي أجد نفسي فجأة وسط الشلال، أنا أعرف هذا، وإلا فلماذا تعلق بذهني الآن صورة هذا المركب الغافل الذي يجري ببلاهة السعادة.

ـ أنا سعيدة معك الآن هاني، فلا تعكر سعادتي.. تقول، وأتراجع عن سوداويتي. أصفّي سواد نفسي بسرعة. أنظر الهدوء في بحيرة عينيها.

ـــ كم أحب نعاسك. مارأيك بـــ "برينس أوف ويلز". أقول لها، وتقبّل خدّ الولد الذي رضخ بتهذيب كعادته لقبلتها الناعمة. وأحس بأن العالم صاف. صاف وجميل.

ـــ ساحة الشرف الوطني في ليماسول.. أقول وأنا أصفّ السيارة أمام بار برينس أوف ويلز على الزاوية اليمنى من الساحة.

ـــ هل تطوفين قليلاً قبل الدخول. أقول لها وتتشبك ذراعها بذراعي.. لا أعرف أي تاريخ أعطاها هذا الاسم، لكنه يعود حتماً لعهد الأسقف الثائر مكاريوس، وهي مثل كل ساحات الشرف في العالم، تتحول إلى ملجأ وملاذ للضائعين، ويجد التجار ضالتهم ببناء البارات والأندية الليلية والفنادق المتنوعة حول الساحة. هذا الفندق الرخيص يرتاده عمال التراحيل وتجار الشنطة من البلدان العربية المجاورة، وفيه كما أعتقد تنزل فتيات استعراض من الفليبين ومن بقايا دول المنظومة الاشتراكية المبددة، لقد زرته مرة مع حسّان انسجاماً مع الحالة الصحفية لعمل تحقيق كلفتني به عائشة حول البغاء.. سوف لا أخفي عليك فضولي في رؤية غرفة إحداهن، لكنني لم أجرؤ على ذلك.

ـــ لماذا.. هل منعك التفكير بأحد ما.. تقول ضاحكة.

ـــ جزئياً.. أقول وأعود للاعتراف.

ـــ الحق أنني كنت خائفاً من الإيدز.

ـــ تستحقون هذا.. تقول وأضحك.

ـــ لم أقل لك. كتبت مقالاً حول شبه المرأة بالطبيعة، لكنني لم أذكر فيه أن النساء يستخدمن الطبيعة لمقاومة غش الرجال.. أقول وتضحك.

ـــ أنظري إليهن. سرب من فتيات الاستعراض يتجهن إلى ملهى "الكيت كات".

ـ هؤلاء هن. إنهن فتيات طبيعيات، ولسن جميلات كذلك. كيف تنزلقون للتعلق بهن!؟

ـ في الداخل هنّ على صورة أخرى أشبه ما تكون بالشعر أو الأسطورة.. أقول وتضحك، وأشرح لها منفعلاً روح المكان الذي يدعى الملهى. أقول لها أن الإكسسوارات المتمثلة بالإضاءة والثياب مع الخمر تمنح المكان طقسية التحول وتبعث ربما روح الممارسة الجنسية الطقسية الأولى حيث البغي هي البغي المقدسة التي تشيع جسدها للجميع.

ـ للجميع!؟ حسبت أن من يدفع هو الذي يحصل على ما يريد.

ـ نعم. وهذا ما يقتل الطقس ويعيد البشر إلى واقع المجتمع الرأسمالي الذي هم فيه.

ـ وصفك لهذا يخيفني. لو لم أعرف روح أسطرة الأشياء لديك لخشيت أن تكون حياتك قد انزلقت نحو التفاهة.. تقول وأبلع ريقي. أفكر بالتفاهة التي يمكن أن ينزلق إليها الإنسان. هل انزلقت قليلاً إلى هذا. كم تخيفني صدمات هذه المرأة التي تسير بجانبي. نصل إلى باب البار. أعتذر منها مسبقاً أن المكان ليس مكانها ولكني أريد أن أريها الأماكن التي أقضي فيها وقتي.. ندخل بار ليندا الذي أعطته اسم أمير ويلز. ترحب بنا المرأة وتفهم مباشرة أية فتاة رزينة دخلت البار معي. أعرفهما على بعض. وتفهم ليندا أن الفتاة تخصني. أقول لنورا إن هذا المكان هو مشربي المفضل، وهذه ليندا صاحبة البار. أشعر بارتياح لجو الاحترام الذي يسود المكان. ترين أن المكان هادئ وجميل. أقول لنورا.

ـ إلا إذا بدأت نقاشاتك السياسية وشتمت الإنكليز.. تقول ليندا ضاحكة، وتخبر نورا عن المذبحة التي كانت ستحدث لو لم ينسحب ريتشارد من النقاش ليلة حرب الخليج. تضحك نورا مجاملة إياها لكنني أحس بتوترها.

أستغل فرصة استدارة ليندا لتعبئة البيرة وأخبر نورا أنها طيبة ومتعاطفة مع العرب كي أخفف من توتر الجو الذي مسّه ذكر الحرب.

ــ لا تخافي على هانيبال. إنه الأكثر رزانة وهدوءاً بين زبائني. تقول ليندا وهي تقدم البيرة لنورا غامزة إياها أن تطمئن وتستدير لخدمة الآخرين.

تشعر نورا حقيقة بطيبة ليندا وحرصها علي، ويخفف هذا من حساسيتها تجاه الإنكليز. تعتذر من ليندا ونترك البار إلى طاولة. تسألني نورا تفاصيل أكثر عن فتيات الاستعراض، وأشرح لها بتعاطف معهن أنهن فتيات يقعن في بلادهن إما ضحايا للفقر أو لمشاكل الأبوين أو وهم التحرر غير الواعي، وتستغل ضياعهن شبكات تتاجر بالفتيات، منظمات دولية للدعارة، وهن يتنقلن من عاصمة إلى عاصمة. وقد بدأ انهيار المنظومة الاشتراكية يضخ فتيات كن يتأهلن لبطولات الرياضة.. وبدأت المعاهد الرياضية بضخهن إلى الملاهي عبر العالم. الروس بدأوا الآن مع انهيار الاتحاد السوفيتي بتصدير الفتيات إلى العالم المتعطش للّحم الاشتراكي الرخيص. أقول.

ــ وماذا يفعلن في الملاهي.. تسألني نورا، وأقول لها إنهن يقدمن استعراضاً جنسياً أميركيا بنكهة اشتراكية.

ــ وماذا تفعلون أنتم الرجال معهن!؟.. تسألني، وأشعر بالمنزلق الذي تضعني فيه. أجيبها وأنا أضحك كي أهرب من الإحراج إننا نتقرب.. تسألني إلى ماذا وأتذكر المشهد الذي أسرني مرة.. أسألها كتمهيد لفخ الطقس الذي لا أعرف أية قوة شيطانية تدفعني لسوقها إليه إن كانت قرأت قصة "الحية" التي كتبتها، وتنظر في عيني ضاحكة لتشعرني أنني مكشوف. أقول لها إنني رأيت مشهداً في "الكيت كات" لفتاة ترقص مع الأفعى. لم يكن رقصاً بمعنى الرقص المجرد العادي. كان رقصاً أشبه ما

يكون بطقس. أنظر في عينيها اللتين تعطياني إشارة المتابعة، وأتابع.. كنت على بوابة الخروج من دائرة حرب الخليج إلى هاوية لا أعرف لها قراراً. وكنت وحيداً وضائعاً. لم يكن من أحد يسندني. أتذكر انشغال نصير بمشاريع طبع كتب الحرب وانشغال حسّان بتعلم اللغة اليونانية، وأعيش إحباطات تذكرني بما حدث لي في باريس. كنت أحس أنني عجل صغير ما يزال يقاوم الانصياع لسكين الجزار بقرونه غير أنه لا مفر. كل الطرق كانت مسدودة أمامي ولا أفق أو بصيص أفق لعالمنا سوى السكين. كان الجدار أمامي وبدأت أضرب رأسي كالعادة.. قادتني قدماي من قهر رؤيتي للجنود الإنكليز وهم يملؤون بارات ليماسول ويرقصون منتصرين إلى "الكيت كات"، ملجأ المقهورين والضائعين الذين لايرون ملاذاً لضياعهم سوى انتحارهم.. وجلست على طاولة قريبة من ساحة العرض.
بدأ الاستعراض بموسيقى أنيجما الكنسية التي حملت إلي راقصات بثياب الراهبات يتقدمن ويحركن أيديهن بتعبد مع الترتيل الذي بدأ بالتلاشي شيئاً فشيئاً ليتوقف ولتنحني أيدي الراقصات الراهبات على أجسادهن.

بفجاءة وعلى إيقاع طبل إفريقي وحشي: دُم دُدُم دُم دُم دُم دُم. فتحت الراقصات أرواب الراهبات عن أجساد شبه عارية بالكامل وتنبض بطونها الضامرة البضة بإيقاع الجنس الذي لا يقف أمامه جدار.. هكذا، وإلى نهاية أغنية أنيجما، حيث خفتت الأضواء وغيبت الراقصات في باب حجرة تغيير الملابس المنفرج قليلاً عبر نطاق رؤيتي والفاتح بهذا الانفراج طقساً سرياً آخر لتجلّيات رغبات التلصص.

بعد فترة صمت بين نوعين للموسيقى، خرجت راقصة أولى بثياب العصر الحجري.. سيقان شقراء طويلة مشرعة، وجسد لا يستر عريه الساطع المتحرك بإيقاع الجنس سوى قطعة صغيرة مثيرة بحد ذاتها من الجلد المكسو بالشعر. ودخلت بعد وصلتها المنفردة الراقصات إياهن بثياب

العصر الحجري، وبدأن الإحاطة بها ومداعبتها بإيقاع مدمّر انتهى باغتصابها حتى التلاشي.

انتهت الوصلة لتدخل الراقصات حجرة الملابس بإضاءة خافتة وسادت موسيقى هادئة لكنها تفتح عالم نسور تحوم في سهل مفتوح، وتمهد لظهور راقصة لا يستر عريها سوى قطعة صغيرة واحدة فقط، وأخذت ترقص حول صندوق وضعه أمامها رجل من خدام الملكات.. ومع رقص استدعاء الأرواح حول الصندوق وجو الترقب الذي يفوح برائحة الجنس النابض من جسدها.. فتحت الراقصة الصندوق ومدت يدها لتتناول حية "البوا" العاصرة المخيفة.

مرّرت الراقصة الحية بالتفاف وانزلاق حول رقبتها وخصرها وصدرها. بين ثدييها وساقيها، وكانت تتلوى مع الأفعى سادرة في غيابها دون أن تنظر إلى أحد. كانت هائمة ومستغرقة بنفسها فقط، وكنت مأخوذاً بإثارة مشوبة بالخوف. نظرت في عيني الأفعى، ونظرتْ الأفعى في عيني. دارت حول الجسد، وانزلقت في تفاصيل الجسد غارقة فيه وعينيها في عيني. دخلتْ بعد ذلك قبرها وعينيها في عيني.

خرجتُ بعد هذا المشهد دون أن أكمل الاستعراض. احتسيت كأسي دفعة واحدة وخرجت. استقبلني البحر كعادته. تنفستُ عميقاً وأنا أواجهه. لم يكن يملأ ذاكرتي سوى العينين اللتين اختارتاني كي تشاركاني أسرارهما. لم يكن بذاكرتي سوى عيني الكائن المتماهي بذاته الذي ترك ذاته لحظة واحدة للنظر في عيني.

حملت إيقاع تكسّر أمواج البحر على صخر الشاطئ معي إلى سريري . نمت. نمت وحلمت. حلمت حلماً غريباً لم أستطع تفسيره، لكنني أذكر أنه كان أليفاً ومخيفاً بآن...

أتوقف لحظة لأحدق في البحيرتين الخضراوين اللتين أيقظتْ نعاسهما دهشة حديثي. أحدق في عيني نورا وأحس أنهما تدعواني للكلام.. حلمت أنني أسير في طريق ضيق.. ضيق وطويل. كان الطريق هو ذاته الذي كنت أذهب فيه وأنا طفل لأقطف ثمار التوت الأكثر استعصاء بتدليها نحو هاوية النهر. كان الطريق محدوداً من الجهة اليمنى بأشجار الدفلى والتوت، ومحدوداً من اليسرى بحائط البستان الطيني. كان الطريق هو ذاته غير أنه كان طويلاً ولا ينتهي... مشيت وحيداً في طريق طفولتي.. وحيداً، وشعرت أن ثمة كائناً يمشي معي على إيقاع خطواتي. شعرت بالخوف وتوقفت. كان ثمة من يقترب باتجاهي.. من يقترب ويتجسد.. لن تصدقي من كان أمامي. كانت هناك صبية تشبه إلى حد بعيد قدسية، وتقول لي ابتسامتها الحنون أنها هي لا غيرها. ما الذي أتى بها إلى هذا الحلم، بعد عشرين عاماً من غيابها.. ما الذي ذكّرها بعد عشرين عاماً بي!!.. نظرت في عينيها لأسألها أين كانت وماذا تفعل غير أنها لم تكن تجيب. فقط كانت تبتسم بحنان كعادتها وتلمس أصابُعها عقداً يطوق جيدها... اقتربت منها أكثر غير أنها كانت تبتعد بقدر اقترابي. حاولت جهدي أن أثبتها في مكانها ووقفتْ أمامي. اقتربت منها غير أن حاجزاً لم يكن بالحسبان وقف حائلاً دونها. نبضت الحياة فجأة في العقد الذي تداعبه أصابعها ورأيته على حقيقته. كان حيّة من ذهب خالص. مسمّرة بذهب خالص وما يَشي بحياتها كانت عيناها. فقط كانت عيناها تومضان. تومضان وتوقفاني عن التقدم. تومضان وتسحبان قدسية دون إرادتها في اتجاه المجهول.

أنظر في عيني نورا اللتين تلمعان ببريق الدمع. أحتضن يدها براحة يدي معتذرا عن قسوتي في تذكيرها بصديقة طفولتها. أضغط على يدها ويخرج ندى الدمع المتلألئ في عينيها ليسيل الدمع ساخناً وصامتاً ولا

يتوقف. أقول لها إنني آسف. أقول لها إنه كان علي أن أكون أكثر قوة وأخفي شكوى داخلي. أقول لها دامعاً أنا الآخر إنني كنت أعاني وإنني كنت أنتظر قدومها لا لكي أشكو لها ولكن لأشاركها جمال هدوء الشاطئ. أعتذر لها وتمسح دموعها. تقول لي أن لا أهتم. تربت على يدي لتشعرني أنها بجانبي. تقول لي أن لا أخشى شيئاً. تقول لي إنها معي الآن، وأحدّق في بحيرة عينيها التي استعادت هدوءها. تبتسم لي. تمسح ابتسامتها كآبتي وأبتسم. تبتسم أكثر. تقول لي ضاحكة: مع هذا لن تهرب من سؤالي بماذا كنت تشعر وأنت تراقب أجساد الراقصات. تقول ذلك وتضحك بمودة. لا مفر.

أقترح عليها أن نخرج وتوافقني لكنها تطلب مني أن أكمل قصة الحلم. أين وصلت. نعم. وأتابع.. بعد فقداني لقدسية بدأت أبحث عنها. سرتُ في الممر الطويل وانفتح حائط البستان على يساري ليكشف آثار معبد مهدم. كانت أجزاء الأعمدة والتماثيل متناثرة في المكان الصامت وسط خضرة فردوسية. سرت بانجذاب نحو المركز. كان ثمة صخور وصوت تدفق نبع. اتجهت نحوه وفجأة برزت أمامي، سيدة طويلة تنتصب كما التمثال وسط الساحة. كان تمثالاً حقيقياً لكنني شعرت أنه ينبض بالحياة. كانت السيدة تحمل جرة وتميلها باجتذاب لي كي أقترب وأشرب. كان الماء يتدفق عذباً من جرتها ويفتح في داخلي عطشاً جائعاً مسعوراً إلى الارتواء... تقدمت بطيئاً من جرتها بطيئاً، ووقفت. وقفت وكأن يداً قالت لي أن أقف. وقفت وانحنيت دون أن أزيح عيني عن عينيها. خلعتُ نعليَ الأيمن بهدوء، ثم نعلي الأيسر بهدوء وخطوت حافياً. خطوت لأقف أمام الجسد الأسود الثابت أمامي.. كان جسداً أليفاً وشعرت أنني أعرفه. ابتسمت السيدة لي. ابتسمت بحنان أصابني بالخوف. نظرتُ وجهها الذي بدأ بالتجلي لداخلي امرأة رأيت فيها داخلي وخفت. كان وجهها يتلون

بوجه امرأة هي أمي عندما كانت صبية وحنون، ويتلون بالقسوة غير أنها قسوة رقة وجلال. دعتني قسوتها الرقيقة للدوران، بطيئاً حولها. بطيئاً دون أن أزيح عيني عن عينيها اللتين كانتا تراقباني حتى عندما أصبحت خلفها. وقفتُ أمامها من جديد ومدت لي جرتها لأشرب. تدفق الماء عذباً في فمي غير أنني لم أستطع الارتواء. كان ماءً عذباً لكنه أشبه بالهواء، ولم يكن يرويني. تعذبت وأحسست بالشقاء. كان الماء عذباً لكنه لا يرويني... نظرت في عينيها، ولن تصدّقي ذلك.. تلون وجهها بوجه امرأة كنت أدعوه وجه شجرة المشمش الذي تجلّى لي مرة في غلاف يبسط العالم أمامي ببساطة ماء الجرة المتدفق بلون الزمرد، لون العذوبة التي هي من نارٍ وألم... كان هذا وجهك نورا، وكانت يدك هي التي تمسّد على رأسي الذي أسند شقاءه على ركبة السيدة التي مازالت تبتسم بحنان مخيف... نظرت مرة أخرى ولن تصدّقي ذلك. جديلة شعرها المضفور على شكل حيّة تجسّدت أمامي حيّة للحظة بعثت في الخوف قبل أن أحس بابتسامة شجرة المشمش إياها، ابتسامتك التي غمرتني بتويجات حنان وغيبتني عما يحدث.

أنظر في وجه نورا. أنظر في عينيها وأنا شبه غائب. أحس باندهاشها من هذا الجنون الذي انفلت فجأة من عقاله. أحس بيدها تمسك بيدي وتضغط عليها كي تعيدني إلى عالم جلستنا الهادئ.

ــ لم أكن أعلم أن الماضي يمكن أن يكون قيداً بهذه الصورة.. ماذا فعلتَ بما حدثتني عنه!؟.. تقول خائفة علي، وأطمئنها. أقول لها إنه نصف الرواية التي حدثتها عنها في التليفون، وأقول لها إنه بين أوراقي التي ستأخذها لتقرأها في السيارة، وأحس إذ أنظر في عينيها بقلقها.

ــ لم يكن علي أن أتحدث هكذا. أقول وتقول لي بالعكس، إن هذا جيد، وربما يشكل رواية مميزة، لكنه لن يجعلها تنسى سؤالها لي بماذا كنت أشعر وأنا أراقب أجساد الراقصات.

أنظر إليها ضاحكاً. أحتضن يدها بين يدي. أنظر في عينيها. أحدّق في البحيرتين الخضراوين الآسرتين والمأساويتين بآن. أحس بارتباك اخضرارهما من نار تحديقي. يدفعني اهتزاز العشب في قاعيهما للانفعال، فتزحف كفي صاعدة على يدها، تعرّي كمّ قميصها. أضغط قليلاً على ساعدها. تنظر إليّ بحنان أن أتوقف. كم أود تقبيل نعاسك. أقول لها بعيني، وتنظر هي محرجة إلى البار.. لا أحد هنا يراقب أحداً. تقول كفي لباطن ساعدها الناعم الدافئ. تطلب مني بصوت خافت ومتكسّر أن نقوم، وأوافقها ممسكاً بيدها ومحيطاً بساعدي كتفها دون أن ألمسها.

أوقف السيارة في مقدمة الطريق الطويل المعتم المسقوف بالأشجار، وأدعو نورا للنزول.

ــ هذا ما أسميه درب ضياعي.. أقول لها وأنا أطوّق كتفها بساعدي.. لا أحد هنا في هذه الساعة. أحس كما لو أنني في حلم. أصيخ السمع إلى تردد أمواج البحر الهادئة على الشاطئ الهادئ.. "هذه الغابة على اليمين توحي لي بأنها غابة الطفل الذي هرب باحثاً عن انسجام روحه".. أقول لنورا وأنا اضغط بكفي الأيمن على كتفها الأيمن وأقودها باتجاه الشاطئ عبر ثغرة الأشجار على يميني. تتوقف لتنظر في أرجاء الغابة الصغيرة الصامتة برهبة. تقول أن المكان يخيفها وأبتسم لها. أمسك بكتفيها وأنظر في عينيها. أضغط وأتراجع عنها قليلاً لأنظر في عينيها. أعود لأدفن رأسي في عنقها مبعداً شلال شعرها المسكوب بيدي. تقول لي يكفي هذا هاني، يكفي هذا هاني. أحس بأنها تتمتم باسمي وأتمتم باسمها.. نورا. نورا. يا إلهي. كم انتظرت هذا. أحس بانجذاب جسدها إلى جسدي وأحس

بمقاومتها الشديدة اليائسة لهذا الانجذاب. تبعدني عنها برفق وأستجيب لها. دعنا نذهب الآن. علينا أن لا نتمادى.. تقول وتجرني من يدي للخروج من غابة موتي.

ــ أحسست وأنا أضمّك أنني أموت. تمنيت وقتها أن أموت... أقول لها وأنا أرسل عيني في عتم الطريق الذي يتبدد ظلامه بأنوار السيارة المتهادية برفق عليه.

ــ أعتقد أننا تمادينا. عدني بأن لا تعيد ذلك. تقول لي من قلب صمتها وشرودها، وأتضايق لرد فعلها رغم أنني أتوقعه. أحس أن الوقت قد حان لسؤالها، وأن عليها أن تجيبني وتفسر لي إحساسي بغرابتها.

ــ حسناً هاني. يوسف سيأتي إلى قبرص بعد أسابيع.. تقول وتصمت منتظرة رد فعلي الذي جمد في دمي، ولم يتحرك للخروج.

ــ اتصلَ بي. توسل إليّ أن أعود إليه إلى درجة أنه بكى. قال لي ماذا تريدين أن أكون لكي تعودي إلي. هل تريدين أن أكون كلباً. قال هذا وعوى مثل كلب بين يدي على السماعة.. تقول وأبقى على صمتي وجمودي.

ــ طارق يعرف أن بيني وبين أبيه مشكلة ويريدني أن أسامح أباه مهما فعل. يقول لي أن أباه يحبني، وهو متأكد من ذلك. تقول لي بصوت متكسر وأبقى على صمتي. أحس بعذابها، وأبقى على صمتي. أحس بتمزق روحها، وأبقى على صمتي. أحاول أن أقول شيئاً لأخفف عنها غير أنني لا أستطيع. أمدّ يدي إلى مسجل السيارة. أضغط الشريط وينسكب صوت فيروز. تنسكب الأغنية شلالاً من عذاب حنون مذاب:

" تذكر آخر مرة شفتك إنتَ..
تذكر آخر كلمه إنتِ قلتا..
وماعدت شفتَكْ..

وهلأ شفتَكْ..
كيفَك إنتَ.. من لا إنتَ.

كيفَكْ .. قالو .. عم بيقولوا صار عندك ولادْ
أنا والله كنت مفكرتك برّات البلادْ
شوبدي بالبلاد .. الله يخلّي الولاد ..
كيفك إنت.. من لا إنت "...

أوقف السيارة أمام الباب. أنتظر صامتاً نهاية الأغنية.

" تذكر آخر مرة.. شو قلتلّي
إنتِ فيكي تظلّي.. إنتِ فيكي تفلّي
زْعلتْ بوقتا
وما حللتا
هيدا إنتَ .. من لا إنت "...

أوقف الشريط. أمدّ لنورا يدي، وتحتضنها بين يديها. أقول لها إنني وعدت طارق أن آخذه لصيد السمك في بافوس. تبتسم لي بحزن. تسألني إن كان هناك سمك لصيده فعلاً في بافوس، وأضحك. أقول لها إنني وعدته وتقول لي.. حسناً.. سنكون لديك بعد أيام. جهز الصنارة، المهم الآن أن تكون حذراً على الطريق.. تفتح الباب. تضغط على كفي.

ــ لن أخرج من السيارة حتى تعدني بوصولك سالماً إلى ليماسول. تقول لي وأبتلع مرارتي. أقول لها إن لدي وعد طارق بسمك بافوس. تضحك لإخفاء حزنها. أنظر إليها بعيني، تقول لها عيناي.. لا عليك نورا، أنا معك في كل شيء ترينه مناسباً حتى ولو كان على جثتي. أنا معك نورا.

أنا معك نورا. معك.. بنظرتي المشجعة وابتسامتي اللتين لن يحس بمرارتهما غيري. أنا معك نورا.. فغادري الآن هذا الحطام.

أنظر لحظة وأنا بداخل نفسي إلى حطام سفينة نفسي. أنظر إلى جثة نفسي. أصاب بالذعر وأعود، أمسح شاطئ بافوس بنظري. أمسح السابحات المستلقيات على الشاطئ بشمس عريهن الإلهي بروحي. ما الذي سيحدث أكثر من ذلك. هو موت واحد وليس موتين.

ـ لا أعرف إن كان هذا جيداً أم سيئاً.. يضعونك في جنة مثل هذه. شاطئ مثل هذا. مقهى على الشاطئ مثل هذا. نادل لطيف مثل هذا. شمس مثل هذه. بيرة مثلجة على الشاطئ مثل هذه. أجساد مسفوحة بلون العسل ومذابة مثل هذه. المرأة التي فكرت أنها تختزل كل هذه الجنة بجانبك ثم يخبرونك أن عليك الرحيل قبل غروب شمس هذا اليوم.. أقول لنورا المسترخية الناعسة العينين من فعل البيرة بجانبي.

ـ لكنك ستشهد غروب هذا اليوم بجانب المرأة التي تختزل جنتك.. تقول نورا بمرح غامزة من نكديتي، وأقول لها مطمئناً إياها إنني فعلاً أحس أنني مثل محكوم بالإعدام.. لكنني أنوي التمتع بسيجارتي الأخيرة دون التفكير بما سيأتي بعدها. وسأثبت لك ذلك. أقول وأنا أتابع بنظري الفتاتين القادمتين من شمس الشاطئ إلى ظل المقهى، واللتين تجلسان وكأنني أحدد لهما مكانهما أمامي على الطاولة المقابلة لي.

تضحك نورا، وأحس بغيظها الدفين.. تقول لي إنها لم تشك بهذا من قبل، وأضحك. أنظر باتجاه طارق على الشاطئ.

ـ كم أحسد طارق. لقد وجد فتيات يلعب معهن رغم اختلاف اللغة. هل تصدقين أنني طيلة إقامتي في هذه الجنة لم أجد فتيات ألعب معهن. أقول بمرح وتجيبني نورا ضاحكة..

ـ لكنك أردت غير اللعب معهن. وأقول لها: بالعكس.. هن اللواتي يردن غير اللعب.

تضحك نورا. وأتأمل وجهها السعيد القلق بحسرة. أبدي إعجابي ببلوزتها الفرنسية التي بلون الشفق فوق تنورتها المطعمة بأشكال الفاكهة. أقول لها إنها تشبه شجرة أعرفها وتضحك سعيدة، لكنها تبدي قلقها من تأخر نصير وعائلته. تقول إنها لا تريد لأحد أن يقول أننا كنا لوحدنا مدة يومين في بافوس، وأطمئنها ساخراً أن لا تخشى.. فسرعان ما تنهال عليها أسئلة سراج التي لن تعرف على أي منها تجيب أولاً، ثم تضطر إلى أن لا تجيب على شيء. أروي لها لقائي الأول بسراج وتضحك وأطمئنها في الوقت نفسه أنها ستكون مسرورة برفقة عائلةٍ طيبة... تحس بحسرتي التي يخفيها هدوئي، وأنظر في عينيها بحزن. تقول لها عيناي إنهما لن تخفيا رغبتهما المستحيلة بأن تنفردا بها في هذا الجمال، وأحس أنها تشاركني هذه الرغبة لكنها تقاوم. تسألني هاربة أن أحدثها عما حدث فعلاً في المجلة، وتسودّ هالة البرتقال الشفافة المحيطة بي. أنظر باتجاه الشاطئ. أحاول الاستعانة بصورة هذا الطقس أن تقف حائلاً أمام صورة ما سيجتاحني لكنني أفشل. أستعين بدرع السخرية كعادتي في حماية نفسي. أقول لها.. لن تصدقي. جاءني عماد بالأمس، وعرض علي أن يعلّمني الإخراج على الكمبيوتر. قال لي إنها مهنة نادرة وراتبها كبير وامتدحني صادقاً.. قال إنني يمكن أن أكون معلماً فيها. أقول وأحس بقلقها. تسألني عن عملي، وأقول لها.. حسناً اجتمعت بنا عائشة بالأمس، وأخبرتنا أنها ستغلق المجلة. أقول وأعتذر عن الخبر إذ أحس بشحوب وجه نورا.

ــ تخلت عنك عائشة، كما كنت تخشى. تقول لي بصوت متكسّر حزين، وتعود صورة عائشة وهي تعتذر لي عن فصلي من العمل.

ــ قالت إنها تدرك وضعي السياسي لكنها لا تستطيع الاستمرار بمجلة دون تمويل، ودون أن تسدّد لها الشركة الليبية للتوزيع ديونها. نظرت في

وجه عائشة مرتاباً في مشاعرها، فالتخلي عن مشروع تحرري مثل هذا من امرأة ولدته وربته ورأته يخطو ويركض ويلعب كان أشبه بلحظة امرأة يذبح طفلها أمامها بالنسبة إلي!؟.. لقد ذابت مشاعر مأساتي في مأساة عائشة.. سألتها عن شعورها في التخلي عن حلم كل امرأة في هذا العالم. مجلة دفعتني أنا الرجل إلى أن أترك باريس لأعمل بها وأجعلها حلمي. سألت عائشة ورأيت عذابها أمامي. رأيت صمتها أمامي وأجابني محمد عنها، قال إنهما لن يتخليا عن المشروع، لكنهما أوقفاه مؤقتاً ريثما يستردان أموالهما، وريثما تحل ليبيا مشكلة التحويلات الناجمة عن حصارها. قال إنهما يفهمان حقيقة شعوري، ويعرفان أنني أكثر من تضرر بسبب وضعي السياسي، وأنهما مستعدان أن يبقيا إقامتي على المجلة إلى أن أحلّ وضعي. قال محمد ذلك وأصابني بالخرس. شلّني عن التفكير. أحسست أنهما قررا أن يتخليا عن حلمهما، ولم يعد هناك مجال للنقاش في كيفية الإبقاء على المجلة. شلني موقف محمد عن التفكير في المجلة، وفكرت بك أنت نورا. لماذا لا يأتيني السحق إلا بكماله. ضربة واحدة وأقسى ما يكون. طعنة واحدة وأقسى ما يكون. أقول لنورا التي تراقبني بصمت. أدير وجهي نحو البحر. أرى موجته ترتفع ثم تنحسر وأرى في انحسارها صليبي. أرى خشبة صليبي ترتفع في حضن شمس تبزغ بقوة وتمنع عيني عن رؤية الكائن الذي يرتفع ليستقر عليها. أحدق في وجه الشمس حتى الاحتراق، وأرى نفسي.. ولداً يهذي بالشعر في شوارع حلب التي سكنها الليل ويقف. يحدق بعمود النيون المضاء ويتحداه.. "عيني أو عينيك حتى الانطفاء". أحدّق في وجه الشمس حتى الاحتراق وأراه أمامي. أرى رفيقي أمامي يغادر صليبه بكامل ثيابه ويقف. يبدل نظارته بنظارة أخرى ويقف أمامي ويبتسم. أرى وجه رفيقي رياض الترك بكامل ابتسامته التي من صخر، ويستكين بداخلي البركان.

أنظر في عينيه. أقول له.. حسناً أيها الرفيق. أوافقك.. سوف لن نسمح لهم أن يكسرونا. أنظر في عيني محمد وأضحك. أنظر في وجه عائشة الصامت نظرة لا تعبّر عن أي معنى، وأغادر.

تضع نورا يدها على يدي.. "المهم الآن بماذا تفكر".. تقول لي، وأضع يدي على يدها. أنظر في بحيرة عينيها الخضراوين. أحدث نفسي. كم أحب نعاسك. تقول لها عيناي.

ــ أفكر باستمالة قلبك في اتجاهي. أقول لها وتضحك. تسحب يدها من ضغط دفء يدي وكأنها تقول لي أن لا أحاول. تسألني عن محاولات أهلي في تجديد جواز سفري من البلد. وأخبرها أن ابن عمي ذهب بتوصية أحد الضباط إلى فرع الأمن الذي أصدر بلاغ ملاحقتي. أخرجوا له ملفاً ضخماً وقالوا له إن علي أن أحضر شخصيا لإغلاقه. قال لهم مازحاً إن الشائعات باختفاء المعتقلين لديهم لا تشجع أحداً بالقدوم. وتقبلوا مزاحه. قال لي إنهم يعملون على بعض الانفراج، وإنهم عرضوا عليه برنامجاً للمطلوبين يمكن على أساسه أن يحضر المطلوب إليهم للمراجعة دون اعتقال بشرط أن يتخلى عن أي عمل سياسي، وإنهم مستعدون لإلغاء بلاغ ملاحقتي كي أحضر للمراجعة إذا رغبت.

أخبرني بهذا ابن عمي دون أن يبدي رأيه. قال لي أن للبرنامج ذيولاً يختلف الموقف منها رغم صحته، وعلي أنا أن أقرر خطوتي. أقول لنورا، وأردد لها.. فقط. أن يتخلى المطلوب عن العمل السياسي. وأن يرضى بانكسار روحه.

ــ لكنك لا تعمل بالسياسة الآن، وكلا الطرفين المختلفين في الحزب لا يطيقك أن تعمل معه.. تقول نورا وأنظر إليها. أشيح بوجهي عنها نحو البحر. ترد إلى ذاكرتي سجون شرق المتوسط في رواية عبد الرحمن منيف. أرى رجالاً يمشون بدون عيون مثل الزومبي في شوارع دمشق.

أرى شوارع دمشق وقد تحولت إلى جيوش زاحفة من الزومبي. ترد إلى ذاكرتي صورة صديقي معاذ، ويتحجر في عينيّ الدمع. ترد إلى ذاكرتي صور شهداء حزبنا، رفاقي.. أؤكد لنفسي ما أعرفه من أن هذه البرامج وهمٌ يخفي خلفه رماحاً مسننة تستهدف روح الرجال. أتلمس خائفاً روحي. كيف أستطيع التصالح مع نظامٍ ديكتاتوري طائفي فاشي جزر رفاقي وجزر شعبي. أؤكد لنفسي أن هذا النظام سفّاح، ويبتكر أشد الأساليب شيطانية كي يقتل روح الرجل في رجال بلدي.. تزحف موجة عالية باتجاهي، وتنحسر مخلفة تلاشيها في الرمل. أنظر باتجاه الشمس المواجهة لي. ترتفع خشبة صليبي، وأرى الكائن الذي يرتفع عليها محاطاً بقوة سطوع الشمس التي تجبر عيني على التراجع. تهبط أعمدة النيون المضاءة أمامي: "عينيّ أو عينيك أيتها الأعمدة حتى الانطفاء". أحدّق ملياً وأرى رفيقي يهبط من على صليبه. يبدل نظارة بنظارة ويبتسم لي. أقول له.. حسناً أيها الرفيق.

ـــ هل تطلبين مني أن أفعل ذلك !؟ أسأل نورا بصوت عتاب متكسر ينسفح بدمائه على الرمل دون أن أنظر في عينها.

ـــ أنت تعلم أنني لا أطلب منك ذلك. ولكن عليك أن تدرس خياراتك.. تقول نورا وأفكر بخياراتي. أية خيارات! ليت نصير يأتي لينتشلني من التفكير. أتمنى أن يأتي نصير. أركّز ذهني على أن يأتي نصير، أركز ذهني وأنا مغمض العينين أن أراه أمامي، وتهبط ظلال نصير أمامي.

ترحب نورا بأحلام والأولاد. تقبلهم ويأتي دور سراج: "أنت أطول مني". تقبّله وهي تضحك.

ـــ لم نعد نستطيع السيطرة على نموه. يقول نصير وهو يضحك مع زوجته. يسأل الأطفال عن طارق وتشير لهم نورا عليه: إنه الذكر الوحيد

بين الفتيات الثلاث. هيا شاركوه هذه النعمة.. تقول لهم وتضحك. ينظر سراج حوله وإلى أمه محتاراً، وتفهم وضعه تقول له: يمكنك أن تجلس معنا إذا أردت أو أن تذهب وتجد لك رفقة بحجمك. يجرّ سراج كرسياً وتطلب منه نورا أن يجلس بجانبها، ونضحك أنا ونصير. يقول لها نصير ممازحاً ولده أن ذنبها على جنبها، ويضحك سراج. يقول إنه لن يسألها سوى خمسة عشر سؤالاً، ونضحك. أحس بالسعادة لإدراك سراج مشكلته، وتحويلها إلى ميزة محببة لشخصيته. نجدّد بيرتنا مع نصير، أسأله إن كان الفندق أعجبه، ويدخل سراج على الخط. يسأل نورا عن غرفنا، وتجيبه أن غرفتها وطارق بجانب غرفته هو وإخوته، وغرفة عمو هاني تأتي بعدها. يسألها كمن اكتشف شيئاً. يقول لها: يعني عمو هاني الوحيد الذي سينام لوحده.. يضحك نصير، وتفاجأ نورا بالسؤال. تقول له أمه نعم وتسأله إن كان آكلاً هم عمه، ويجيبه أبوه ضاحكاً أنه يمكنه مشاركتي غرفتي، وأضحك. أقول له أن أباه يمزح، وأنني لن أنام في بافوس وأرجوه أن لا يهتم بي ونضحك. تطلب منه أمه المغادرة. تشير له إلى مكان على الشاطئ يجتمع فيه صبيان من سنه، ويذهب. يتنفس أبوه وأمه الصعداء، ويسترخيان. تعزّيني أحلام على فقداني لعملي. تقول أنها لا تفهم عائشة، كيف تتخلى عن مجلة بهذه الأهمية ثم تقول إنها ومحمد لا يعرفان كيف يدبران أنفسهما، وأنظر أنا إلى نصير. أحس أنه الوحيد الذي يملك الجواب. تحرجه نظراتي، ويضطر للكلام.. يقول إنه ليس متأكداً لكن يبدو أن مشكلة المجلة ليست مشكلة تمويل فقط. يبدو أن النظام الليبي يغيّر مواقفه باتجاه مغازلة الأمريكيين، وشهرزاد البائسة هي الضحية كالعادة، وقد أوقفت عائشة المجلة انتظاراً لتجلّي الموقف.. يبدو أن محمد وعائشة سيجدان نفسيهما ضمن صفوف المعارضة الليبية.. يقول نصير وينظر

إلي. تسأله نورا إن كان هذا التوقف يعني انتهاء المجلة، ويجيبها إنه يعتقد ذلك، لأن المرحلة القادمة تتطلب ترتيبات جديدة.

تنظر نورا إلي بقلق. "يبدو أن الأمر لم يعد لعبة". تقول لي عيناها. "عليك أن تبحث خياراتك". تصلني رسالتها. أنظر إلى ساعتي. أقول إن وقت الغداء حان وأعتقد أن الأولاد جاءوا. نطلب الطعام، ونجدد البيرة. أملأ كأس نصير. تسأله نورا عن مطبوعاته الجديدة ويقول لها إنه طبع عديداً من الكتب ستخرج في الأيام القليلة القادمة. لكنه قلق من تبدل مواقف النظام الليبي. إنه ليس قلقاً على الكتب الممنوعة التي ستبيع نفسها حول أسرار الحرب، لكن مواقف النظام الليبي يمكن أن تطيل دورة مال هذه الكتب.

تسأله نورا عن الكتب التي صممت له أغلفتها، وأنظر إلى نورا. تقول لها عيناي "لا تحاولي.. لن تقبضي أجرك عنها الآن". أتدخل في الحديث. أقول كمن تذكر شيئاً ويخشى أن ينساه لنصير بأن محمود يطلب أن يرسل له أجر جميع الترجمات التي طلبها عن الكتب التي طبعت وهو محرج أمام الكتاب الذين استكتبهم للترجمة.

ـ قال لي محمود أن أخبرك بأن باريس الآن لا ترحم الكتاب. تقول نورا لنصير الذي يطلب الصبر قليلاً ريثما يقبض من عائشة ومحمد. يتأفف من أن الموازين انقلبت في التعامل مع ليبيا. وتنتقل نورا إلى موضوع آخر. تسأله كيف يمكن تدبير وضعي بعد الذي حصل.

ـ أنت تعلم الآن أن الأمر لا يتعلق بالإقامة فقط. الإقامة مرهونة بجواز سفر لم يستطع رفاقكم في باريس تدبيره حتى الآن. والقبارصة كما فهمت لا يتساهلون في هذه النقطة.. أي يمكن لهاني أن يجد نفسه على أبواب أول طائرة مغادرة إلى السجن في البلد.. تقول نورا منفعلة ويهدئها نصير، يقول لها أن تطمئن.

ـ ليس الأمر بالخطورة التي يصورها هاني. بالنسبة لعمله.. أستطيع مده بألف دولار شهرياً بالعمل معي كما قلت له ريثما يجد عملاً هنا. وبالنسبة لجواز سفره.. قلت له إنني سأذهب بنفسي إلى عاصمة عربية لإحضاره.. يقول لها بثقة تقارب إضحاكي غير أنني أتابع المسرحية هادئاً وأنا أمتص كأسي وكأن الأمر يتعلق بشخص آخر لا أعرفه.

ـ لكن الوقت ليس لصالحه، وأنت تعلم أن رفاقاً لنا اعتقلوا بسوء تقدير بسيط واستهتار بسيط بالوقت. تقول نورا لنصير الذي لا يتزحزح اطمئنانه ويطمئنها بأنه سيتصرف. أقوم ضاحكاً أمام استغراب نورا لجمع الأولاد وإحضارهم للغداء. ألقي نظرات خاطفة على أجساد سابحات الجنة، وأنا أمسك طارق بيدي، وأمر بجانب جسد الأرض المسفوح على بطنه مستسلماً في أحضان شمس الله. أحدّق في خط استوائه الذي يفلق تفاحة الأرض ويزلزل استواء الأرض تحت أقدامي. يضيق صدري عن استيعاب كل هذه الإثارة. أحاول التنفس بعمق لاسترداد قلبي. ما الذي سيحدث "هي موتة واحدة، وسأخوض غمارها كيفما تكون".. ينتهي الغداء المتأخر. يعود الأولاد إلى الشاطئ. تشعل نورا سيجارتها، وتنظر إلي باطمئنان. أبتسم لها حاسداً إياها على الطمأنينة التي منحها إياها نصير. تلفت بعيونها انتباهي. أنظر إليه. وأنظر متوقعاً ما أرى.. هاهو ذا الرجل المطمئن أمامي، نائماً بهناءة طفل بعد أن أدى مهمته. تحاول أحلام إيقاظه، وأشير لها أن تدعه في طمأنينته. أعرض عليهما المشي، وتقول أحلام أنها ستذهب للاطمئنان على الأولاد.

تخلع نورا نعلها. وتمشي بخطى عارية على رمل الشاطئ. هاهي ذي جنتي أمامي. هاهي ذي جنتي أمامي عارية القدمين. هاهي ذي جنتي أمامي عارية القدمين وأعرف ذلك.

أنظر إلى نورا. أنظر إلى الموج الذي يزحف سريعاً ليضوي ويتمسح بأقدامها ثم يذوب ويذيب لي قلبي. هاهي ذي جنتي التي سأغادر. جنتي التي سأطرد منها بعد قليل.

ــ بدأت أحس مثلك بالخذلان. يسفح الله جنة أمام أقدامك ثم يطلب منك أن لا تلمسها. هذا منتهى القهر.. تقول نورا وهي تنظر إلى الشمس التي بدأت بإخفاء حدة سطوعها.. أنت أكثر من يفهمني هاني. أريد أن أسبح مع ابني غير أنني لا أستطيع أمام نصير وعائلته. تقول متحسرة. جاء يطلب مني أكثر من مرة وخذلته. ماذا أفعل.. تقول وتعتصر قلبي. تتبض في روحي بصورة ضبابية شفافة صورة سيدة تتوغل في دفء ماء العين، ويرفع ماء العين ثوبها شيئاً فشيئاً مع توغلها فيه. تتلاشى. تتلاشى أمامي صورتها وتستحيل ماء.

أنظر باتجاه أحلام التي بدأت بجمع الأولاد. أقول لنورا أن الفرصة سانحة أمامها. سوف أجرّ نصير وعائلته إلى الفندق، ويمكنها أن تتأخر عنا مع طارق.

تنظر إلي محاولة التعبير عن امتنانها، وأقطع عليها ذلك. أتجه إلى الأولاد. ألملم معهم أغراضهم.

ــ هيا. لديكم الآن حمام في الفندق استعداداً لجولة أخرى في بافوس. سوف آخذكم إلى القلعة بعد الحمام.. أقول وتتجه نورا لعزل طارق. تأخذ حذاءه إلى الشاطئ لغسله وأقول لها بأننا سنسبقها. أنظر إليها من بعيد، وأنا أقود بيدي ابن نصير. أراها تراقب ابتعادنا. وأحس بها ترفع ثوبها. ترميه ليستقبله رمل الشاطئ بلهفة. تأخذ يد ابنها ويجران بعضهما نحو حضن البحر.

أدخل غرفتي وأتجه صوب الحمام. أخلع قميصي القطني وسروالي. أنظر إلى نفسي عارياً أمام المرآة. أتأمل عريي. أتأمله. إن هذا جميل.

أفتح الستارة وأدخل البانيو. أحس كما لو أنني ألج عالماً آخر. أقف تحت الدوش وأفتح الصنبور. أتلاشى في شلال الماء الذي يغمرني، وأتلاشى. أفتح عيني. أفتح علبة الشامبو. أمرره على رأسي مغمض العينين. أضع رأسي تحت ا لماء وأدوّر يدي على رأسي. أدوّر يدي على جسدي. تبرق في ذاكرتي غرفة أمي. أدوّر الماء بيدي في حوض الاستحمام المستدير وأصنع دوامة حولي... غرفة أمي دافئة مثل العين. أحسّ بيديْ أمي تمرران الصابون على جسدي وأنا ألعب بالدوامة التي أصنعها حولي. تمرر يدها بالليفة على بطني وتنزل للأسفل وأخاف، الليفة تشوكني هنا. أسمع صوت ضحكة أمي الصافية الرنانة. تصب يدها الماء على جسدي. الماء دافئ وأليف. تبرق في رأسي صورة حية العين. خضراء مرقطة خلل رذاذ الماء المتطاير في الضوء. ثابتة ومغلفة بجلال الرهبة. أسمع صوت ماما يأمرني بالتماسك. "سوف أمد يدي وتراها". أنظر حولي بتوجس. أمسك بيدي حافة الحوض. تتحرك يد ماما والحية ببطء في اتجاهي. أشعر بالخوف وأسمع صوت ماما يطمئنني أنها معي. تنزل الحية من يد ماما في الحوض منسلة تحت رغوة الصابون وصانعة دوامة محيطة بي. يقشعر جسدي وأنا أراها تصعد ظهري غير أن يد ماما تسارع بالمرور على كتفي وأشعر بالأمان. أنظر ضاحكاً بخوف ومواربة وأنا أحس بالحية تظهر من خلف كتفي. أضع يدي على رأسها وتستكين. أحس بفم ماما الدافئ يطبع قبلة على كتفي خلل البخار.

نتجول في سوق بافوس. تداعب أنفي رائحة أجساد السائحات الشقراوات المضمخة بكريمات البحر عبر الزحمة. تلاحظ نورا هيماني. تقول أن السوق هنا يشبه سوق ليماسول. تبدي إعجابها بطاقم السيراميك الذي ضم مزهرية ومنفضة سجائر وقباباً لشمعدانات العشاء وأوعية ناعمة لموالح

المشروب. تنقر عليه لتسمع صوت نقائه. يقطع عليها طارق اختباراتها. يشير لها أن تشتري له عدة أسلحة الهنود الحمر، القوس والسكين والبلطة والسهام. تضحك وهي تشتريها له. تقول إن الفلسطينيين مسكونون منذ صغرهم بهاجس فناء الهنود الحمر، وإن طارق لن يكف عن كونه فلسطينياً. تقول إن أباه مازال يعزز فيه روح الفلسطينية عبر الهاتف، ويخاطبه بقوله: كيفك أيها الولد الفلسطيني. أبتسم وأنا أدير قبعة طارق بالعكس على رأسه مداعباً، وأقول له: مبروك عليك أسلحتك، لكنك مع هذا لن تنتصر علي. يضحك ويتحداني كعادته. أقول لنورا ونحن نغادر المحل ساخراً من ادعاءاتي أنني أصبحت أشك في انتصاري عليه، وتضحك. تقول لي.. المهم هو أن وضعك هنا سيترتب.. ألف دولار لقاء العمل مع نصير مبدئياً جيدة. تقول ويصدمها انفجاري بالضحك. أضحك، ولا أتوقف. تستغرب ضحكي وتنتظر هدوئي. أنظر إليها وأنا لا أزال أضحك. أقول لها: حسناً، أنت رأيت الفيللا التي يسكنها نصير ورأيت أن لسراج معلمتي إنكليزي بدلاً من واحدة، ورأيت مصروفه غير العادي على عائلته. لكنك لا تعلمين أن هذا بالدين. نصير يلعب لعبة تنقيل الطواقي من رأس إلى رأس، وأحياناً يخطئ بالرأس فيثير حنق البعض، وما يقيه من اتهامه بالنصب هو صدقه وكرمه. كل ما في نصير جيد إلا استهتاره بالمال وعدم تفريقه بين ماله ومال غيره. لديه اعتقاد وطمأنينة قاهرة بأن الأمور تمشي، وحب الناس له يجعلها تمشي لحسن حظه، لكن أحوال العالم الآن قد تقلب موازين طمانينة نصير. لقد ضحك محمود كما أضحك أنا الآن في باريس عندما زاره نصير. كان ينتظره بفارغ الصبر كي يسدد له ما عليه ويحلّ بعضاً من ضائقة باريس لكنه فوجئ به يطلب منه أيضاً. أقول لنورا وأنا لا أزال أضحك، وتنتظر مني أن أوضح لها أكثر. أقول لها.. حسناً أنا أطالب من يريد تشغيلي بألف دولار تسديد مبلغ ستة

آلاف دولار هي كل وفري. أي أنني لا أعرف كيف أستطيع أن أحصل منه على ثمن تذكرتي إذا غادرت قبرص، ومن نقودي، وأشعر أنني سأفشل لأن الطاقية على رأس غيري. أقول وتنظر نورا إلي محبطة من تكرار إخفاقاتي.

ــ نعم، أنا مفلس الآن، وكل نقودي دين على من يريد أن يفتح أمامي بطيبته مرة أخرى سراب قبرص. من يريد أن يطعمني مرة أخرى عنب جنتها الحامض. أقول لها، وتحوم فوق روحها الغربان. أحس أنني آلمتها. أحاول أن أخفف عنها. أقول لها أن لا تبتئس لأنني سأدبر نفسي. أقول لها ذلك وألوم نفسي. أحس بأنني كالعادة أفسدت يوماً جميلاً في حياتها وأطعمتها برعونتي لغربان القلق. أقول لها ضاحكاً ومنفجراً مرة أخرى بالضحك أن الترحيل لا يحتاج إلى نقود. رحلة بحرية أو جوية باتجاه السجن. والسجن لا يحتاج أيضاً إلى نقود. أقول لها وتضحك دامعة. تحاول أن تضربني بيديها وأتلقى لكماتها بيدي وسط ضحكات الدمع.

أدير قبعة طارق عاكساً اتجاه واقيتها إلى الأمام. سوف تزداد قوة الشمس.. أقول له مداعباً، ويعيد هو معانداً قبعته إلى وضعها المعكوس. سوف نرى من يصطاد سمكاً أكثر.. أقول له متحدياً ويخبرني أن أباه طلب منه أن يخبئ له أكبر سمكة يصطادها وأمازحه بالقول إننا سنحتاج إلى شاحنة تبريد ضخمة لأجل ذلك. يخبرني أن أمه اتصلت بأبيه هذا الصباح. قالت له إنهما بانتظاره وطلب منه أبوه أن يسلّم علي.. أشكره على إيصاله تحية أبيه، وأقول له أن أمه تحدتنا أن نصطاد ولو سمكة صغيرة، وأن علينا قبول التحدي. أنظر إلى البحر، الموج شديد في هذا المكان، وسوف نخذل نورا هنا. أنظر إلى يميني وأرى الشاطئ الرملي المفروش بأجساد الله المستسلمة لأصابع شمسه. أقترح على طارق الانتقال

إلى الطرف الآخر من الشاطئ حيث الهدوء أكثر، وأساعده في ضب صنارته وعلبة طُعم السمك، ونبدأ رحلتنا لاجتياز الصحراء. أختلس النظر إلى العسل المذاب المسفوح فوق الرمل. نبتسم أنا وطارق ونحن نرى رجلاً يصب البيرة على صفحة جسد أنثاه المفروش على بطنه باستسلام وتأوّه مع دلك البيرة بأصابعه فيه. تقطع طريقنا إلهة فارعة الطول بنهدين طليقين يرفرفان بأجنحتهما كما حمامات محمومات باتجاهي. تتسمر عيناي في الرأسين النوويين المتجهين كرمحين إلى صدري، ويضحك طارق. أدير قبعته وأنزل واقيتها على عينيه مداعباً. أقول له أن الصغار لا يجب أن يروا هذا ويضحك. نصل إلى شاطئ الأمان: كدت أموت.. أقول له ونحن نضحك. نحتل مواقعنا. أساعده في وضع الطعم في الصنارة: هكذا علّمني أبي يوماً، واصطدت الكثير من السمك.. أقول له.. وأقف بجانبه وهو يرمي صنارته التي تستقر هادئة على بطن البحر. أحتل موقعي بعيداً قليلاً عنه. ألقي بصنارتي، وأجلس لأراقب. أنظر إلى المدى المفتوح أمامي. أنظر إلى المدى المفتوح وأغرق فيه.. "ليس سوى هذا المدى وأكون بقربك. كم أشتاق إليك. كم أشتاق إلى أن أنسفح كما هذا الموج على صخر شواطئك، وكم أشتاق إلى أن أنرشق وأتناثر في صخر جبالك مثل الصقر إذا ما سد أمام جناحيه الأفق".

يملّ طارق من الانتظار ويأتي قربي لرؤية صنارتي. أقول له إن الحكمة الأولى في صيد السمك هي تعلم الانتظار والتأمل فيه. والحكمة الثانية هي الوفاء بوعده لأبيه بصيد أكبر سمكة، والحكمة الثالثة هي قبولي لتحدي أمه وصيد سمكة صغيرة.. أقول له وأجلس لأراقبه ضاحكاً، وهو يجرّ قدميه باتجاه صنارته ويجلس. أقول له إن الحكمة الرابعة هي وضع قبعته بالشكل الصحيح لأن الشمس الآن قوية، وأضحك. ينظر إلي متحدياً. يمسك عود صنارته ويعود لمواجهة بحره منتظراً أسماكه. أنظر إليه.

أشفق على قبوله هذا التحدي. أنظر إليه وحيداً مستغرقا بصنارته وبحره وسمكته: يا الله الأطفال.. أنظر إليه مستغرقاً بعناده. أنظر إلى البحر. أركّز عيني في عينيه. أحاول وصل موجاته بموجات روحي. أقول له: يا بحر. هذه المرة فقط. سمكة واحدة كبيرة قليلاً لصديقي العنيد. أركز روحي في الموجة القادمة الزاحفة متسارعة باتجاهي. أغمض عيني لها كي تجتاحني وأغيب.

ـ هل أنت متأكد أن الغزال أعجب أمك... قال لي والدي ونظرت إليه. نظرت إلى الرجل المثقل بهموم قلبه، ومرّت صورة أمي أمامي مشدودة بطولها الفارع رافلة ومحاطة بقبيلة حيواناتها التي تراقبها حتى لو شغلتها عنها. راقبت مشهد أمي وهي تروح وتغدو منظفة ومرتبة ممرات حديقتها. مقلمة أغصان شجيراتها. مبعدة الخراف ومنظفة معالفها. حاجزة الدجاجات ومنظفة أقنانها، رائحةً وغاديةً محاطةً بحماماتها البيضاء المتطايرة المرفرفة بأجنحتها حولها، مبعدة قليلاً وبرفقٍ الغزال الذي يتبعها أينما ذهبت مشمشماً إياها ومتمسحاً بثوبها، ناظرةً إلى الكلب الذي أمرته أن يجلس على عتبة الباب حارساً، وضاحكةً من نظراته المتلهفة الراجية أن تسمح له بالاقتراب. راقبت المشهد الذي يجري ببطء أمامي سارياً بأنفاس الربيع. أحسست أن أنفاس الربيع المحيطة بالمكان هي أنفاس حضور ماما.. حتى الحية سيدة الرهبة والهدوء التي خرجت بجلالها وأشارت لي ماما أن لا أقترب منها وهي تأخذ حصتها من البيض وتعود إلى جحرها إنما كانت تتحرك بإيقاع حضور ماما. راقبت المشهد الغائب المتجلّي برذاذ شمس وأنفاس الربيع، واندفعت للإعلان عن حضوري فيه. جررت الكبش من إليته واستدار غاضباً لمهاجمتي، استفزيت غضبه أكثر بعدم خوفي منه، وضعت راحتي واقية صدمات لرأسه الذي ظل ينطح

عبثاً وسط ضحكاتي، مررت بين الديك المتخايل المنتصب بعرفه الأحمر ودجاجاته النقاقات البرتقالية اللون المتباهية بمس جنون الريش المتراكم أحمر وأخضر وأصفر براقاً يذهب بمخيلة الديك إلى العدم. حجزت الذكر المتخايل عن إناثه، وبعثت برفساتي لمنقاره الذي يحاول نقر رجلي عبثاً فيه الجنون وسط تحدي ضحكاتي. طاردت الحمامات المتطايرة حول ماما وتطاير ريشها الأبيض وأنا أحاول إمساكها، وقفزت على ظهر الغزال الذي جفل وركض مستجيراً ومحتميا بماما التي أمرتني بالكف عن بعث الفوضى بالمكان والخروج. خرجت متخطياً الكلب الضاوي ورفسته كآخر عبث أخلّفه ورائي. غبت قليلاً وعدت. تسللت داخلاً دون أن تنتبه ماما لدخولي وكنت أراقبها من خلف معلف الخراف ولم أكن وحدي من يراقب. دخل بابا الحظيرة ووقف متأملاً ماما التي لم تتوقف عن العمل وتظاهرتْ كأنها لم تره. رفعتْ ثوبها قليلاً لتغطية كتفها العاري، وما لبث الثوب أن أنحسر مرة أخرى عن كتفها أمام الرجل الذي يكاد يهلك بأنفاس الربيع السارية أمام عينيه. تقدم بخطى بطيئة وسرت مسحة خوف وتوجس في أرجاء المكان. جفل الغزال مرتجفاً من إشارة كف صياده التي يعرفها جيداً ويعرف معنى إشارتها له بالابتعاد. تضاءلت الخرفان منزوية ورفرفت الحمامات خائفة ومبتعدة مع تقدم خطى الرجل الذي أدركت رهبته وشدت انتباهي لمراقبة ما يحدث.

تقدم بابا غير أن ماما بقيت على هدوئها. بقيت مولية إياه ظهرها ناظرة إليه دون أن تنظر إليه نظرة متحدية ومشوبة برغبة متمنعة أدركت سر قوتها عندما انكسرت مقاومة الرجل الذي وقف قليلاً خلفها مكابراً انهيار جدرانه، وطوّق خصرها دون أن يستطيع غير ذلك بذراعيه من الخلف دافناً رأسه في عنقها، زافراً الهم الثقيل الذي راكمه بقلبه شتاءٌ كامل من الحرمان. قاومتْ ماما متمنعة وحفزتني مقاومتها على أن أظهر وأواجهه

لكنني رأيتها معلقة بين التمنع والاستسلام.. أدارت رأسها قليلاً إلى الخلف وانثنى جسدها تحت ثقل جسده وحطّت ركبتاها على الأرض لكنها انتفضت مرة أخرى مقاومة كسرها. استدار جسدها منتفضاً بعنف وأوقع بابا الذي اصطدم رأسه بجذع الشجرة. وضع بابا يده على رأسه باستنكار وغضب. ونظرت هي إليه مستغربة عنفها ومحاولة الاعتذار، وانتشلهما من وضعهما الطرق على باب البيت. لملما نفسيهما وخرج بابا لفتح الباب. كان أخاه عبد الستار وسمعتْ ماما صوته فغاب أمام عينيها النهار. خرجت وسألته إن كان بقي في وجهه بعض الماء كي يدوس عتبة بيتها، وأجابها أنه أتى إلى بيت أخيه، وقالت له: حسناً ويمكنك أن تخرج من بيت أخيك الآن. وقف بابا مذهولاً ومحرجاً أمام أخيه الذي نظر إليه منتظراً منه أن يتحرك لردع زوجته. أراد بابا أن يهدئ الموقف بين الاثنين طالباً منهما تطويل بالهما غير أن أخاه خرج وهو ينظر إليه نظرة عتب قاهرة. قال بابا لماما وهو ينظر إليها بهدوء بركان يضغط على نفسه كي لا ينفجر: إنك تتجاوزين الحدود.. ونظرت هي إليه نظرة تحدّ وأدارت له ظهرها غير مبالية وكأنها تقول له "أرني ماذا ستفعل"، لكنها اختلست النظر إليه من شباك غرفتها مراقبة هدوءه الذي أحسست أنه بث فيها الخوف...

أفيق من غيابي على انتفاضة طارق وهو يناديني. لقد علقت سمكة بصنارته. أقوم بسرعة. أمسك عصا صنارته مساعداً إياه وأطلب منه أن يحرك بيده ملف الخيط. يبدأ صيدنا بالخروج وسط الترقب المندهش لطارق. يصرخ عالياً.. إنها سمكة. ونسحب السمكة الفقيرة باتجاهنا. أعلمه كيف يخرجها من الشص دون أن يقطع فمها. يسألني هل هي كبيرة كفاية لوعد أبيه وأنظر إلى السمكة الصغيرة. أخبره أن علينا الاختيار بين

أن نكتفي بها أو أن نغامر بها نفسها لصيد سمكة أكبر. أقول له ضاحكاً أن الحكمة الخامسة هي أنك لن تأخذ إذا لم تعط.. أي أن علينا التضحية بالسمكة الصغيرة لصيد سمكة أكبر إذا أراد، ويوافقني. أعلمه كيف نشكها بالشص وألقي بها إلى منطقة أعمق وأطلب منه أن ينتظر. أجلس في مكاني وأراقبه وهو مستغرق في انتظاره. أنظر إلى البحر. أركز عيني في عينيه، أقول له: يا بحر نحن لم نخلّ باتفاقنا. سمكة بسمكة.. من أجل صديقنا العنيد. أنظر إلى الموجة القادمة زاحفة باتجاهي وأغيب...

قالت عمتي إن نوارة تجاوزت حدودها، وتساءلتْ أمام جدتي عن أمي ماذا تظن نفسها لكي تطرد عبد الستار من بيت أخيه. دخل والدي بيت أهله وسمع نهاية الكلام. نظر إلى أخته دون أن يسلّم وجلس. قالت جدتي الحكيمة التي ما تزال تحب أمي وتعذرها لائمة ابنتها أن على الجميع تقدير مصيبة نوارة، وصمت والدي. جلس قليلاً وخرج. دخل إلى البيت. سألني إن كنت أحتاج شيئاً في دراستي وجلس قليلاً يراقب مفتوناً ومقهوراً سريان الربيع في الجلسة الهادئة التي ترتبها ماما في حوش البيت دون أن تكلّف نفسها بنظرة إليه. كابر تجاهلها له قليلاً ونظر إلي. لم يستطع احتمال قهرها له بهذا التجاهل، وخرج.

وضع الساقي كؤوس الشاي الداكنة على طاولاتها النحاسية الطويلة غير المتوازنة وتلاشى في ضجيج المقهى. رمى بابا الأوراق التي بيده خاسراً ولملمها الرجل على يمينه، وأبدى شريك بابا في اللعب استياءه من عدم انتباهه وبقي بابا على صمته. قال الخصم على يسار بابا مازحاً معه ومعزياً إياه أن عليه أن لا يبالي.. "الخاسر في اللعب رابح في الحب"، وضحك بابا.

دار الورق مرة أخرى، ودار حديث الزوجات. سأل شريك بابا الرجل الذي يطلب الاستعجال في اللعب إن كانت أم فراس كالعادة هيأت مكنسة التأخير، وضحك الرجل محمراً. قال إنه يرأف بالمسكينة فقط لأنها لا تنام قبل أن يأتي وضحك الجميع. قال شريك والدي إنهم كلهم مكابرون، الوحيد الذي حسم أمره وسلم بهزيمته هو حمّاد الذي وضع عصمته بيد امرأته.. قال ذلك وجمدت في وجه بابا الدماء. نظر بهدوئه المخيف إلى الرجل الذي أحس أنه انزلق في الكلام غير أن الوقت فات. عادت لوجه بابا شراسة هدوئه. وضع الورق أمامه على الطاولة. نفض بيده اليسرى طاولة الشاي الصغيرة التي على طريق قيامه. أمسك بالرجل من رقبته بيديه ورفعه. صفعه وهو ممسك به صفعة لفتت انتباه الجميع ثم حمله بيديه وألقى به كما كيس على الأرض.

تسمّر الجميع صامتين ومراقبين. لم يفعل ذلك حماد العابد منذ سنوات، ولابد أن الأمر أخطر من أن يتدخل به أحد. نظر الرجل مرعوباً إلى بابا الذي بدأ يستعيد هدوءه. نظر بابا إلى المقهى الصامت الذي يراقبه. اقترب من الرجل. رفعه برفق وأغمض عينيه معتذراً له. سأله إن كان تأذى. قال له أنه آسف لأنه لم يتمالك نفسه. أعاده إلى كرسيه وسط دهشة الجميع مما يحدث، وخرج.

سحبت ماما اللحاف لتغطيني. تنفستْ برودة ليل ربيع الفرات. قالت: ما أجمل هذا الليل، وأصخت السمع. كان ثمة وقع خطى تقترب. أطلّت من شق ستارة النافذة كي لا يراها أحد، وعادت. تمددت قربي وقالت متحسرة وقلقة: لم يأت أبوك بعد.

سألتها لماذا تنتظر بابا قلقة وتتجاهله عندما يأتي، وضحكت. أصخت السمع لصوت الضفادع وصراصير البستان التي بدأ صوتها بالتلاشي

ونظرت إلي مبتسمة ومترددة خجلة من الكلام. أجبرها إلحاح انتظاري جوابها وابتسمت محمرة الوجه.. قالت لي: حسناً.. هناك مشكلة بسيطة بيني وبين أبوك ونحن نحاول تجاوزها، لكنني مازلت وسأبقى أحب أبيك. قالت ذلك وفرحتُ. طلبتُ منها أن تحدثني عن أبي، وسرحت شاردة في ذكرياتها. قالت لي: أذكر المرة الأولى التي طلبني فيها. كان جارنا وكان يعمل بالنجارة وكنت معجبة بشخصيته. كنت صغيرة عندما سمعت أن شاباً من حارتنا تطوّع للجهاد من أجل فلسطين عام 1948، وكان بطلي منذ ذلك الوقت. عندما عاد فرح أهله بعودته لكنه أمر الجميع أن لا يفرح بعودته. غاب فترة طويلة لا يراه فيها أحد.. ورأيته بعد ذلك وقد امتلك سيارة يعمل عليها. كانت أمك يومها أجمل بنات الحي. وكنت أحتقر الرجولة الخاوية وأضربت عن الزواج. وضعت شرطاً على الرجل الذي أختاره وهو أن يكون قرار الطلاق بيدي لا بيده، وهو شرط لا يقبل به رجل خشية من اتهام المجتمع له بفقد رجولته. أذكر يومها أن أباك استوقفني في الطريق. سلّم علي بأدب وقال لي مركزاً عينيه في عينيّ إنه يريد الزواج مني. كان يكبرني بثماني سنوات لكنه كان بطلي. تناسيت شرطي. قلت له أن بإمكانه رؤية والدي دلالة موافقتي، وفاجأني. قال إن لديه شرطاً واحداً فقط وهو أن أقبل أن تكون عصمتي بيدي. دمعت عيناي من التأثر وقلت له أن يذهب لطلبي من والدي.

رفض جدك في البداية شرط أبيك قائلاً له إنه لا يرضى أن يهدر شاب رجولته حتى ولو كان من أجل ابنته. وأصرّ أبوك عليه. قال له إنها رجولتي لا رجولتك. وكان جدّك يفهم معنى هذا الكلام من رجل مثل أبيك فوافق... تزوجنا ومرت العاصفة بسلام. كان الجميع يخشى عنف أبيك إذا انفجر ولم يجرؤ أحد على لومه، وساعده في هذا أنه أخذ المرأة التي يتمناها الجميع. قالت أمي هذا وضحكت ضحكة حزينة: ليس هناك رجل

أرجل من أبيك. قالت وتابعت مكسورة: أذكر حين انهزمنا في حرب العام الماضي أنه بكى أمامي، رغم ما في ذلك من عيب على الرجل، لكن أبوك كان يحبني ويعرف أنه بكى أمام امرأة تعرف معنى الرجولة الحقة.

غفوت وبقيت ماما تتحدث.. قالت كلاماً كثيراً كي تبقي جمرة انتظارها متوهجة، لكنها استلقت متظاهرة بالنوم عندما عاد. فتح باب الغرفة بهدوء. نظر إلينا كي يطمئن. نظر إلى ماما التي أوقفت أنفاسها ورأى أنها نائمة وأغلق الباب.

سالت دموع ماما بهدوء دون أن تسمح لأي حركة أن تحتضن دموعها. كنت أعرف أنها تحمل صخرة كبريائها الثقيلة وحيدة وتحولها آخر الليل إلى دموع محمولة على نقالة عتابا الحزن...

تسارعت انهيارات الربيع، وتسارعت اتهامات عمي لأمي بأنها لا تحب العائلة وتحتقرها، ووقف بابا على الحياد طويلاً لكنه رضخ أخيراً لضغط أخيه وأخواته. دخل الحظيرة التي تصهل فيها أنفاس الربيع وتبعث فيه الجنون. كابر وقوعه. قال لها أنه آن الأوان لكي تراضي عائلته وتعتذر من عبد الستار. رفضت ماما وخرج هائماً. غاب ساعة وعاد برفقة الجزار. أشار له إلى أحد الخراف، ونظر إلى ماما. تجاهلت ماما نظرته ولم يستطع الاحتمال. نظر إلى ماما الرافلة بأنفاس الربيع بين حيواناتها. نظر إلى الغزال الذي يتابعها مشمشماً خطواتها وأوقف الجزار عن إحضار الخروف. أشار إلى الغزال وقال له: هذا.

وقفت ماما تنتظر إليه أن يتراجع لكنه لم يفعل. شحذ الجزار سكينه أمام رقبة الغزال المقيّد اليدين والقدمين المبطوح على جنبه الناظر بتوسل إلى ماما، ووقف بابا وماما ينظران إلى بعضهما بتحد أغشى بصريهما عما يحدث. نظرت ماما إليه طالبة منه أن يوقف جزاره. ونظر هو إليها طالباً منها أن تفعل هي ذلك، ولم تنتظر السكين...

شخب دم الغزال وجرى نهراً بينهما...

أشاحت ماما بوجهها كي لا ترى، ومضت مغالبة دموعها إلى غرفتها.

أفاق بابا من ذهوله على غرغرة الغزال الأخيرة بدمه، وهجم على الجزار. صاح فيه: أيها الحيوان، وأمسكه من رقبته، جرّه وألقى به أرضاً، رفسه وبصق عليه، أمسكه من رقبته وألقى به وهو يزأر خارج البيت. عاد متهالكاً، نظر إلى غرفة ماما الموصدة الباب بوجهه، مضى إلى الغزال الذبيح، حمله ووضعه تحت الشجرة، أحضر وعاء ولملم التراب الممتزج بدمه ووضعه بجانبه، حفر قبراً له تحت الشجرة، دفنه، قرأ عليه الفاتحة، ومضى إلى سيارته، أدار محركها وغاب...

أنظر إلى طارق. أنظر إلى الولد المستغرق وحيداً في انتظار ما يفي بوعده لأبيه. أنظر إلى الولد الوحيد في انتظاره لأبيه، وأعود للتلاشي في الأزرق الداكن لروح البحر...

غاب بابا أياماً لم يعد فيها للبيت. ذهب إلى البادية وأغرق نفسه بالعمل. أصبح يأتي إلى البيت كل بضعة أيام. يؤمن احتياجاتنا ويسألني عن دراستي. يطمئن علينا ويمضي. قالت لي ماما إنه موسم عمله مع البدو وعادت مرة أخرى إلى صمتها وحزنها ومرّ الربيع.

عاد بابا بعد غياب يومين في البادية. أنزل الخضار والفاكهة وأكياس احتياجات البيت من السيارة ووضعها في المطبخ. سأل ماما وهو يهم بالخروج إن كانت تحتاج إلى شيء. قالت له إن الفندق لا يحتاج إلى شيء، ووقف ينظر إليها دون أن يتكلم. قالت له: اسمع. إن كانت العصمة التي بيدي تمنعك عن اتخاذ قرار فإنني أتخلى عنها...

طار صواب بابا واحمر وجهه مختنقا بالغضب. كان هذا أكثر مما يطيق، وأحسست أنا بالبركان الذي يحاول إخماده في داخله. حاولت التدخل. فكرت أن أقول له أن ماما لا تقصد، وأنها تحبه، وأنها لم تكن تنام كما يظن إلا بعد عودته.. لكنني ترددت. لم أعرف كيف أعبر له. منعني غضبه المكبوت الذي يوشك على الانفجار من التصرف، ونظر هو إلى ماما نظرة طويلة تحول فيها وجهه إلى البرود وخرج.

ذهبت ماما إلى باحة البيت الخلفية دامعة العينين، وبدأت تذرّي حبيبات القمح تحت شمس الصيف كي تذيب صخرة الحزن واللوم التي تطحن صدرها. عاد بابا بعد ساعة. دخل الحظيرة. كان هادئاً. داعب شعري، ومسح حبيبات العرق التي انبعثت تحت سياط شمس الصيف من على جبيني المنهمك في اللعب. اقترب من الخراف فجفلت، والدجاجات هي الأخرى هربت من الحَب الذي نثره أمامها، وحمامات ماما البيضاء طارت.

أخذ أحد الصيصان وقتله، ثم ربطه بخيط وصعد به السلم نحو عش الحية المحاذي للسطح. علّقه أمام باب العش وجلس ينتظر. كانت ماما تذري القمح في باحة البيت، وأنا جلست بعيداً أراقب المشهد.

مدّت الحية رأسها لالتقاط الصوص، وتسمرتُ أنا في مكاني. رفع بابا هراوة ضخمة كان يخفيها بجانبه، ولم تصدق عيناي ما يحدث. نزلت الهراوة على رأس الحية ساحقة إياه بضربة واحدة فقط. شعرت بوخز الألم بين فخذي، وركضت صارخاً لماما أن تأتي. قلت لها وأنا ألهث لقد قتل بابا الحية، ضربها على رأسها بالعصا.

ركضت ماما تاركة وعاء القمح يهوي وناثرة بقدميها الراكضتين المتصلبتين حبيبات القمح التي لم تنزل أبداً إلى الأرض، وظلت أمامي معلقة ومحيطة بماما التي مازالت تركض أمامي مخترقة حجب النور.

انحنت ماما إلى الأرض، وحملت الحية التي همدت فيها الحركة، ونظرت بحزنها الذي لم يفارقه الكبرياء إلى بابا، وبابا وقف بهراوته أمامها.. صياداً قادماً من ظلام الأساطير، متحفزاً لحماية كبريائه ومستعداً للنزال.

انكفأت ماما بدموعها، وحفرت للحية قبراً تحت شجرة التوت بجانب غزالها ووارتها التراب...

انكفأ بابا بهراوته مبتعداً خارج البيت إلى الصخور. وأنا رأيت ماما تستند إلى جذع الشجرة وتجهش بالبكاء. وأنا رأيت بابا يرفع هراوته ويحطمها بضربة واحدة على الصخور ويخفي عينيه بيديه...

أنظر إلى طارق دامع العينين. أنظر إلى الولد الوحيد المستغرق في تحدي وعده لأبيه. أنظر إلى الولد المستغرق في انتظاره لأبيه، وأتلاشى في الداكن الأزرق لروح البحر.

أسمع وقع خطوات تقترب. أسمع وقع خطوات تتوقف فوقي. أشم ظل نورا بجانبي. أطلب منها أن تجلس دون أن أنظر إليها. تضحك من تنبؤاتي وتجلس. أشم عطر جسدها الفواح بياسمين شانيل، وألاحظ سعادتها الرافلة ببلوزتها الحمراء المهفهفة بروح البرتقال. أقول لها إنها تبدو سعيدة هذا اليوم وتوافقني. تسألني عن حال طارق وينتبه لها. يترك صنارته ويأتي راكضاً. يقول لها فرحاً إنه اصطاد سمكة صغيرة وأعادها عمو هاني إلى البحر ليعطيه سمكة أكبر. تنظر إليّ ضاحكة. أحس أن صنارة طارق تهتز، وأؤكد لها اتفاقنا مع البحر. أقول لها إننا يمكن أن نسحب الآن سمكتنا، وتضحك. يركض طارق معي وأنا أجرّه. أرى الفلينة تختفي وتظهر. أطلب منه لف الخيط ويبدأ سحبنا لسمكتنا وسط ضحكات نورا ودهشتها. يصرخ طارق من الفرح وهو يرى السمكة الكبيرة التي تخرج

وأسحبها لتستقر بين يدينا. أضرب كفي بكف طارق: لقد وفينا بتحديات وعودنا. وتنظر نورا إلينا ضاحكة خلل دموعها التي تحاول إخفاءها.

ــ هل رأيت ماما.. البحر صديق عمو هاني.. يقول طارق مدهوشاً وأنا أضع له سمكته في سطله الذي ملأه بالماء. تضحك نورا وهي تردّد مقلدة طارق في تشديد القاف. صديق. ويحقق نبوءاته أيضاً. وتضحك مؤكدة لابنها:

ــ نعم. لقد تنبأ مرة أنه سيتزوج فتاة رآها في لوحتها. تقول وأنظر إليها. ينساب الأخضر والأزرق والبني أمامي جدول ماء يرمي طفولة العالم بين يدي وتبزغ خلل رذاذ الضوء أمامي شجرتي. أنظر في بحيرة عيني نورا وأصمت. أسألها حزيناً أين غابت كل هذا الصباح وتقول لي سعيدة أنها أعدت لي مفاجأة سوف أسمعها في المطعم حيث ينتظرنا نصير وعائلته.

أحتسي كأس بيرتي ولا أتركه حتى يفرغ. يا إلهي ما أطيب البيرة بعد هذا العطش. أقول وأنا أسترخي ويضحك نصير. يقول إن هؤلاء الفلاحين القبارصة لم يفلحوا سوى بصناعة بيرة جيدة، ونضحك. تنتظر نورا هدوءنا وتقول: حسناً.. لدي مفاجأة حدثت اليوم. اتصلت بمحمود صباحاً، وشرحت له وضع هاني. اتفقنا أن يستعين بأحد أصدقائنا السويديين في تدبير فيزا لدخول هاني إلى السويد، وتبين للصدفة أن له صديقاً مهماً في السفارة السويدية بقبرص، ووعده بالفيزا لكنه طلب أوراقاً صحية لحالة طوارئ قلبية لأن جواز سفر هاني شارف على الانتهاء. كل شيء معدّ الآن لذهابك إلى السويد، وسيتكفل بك رفاقك هناك. ليس عليك سوى تدبير الأوراق وتذكرة الطائرة. تقول نورا جملتها الأخيرة وهي تسترخي هادئة. أنظر إليها. أنظر صوب البحر. أحدّق فيه ملياً. أرى رفيقي ينزل من على صليبه. يستبدل نظارة بنظارة ويبتسم. أقول له.. حسناً أيها الرفيق. أنظر

إلى نصير المتشاغل بموالح البيرة. أنظر إليه مركزاً عيني في عينيه، ويقول لي: نعم.. يمكن تدبير الأوراق وتذكرة الطائرة.

أعود للنظر إلى نورا وهي ترتشف بيرتها هادئة. تشعل سيجارة وتسحب نفسا عميقاً. أنظر إليها محاولاً إشعارها أنني متضايق.. ها هي ذي مرة أخرى تتصرف كما لو كانت أمي لكن ما العمل. اليأس محتوم في أن تكف عن رعايتي بهذه الطريقة. أنظر إليها بحنان وهي تحتسي بيرتها وتبدأ عيناها بالذبول. كم أحب نعاسك نورا. أقول.

تنظر نورا صوب البحر الذي يغلفه المساء: ليت الغروب انتظرنا قليلاً كي نشهده سوياً من هاهنا.. تقول وأبتسم بمرارة: هذه القلعة تسحرني.. تقول وأجيبها أن أمنيتي كانت قبل أن تأتي من باريس هي إحضارها لرؤية الغروب من هذا المكان.. لكن كما هي عادتنا.. نصل إلى بعضنا متأخرين. حتى الغروب.. غروب بسيط كنت في وسطه ولم يتحقق. تقول: أحس كما لو كنت الأميرة التي تقف على الأسوار بانتظار أن ينشق البحر عن سفينة انتظارها. تقول وأنظر معها خلل الليل إلى المجهول المضاء بقمر يكتمل.

ـ إنه تأثير القمر... أقول وتنظر هي مسحورة باتجاه قمرها. أقول وأنظر وجهها الشجري. أتأمل بروفيل وجهها المنسكب شلال فضة وكأنني أحاول حفره في ذاكرتي. أبتسم مفعماً بالغرور لتسريحة شعرها على شكل ذيل الفرس كما أحب. تنتبه لتأملي تسريحتها.

ـ هل أعجبك شعري على هذه الصورة.. تسألني دون أن تنظر إلي وهي تبتسم. أقول لها.. نعم. تعجبني مكاملتك تفاصيل قتلي. وتنظر في عيني بحنان. تطلب مني أن لا أضفي على الأمر طابع المأساة، وتطلب مني أن أحفظ لها بذاكرتي هذا المساء الجميل. أنظر إليها. أغرق بهدوء في بحيرة عينيها، وأدير وجهي صوب البحر. تقول إنها لم تسألني عن

علاقتي بروزا، ويفاجئني سؤالها.. أنظر إليها مستفسراً وتقول إنها لاحظت اهتمامها بي. تقول لي إنها تريد أن تطمئن علي وتمتدح طيبة روزا.. أقول لها إن الفتاة مخطوبة لموظف بنك أمامه مستقبل ولا تقتنع بمبرري. أقول لها إن الفتاة مسيحية وإنني اكتفيت بخذلان مسيحية قبلها ولا تقتنع بمبرري. أقول لها إن روزا أطيب من أن أخرّب لها دعة حياتها مع خطيبها، وتصمت.. أنظر صامتاً باتجاه القمر: ماذا فعلت لأستحق هذا.. أقول له. أنظر إلى نورا. أحاول طمأنتها بأنني سأكون بخير وأرجوها أن تكف عن التصرف كما لو أنها أمي. أحاول أن أغير الموضوع. أقول لها بهدوء وتكسّر إنني لم أسألها مرة كيف أحبت يوسف وتستدير لمواجهة عيني. تسألني عيناها إن كان عليها حقاً أن تجيب، ولا ترى عيناها غير شظاياي. تقول لي إنها القصة المعروفة.. فتاة متحمسة للكفاح القومي وتحرر المرأة، في مدينة صغيرة، تلتقي بأحد الذين تقرأ عنهم وتراهم في أحلامها: مثّل لي يوسف شخصية المناضل، المثقف، الفلسطيني الذي لا يساوم. إضافة إلى أن جمال رجولته سحرني. تقول وأفكر بيوسف. لم أستطع سوى الإعجاب به حتى اللحظة الأخيرة. لم أشك لحظة في أنه يعرف بأنني أحب زوجته، ومع هذا تصرف برجولة... أسمع صوته يوصي ابنه في التلفون أن يدع عمه هاني يعلّمه صيد السمك ريثما يأتي. أفكر أنه سينجح في استعادة نورا. تسألني نورا أين سرحت وأقول لها بيوسف. تقول لي إنها لم تسألني إذا كان من الصواب عودتها إليه بعد الذي فعله معها. أفكر بوالدي. قال لي: إنك لا تشك لحظة بأنني أحب أمك. أفكر فيه وأراه، يقف مواجهاً ماما بهراوته، كما صيادٍ قادمٍ من ظلام الأساطير... أفكر فيه وهو يتجه محني الظهر يجرّ هراوته باتجاه الصخور. أفكر فيه وهو يرفع هراوته ويحطمها بضربة واحدة على الصخور، ويخفي عينيه. أنظر في بحيرة عيني نورا. أحس بعذابها. أحس

بالصخرة القاسية التي احتلت غصباً عنها قلبها. أحس أن الوقت قد حان لمواجهة كبريائها الجريح الذي لم يسمح لأحد حتى بمجرد مناقشة الأمر رغم حاجتها الشديدة لمن يضع يده لهدهدة الجرح. أحس بحاجتي إلى أن أسندها. أنظر في عينيها.. أقول لها: أنت تعلمين أننا نحن الرجال أطفال المرأة التي نعشق، وأنت تعلمين حتى لو كابرت وأردت أن لا تعلمي أن الطفل يزوغ أحياناً وربما لا لشيء سوى تجربة حريته فيخطئ. أقول لها إنني لا أريد أن أبرر ليوسف انزلاقه مرة لتجربة حضن امرأة أخرى، لكنني أعرف تماماً أن المرأة العظيمة تغفر لطفلها نزوته وهي تعلم تماماً أنه طفلها لا طفل غيرها. أقول لها إنني أعرف أن يوسف يحبّها، وإنه لم يكف لحظة عن محاولة استعادتها، وإنه يكفيه ألماً أنه يعرف أنك بجانب رجل أعلن مرة أنه سيتزوجك، ومع هذا تحمّل ألمه برجولة ولم يكف لحظة عن محاولة استعادتك. أقول لها إنني أعلم أنك تحبينه وهو يعلم ذلك، وأن الجرح الذي فتحه بروحك لا يعادله عقاب حتى لو كان بحجم القتل الذي تمارسينه فيه. لكنني أعلم حق العلم أنك تتألمين لما تفعلين، وأنك تكابرين حبّك حتى الموت. أقول لها إنني أعتقد وأريد لها أن تعيد طفلها الذي شاء له سوء حظه أن يضلّ لحظة عنها، وأنني أعتقد وأريد لها أن تعود هي إلى طفلها. أقول لها إنني أعتقد وأريد لها أن تعيد رجلها وطفلها إلى حضنها.

أنظر في عيني نورا وتنظر هي في عيني. أنظر في الصخرتين اللتين لم يعد باستطاعتهما احتمال ضغط الدمع الذي سيفجّرهما. أفتح يدي وصدري للعينين اللتين يبرق في عذابهما ندى الدمع. أفتح يدي وصدري للعينين اللتين ينجرح في عذابهما ندى الدمع ويسيل مدرارا على خدها. أفتح يدي وصدري للرأس الذي حطّ وهو يشهق من تفجر ما حمّل نفسه

فيه على صدري. أفتح يدي وصدري لجنتي التي أردتها صافية هكذا كما هذا ا لبحر الذي يدخل عيني وأنا أضم جنتي ليسكنهما ولا يغادر.

تتفلت نورا هادئة من دفء صدري، وتخطو هادئة لتجلس مواجهة البحر وقمرها. هادئة. أنظر إليها. أنظر إلى جنتي هادئة ومستسلمة لحضن بحرها وقمرها. أنظر إلى جنتي التي بلون البرتقال. أنظر إلى جنتي مكتملة بحضن بحرها وقمرها. أنظر إلى جنتي التي تبتعد عني شيئاً فشيئاً وهي مكتملة بحضن بحرها وقمرها. أنظر إلى جنتي التي سأغادر.

لا مكان

ها أنا مرة أخرى بين السماء والأرض. مرة أخرى أحلّق في هاوية أفق مفتوح على عذاب تساؤلاتي. الشمس بدأت تميل للغروب. يا إلهي. هكــذا أراها من نافذة الطائرة. غروب ساحر كالعادة لكنه مخيف. يا إلهي. لقــد أصبح الأمر حقيقة. لم يعد لعبة وقوف أمـــام المتوســط لافتــراض أنـــه الفرات، ولأخاطبه متكسراً "أيها المتوسط في الروح". ها أنا مرة أخــرى بين السماء والأرض أمام أفق مفتوح على هاوية اللامكان...

أتفقد جواز سفري بجيبي قرب صدري لأشعر بالاطمئنان غير أن هــذا بعيد. يا إلهي. أنظر إلى الأزرق الوحيد الداكن تحتي لأرى نقطة تــسندني ولكن لا مكان. هاوية زرقاء فقط. فم مفتوح أزرق فقط لابتلاعــي. فــم مفتوح أزرق فقط وأحاول كسر غرقي فيه بالنظر إلى البرتقــال المفتــوح على يميني. أحدق بهذا الأفق الساحر. أسلم قياد نفسي لهذا الأفق الــساحر والجذاب المفتوح. تتحرك الغيمات البرتقالية أمـــامي بــبطء. أفقــد وزن جسدي وأنسلخ عنه شيئاً فشيئاً عبر النافذة. أحلّق فـــي المـــدى البرتقـــالي الطليق، وحيداً أحلّق في هاوية اللامكان...

تمر صورة حسان وهو يودعني: لقد سعدت بصداقتك. أقــول لـــه. تمــر صورة عماد وهو يودعني: لم تدعني أعلمـــك تقنيـــات الإخـــراج علـــى الكمبيوتر. يقول لي. تمر صورة روزا وهي تودّعني. تقــول لـــي أنـــت الوحيد الذي أبكيتني، وأبتسم لها فتبتسم.

تمرّ صورة نورا. أغرق في بحيرة عينيها وهي تضمني فيهما بحنـــان. أسمع صوتها يطمئنني عنها عبر الهاتف. تقول إنها سعيدة الآن بعودتهـــا إلى العائلة، وإنها ربما ستستقر مع يوسف في قبـــرص أو يعـــودان إلـــى سورية أو الأردن. توصيني أن أنتبه إلى نفسي وأقول لها ضاحكاً: حـــسناً

يا أمي. أعتدل في مقعدي دامع العينين غارقاً في شلال صـــورها عاريـــة القدمين على رمل الشاطئ، يترامى عند أصابع قدميها الموج، يقبّل قدميها الموج ولا يحتملُ، يذوب ويتلاشى. تضرب صدري بيديها دامعة العينـــين وضاحكةً. أمسك بيديها. تجلس مسترخيةً ناعسةً في حضن نبيـــذي. كـــم أحتاج إلى تقبيل نعاسك. تضحك بين يدي البحر علـــى الطفـــل المقلـــوب بزورقه بين يديها. تخفي متمنعةً لمعةَ فضةِ قمرٍ ينسلّ ليـــسكن شـــفتيها، وأقول لها كدت أموت. تضحك دامعةً. تضرب صدري. ينجـــرح نـــدى الدمع وينساب على خديها. تتفلت من دفء يدي وأموت. تجلس هادئـــة، مستسلمة، كاملة بالقمر وبالبحر.

أعتدل في مقعدي دامع العينين. أحس أن ثمة من يراقبني. أنظـــر إلـــى الصف الذي على يساري وأصاب بالدهشة. أرى السائحة الفنلندية نفـــسها تنظر إلي. تبتسم محيية. أبتسم لها. أتذكر ضـــماني لوصـــولها ســـالمة. أضحك وتضحك. تطلب عيناها أن أضمن رحلتها مرة أخرى. أقول لهـــا: حتى ستوكهولم، وتطلب أكثر. أنظر إليها وأفكّر. حسناً.. ما الذي سأخسر. أقول لها بهزة رأسي: نعم.. ستصلين سالمة حيث تريدين، وتضحك.

انتهت

عن المؤلف

المثنى الشيخ عطية

ميلاد: سورية ــ 18/ 5/ 1953

شاعر

له مجموعتان شعريتان:

"نعم هناك المزيد": عن دار الحقائق/ بيروت 1980

"فم الوردة": عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت 1989

بريد إلكتروني:

mothannas@hotmail.com